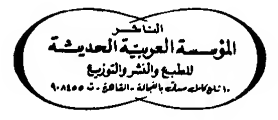
أدبيات

نبع الآداب والثقافة المعاصرة

الشخصية المُنْتَجِة

يوسف ميخائيل أسعد



أدبيات

•

نبع الآداب والثقافة المعاصرة

•

من: أدب، وقصة، ورواية، ودراسة، وسير، وبحوث، وفكر، ونقد، وشعر، وبلاغة، وعلوم، وتراث، ولغات، وقضايا، وتاريخ، واجتماع، وعلم نفس، ورحلات، وسياسة الخ.

•

تحت إشراف ومراجعة

لجنة القراءات
بالمؤسسة العربية الحديثة

•

شعار السلسلة

نحن نخرج لك أحسن الكتب

•

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ـ المطابع ٨، ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية ـ المكتبات ١٠ ـ ١٦ شارع كامل صدقي الفجالة ـ ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة ـ القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ ـ ٩٠٨٤٥٥ ـ ٢٥٨٦١٩٧ فاكس ـ 202/2596650 ج.م.ع

المقـــدمة

اختلط مفهوم الإنتاج فى أذهان كثير من الناس ، فحصره البعض فى نطاق الإنتاج المادى . وبذا فإن الإنتاج صار يعنى فى أذهانهم التأثير فى الخامات وإحالتها إلى سلع تباع وتشترى ويستخدمها الناس . وذهب بعض الناس إلى حصر مفهـوم الإنتاج فى الإدارة . فالعـامل المنتـج بالمفهـوم الأول لا يعدو أن يكون وسيلة فى يد رجـل الإدارة الذى يستحث العامل الذى يتعامل مع الخامات على العمل ، فيتذرع لحثّـه على ممارسة الإنتاج بالمكافأة والعقاب ، وذلك حتى يحفزه على التأثير فى الخامات . ولكن بالإضافة إلى المفهومين السابقين للإنتاج ، فثمة مفهوم ثالث يشيع فى أذهان بعض الناس هو المفهوم التخطيطى . فالشخص المنتج هو ذاك الذى يترسَّم ما سوف يتم إنتاجه من سلع ، فيضع الخطط المستقبلية ويحدد الإمكانات اللازمة للإنتاج ، بل ويحدد عدد العاملين بأيديهم وعدد المديرين الذين سوف يشرفون على أداء المتعاملين مباشرة مع الخامات .

ولكن هل هذا الإنتاج لابد أن يكون مرتبطاً بالخامات بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر؟ الواقع أن بعض الناس قد أضافوا أبعاداً جديدة لمفهوم الإنتاج . فالشخصية المنتجة هى تلك الشخصية التى توافرت لها مجموعة من الشروط النفسية . فالإنتاج الحقيقى هو ذاك الذى يصدر عن الإنسان المتمتع بالصحة النفسية الجيدة . وبتعبير آخر فإن الشخص المنتج هو ذلك الشخص المتمتع بالإيجابية فى حياته . فجميع الأنشطة

الإيجابية - بغض النظر عن المضامين التى تتضمنها ، سواء كانت مضامين مادية أو معنوية - تدخل فى نطاق الإنتاج . فالعطاء الإنتاجى قد يكون مادياً بالتأثير فى الخامات المحسوسة ، كما قد يكون منصباً على العلاقات والمعارف ، وما يمكن أن يوفره المرء المنتج من تأثير نفسى أو معرفى أو مهارى لتكوين الشخصيات المنتجة . فثمة الأشخاص الذين يقومون بتدريب الآخرين على فنون العمل الإنتاجى المباشر ، أو على فنون العمل المتعلقة بالإدارة . فهؤلاء الأشخاص المؤثرون فى غيرهم يعتبر تأثيرهم إنتاجاً .

وثمة المفهوم الوقائى والمفهوم العلاجى للإنتاج . فالطبيب الذى يقدم الوسائل والعقاقير التى تقى الناس من الوقوع فى براثن المرض ، هو شخص منتج بهذا المعنى الوقائى . وكذا فإن الطبيب الذى يعالج الناس مما أصيبوا به من أمراض هو أيضاً شخصية منتجة . وعلى النحو نفسه فإن رجال الأمن يعتبرون شخصيات منتجة ، لأنهم يحافظون على المواطنين من الخارجين على القانون ، بل ويقبضون على المجرمين ويبعدونهم عن طريق المواطنين الآمنين .

ورجل الدين الذى يبث فى قلوب الناس المثل العليا المتعلقة بالسلوك الصالح والمفضى إلى النعيم بعد الرحيل من الدنيا ، هو شخصية منتجة بالمعنى الروحى . والوالدان اللذان يقومان بتربية أبنائهما تربية صالحة ، بل وكل شخصية تؤثر بسلوكها وبما تقدمه من تصرفات متسمة بالحشمة والوقار والسمو ، تعتبر شخصية منتجة بهذا المعنى .

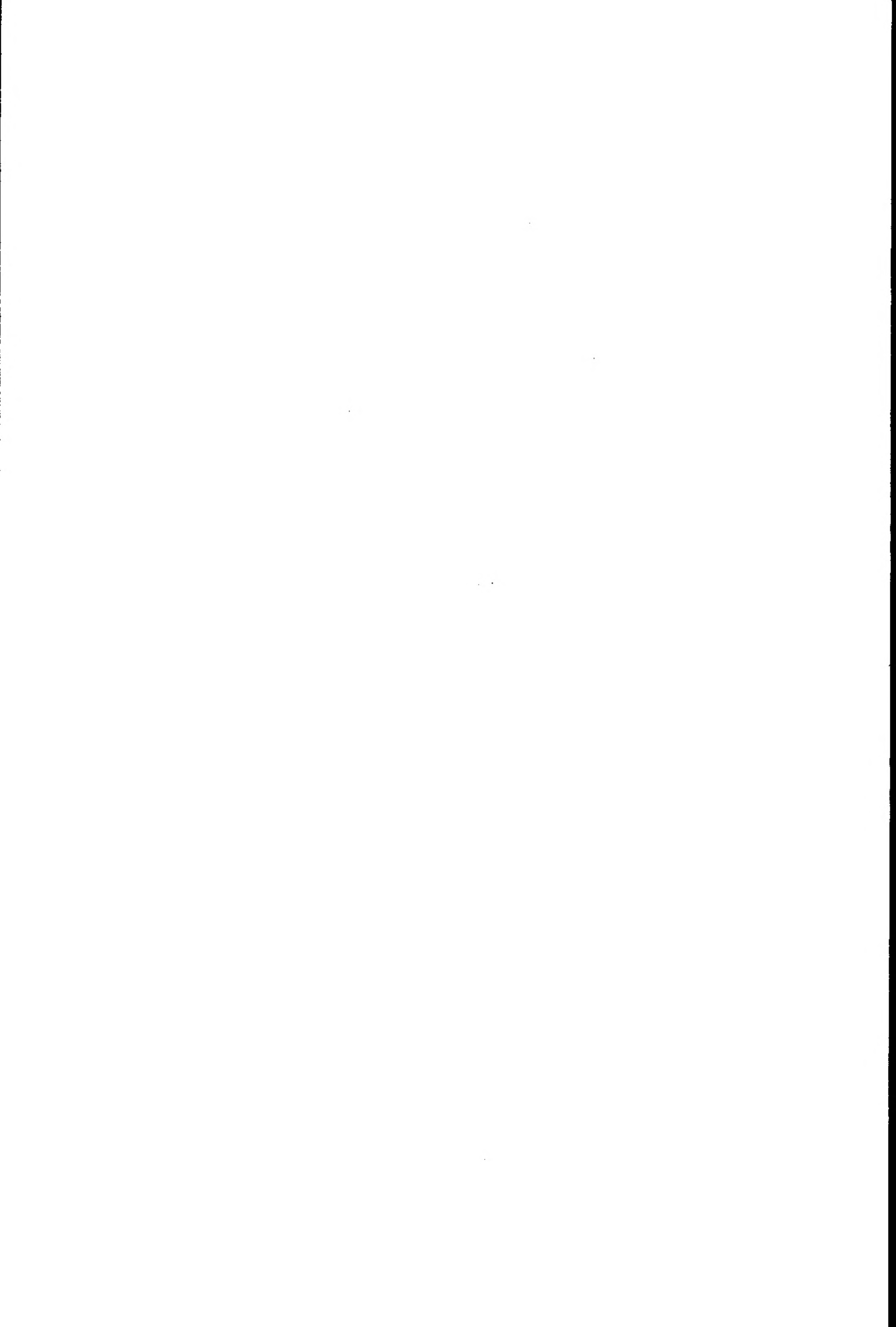
وحتى بالنسبة لمن يقدمون نتاجات لا يتأتى عنها فوائد مادية ، بل تكون لها قيمة مطلقة فى ذاتها ، يعتبرون أيضاً من الشخصيات المنتجة

فالفنانون والأدباء والعلماء يعتبرون شخصيات منتجة بهذا المعنى الواسع الذى يضم فى رحابه الإنتاج المعنوى .

وهكذا نجد أن مفهوم الإنتاج قد اتسع نطاقه وتباين عند كثير من الناس . وهذا ما يحدو بنا إلى تناول موضوع « الشخصية المنتجة » بالمدارسة فى هذا الكتاب ، حتى يتسنى لنا إلقاء الضوء على مقوماتها الكثيرة ، وحتى يتسنى لنا إيضاح ما غمض منها وأصابه اللبس .

ولعلنا نضيف بهذا العمل زاوية جديدة فى مدارستنا للشخصية ، وهى زاوية جديرة بالتناول والتأمل لاستجلائها من كافة الجوانب التى تتضمنها .

يوسف ميخائيل أسعد



الفصل الأولُ
معنى الانتــاج

☐ **المعنى الكمِّى :**

عندما نذكر الكم بالنسبة للإنتاج ، فإننا نعنى فى الواقع عدة معان فرعية ، لعلنا نقوم بتقديمها على النحو التالى :

أولا – كمية الخامات المُسْتخلصة :

فالعمال المكلفون باستخراج الخامات المعدنية من أحد المناجم ، يقاس مدى إنتاجهم فى ضوء المعايير التى تقاس بها كميات مايستخلصونه من الخامات ، سواء فى اليوم ، أم فى الأسبوع ، أم فى الشهر ، أم فى المدة التى يقررها المسئولون عن تحديد الكمية المنتجة خلال وحدة زمنية يتّفق عليها . وفى حالة الجماعات – وهو السائد بالطبع فى حالة استخراج الخامات من المناجم – فإن إنتاج الفرد يقاس فى ضوء ما تقوم المجموعة التى ينخرط فيها باستخراجه ، فيقسَّم مجموع الإنتاج على عدد العمال الذين يقومون بالفعل بعمليات الاستخراج ، مضافاً إليهم المشرفون عليهم والمديرون وغيرهم ممن يستلزم العمل تعاونهم معهم أو الاضطلاع بأدوار تكميلية مع الدور الإنتاجى المباشر الذى يضطلعون به .

ثانياً – كمية الخامات المجهزة للتصنيع :

فالواقع أن الخامات المتباينة لا تدخل فى نطاق التصنيع بغير تجهيز ، بل هناك سلسلة من عمليات التصنيع تخضع لها الخامة حتى تنتهى إلى

الصورة النهائية التى يتخذها شكل المنتج . فكل خامة تمر إذن فى مراحل تصنيعية متتالية ، بحيث يمكن أن ننظر إلى المادة المصنعة من زاويتين : زاوية الخامة من جهة ، وزاوية المنتج من جهة أخرى . فمثلاً بالنسبة للدبَّـاغ الذى يضطلع بتناول جلود الحيوانات ودبغها ، فإن ما ينتهى من دبغه ، يعتبر خامة تنخرط فى المرحلة التالية من التصنيع ، بينما يعتبر مُنتَـجاً بالنسبة للمدبغة التى هيأته فى الصورة التى يصلح بمقتضاها لأن ينخرط فى نطاق الصناعات الجـلدية المتباينة . فيقاس إنتـاج المدبغة والعـاملين بها فى ضوء كمية ما يقومون بدبغه فى اليوم أو الأسبـوع أو الشهر أو خلال غير ذلك من مدة يتفق عليها .

ثالثاً — عدد القطع التى يتم إنتاجها من الخامة التى سبق تجهيزها :

فمصنع الأحذية أو الشنط يقوم بإنتاج عدد معين منها خلال اليوم أو خلال الأسبوع أو خلال الشهر . ويمكن قياس مدى إنتاجية العامل بمصنع الأحذية أو الشنط ، وذلك بقسمة عدد ما يتم إنتاجه منها خلال المدة المتفق عليها على عدد العاملين والملحقين بهم من موظفين ، ولقد ينحو المصنع ، أو بالأحرى صاحب المصنع ، إلى تحديد كمية الإنتـاج لا بعدد القطع التى يتم إنتاجها ، بل بالربح الذى يتم تحقيقه . وبهذه الطريقة تقوم إدارة المصنع بتوزيـع الربح على العاملين به . ولكن التوزيع فى هذه الحالة لا يكون توزيعاً حسابياً ، بل يكون توزيعاً هندسياً. فصاحب المصنع نفسه يفوز بنصيب الأسد من الربح المحقق ، ويتلوه أصحاب النفوذ أو الشخصيات الرئيسة به التى لا غنى عنها ، أو أصحاب الكفاءات العالية ، سواء فى الإنتاج أو الإدارة أو التخطيط أو غير ذلك من اعتبارات .

رابعاً — التقييم الزمنى :

هناك بعض الأعمـــال لا يمكن قياس إنتاج الممارس لهـا بالقطعة أو بالمكاييل المتباينة ، بل يقاس بعدد الساعات التى يقضيها العامل فى مقر العمل . وحتى إذا هو لم يؤد أى عمل خلال فترة بقائه فى مقر العمل فإن مجرد بقائه هناك يُعد إنتاجاً . فالشرطى الذى يسهر طوال الليل فى الشارع دون أن يقوم بضبط أى شخص خارج على القانون ، يعتبر بقاؤه هناك أو بالمخفر أداءً إنتاجياً . وكذا الحال بالنسبة للطيار أو مضيفة الطيران ؛ إنهما يحاسبان إنتاجياً فى ضوء عدد الساعات التى يقضيانها فى عملهما ، سواء بالمطار قبل إقلاع الطائرة أم بعد إقلاعها واستمرار وجودهما فى الجو . وقل الشيء نفسه بإزاء الكثير من الأعمال التى لا يمكن قياس الأداءات بها إلا بعدد الساعات التى يقضيها العامل فى نطاق العمل .

خامساً — التقييم الرقمى العكسى :

فمن الأعمال ما يقيَّم العاملون بها ، لا فى ضوء زيادة الكم ، بل فى ضوء نقص الكم . من ذلك مثلاً تقييم مأمور المركز . فالشرطة مهمتها الأساسية مقاومة الخارجين على القانون . فإذا كان مأمور القسم ماهراً فى الضرب علـى أيدى الخـارجـين على القـانون ، فإنهم يَـرْعوون ولا يجرؤون على اقتراف الجرائم أو الوقوع فى مصـيدة القــانون . وبالتالى فكلما كانت المحاضر التى تثبت بقسم الشرطة أقل عدداً ، فإن ذلك يشير إلى حسن قيادة مأمور الشرطة لرجاله ، وبالتالى فكلما كان عدد المحاضر أقل ، كانت إنتاجية ذلك المأمور أكبر . والشيء نفسه يمكن أن يقال بإزاء طبيب القرية . فكلما كان عدد الوفيات بقريته أقل ،

كان ذلك شاهداً على حسن نهوضه بالوقاية والعلاج . وعلى العكس من هذا فإن زيادة عددها يشير إلى هبوط إنتاجية ذلك الطبيب .

وهناك فى الواقع مجموعة من المزايا يتصف بها تقييم الإنتاج بالكم ، لعلنا نقوم بتقديمها على النحو التالى :

أولا — سهولة التقييم :

فمما لا شك فيه أن تقييم الإنتاج بالكم وَفْق ما ذكرناه فى البنود الخمسة السابقة ، كفيل بإقبال الناس على الأخذ به والاستعانة به فى تقييم العاملين فى المواقع المتباينة . ولعلنا نزعم بحق أن العلوم المختلفة تنحو إلى هذا النوع من التقييم . ولعل ما أحرزته الإنسانية من تقدم يعود إلى أخذها بهذا النوع من التقييم . فهو لا يكفل سهولة المنال فحسب ، بل يكفل الدقة والعدالة أيضاً . فحيث إن المسئولين عن الإنتاج والمنتجين يُعتبرون هم أنفسهم شركاء فى عملية التقييم ، فإن الاتفاق فيما بينهم على الأرقام التى تشير إلى كمية الإنتاج ، يضمن تعاونهم بعضهم مع بعض وعدم النيل من قدرتهم التقييمية .

ثانياً — إنه التقييم الأقرب إلى الذهن :

فأول ما يتبادر إلى الذهن عندما يذكر تقييم الإنتاج هو هذا النوع من التقييم الكمى . ولعلنا نزعم بحق أن هذا النوع من التقييم هو أقدم تقييم أخذ به الناس منذ بواكير الحضارة الإنسانية . إذن فهذا التقييم يمتد بجذوره فى قوام الحضارة البشرية منذ بزوغها على وجه الأرض . ومعنى هذا أنه صار أقرب ما يكون إلى الطبيعة البشرية ، أو أنه استجابة طبيعية لتقييم الإنتاج فى جميع صوره وأشكاله المتباينة .

ثالثاً — إنه تقييم يتصف بالموضوعية ويستبعد العواطف والانحيازات الشخصية :

فهذا النوع من التقييم الكمِّى يتصف بالموضوعية البحتة . فمن المستبعد أن يطعن العامل فيمن يقوم بتقييم إنتاجه طالما أنه يستند إلى الكمية المقاسة بالأرقام . فالأرقام شاهد صريح على الموضوعية وعدم تدخل الانحيازات فى عملية التقييم . وحتى فى الحالات التى ينحو فيها المقيِّم إلى التزوير فى عدد أو وزن الكميات المنتجة ، فإن الطعن فى تقييمه يكون من السهولة بمكان بحيث يتسنى إذن وَقْفه عن الاستمرار فى انحيازاته أو تعصباته .

□ **المعنى الكَيْفى :**

من المستحيل أن نغض النظر عن المستوى الكيفى فى إنتاج أية سلعة ، أو بإزاء أداء أى عمل . فالكم والكيف صنوان لا يفترقان ، وإن كان من الممكن التركيز على طرف من هذين الطرفين والتأكيد عليه وأخذه فى الاعتبار أكثر من أن نأخذ الطرف الثانى بنفس القدر من الاعتبار . ومعنى هذا أن هناك فريقين من المقيِّمين للإنتاج : فريق ينحاز إلى الكم ، وفريق آخر ينحاز إلى الكيف . ونحن نزعم أن تحرِّى العدالة بين الكم والكيف فى عملية التقييم من الصعوبة بمكان ، أو هو شىء يقرب من الاستحالة . ويمكن أن تكون تلك الاستحالة راجعة إلى التكوين الشخصى للمرء الذى يقوم بالتقييم . فالاستعداد النفسى وما اكتسبه الشخص المقيِّم من توجُّهات ينحازان إلى واحد من هذين القطبين ، فنجد أن المقيِّمين بطبعهم وبحكم ما فطروا عليه ، إما أن يكونوا كميِّين وإما أن يكونوا كيفيِّين بإزاء مواقفهم من تقييم الإنتاج والمنتجين .

وعلينا فيما يلى أن نلقى الضوء على التقييم الكيفى للإنتاج لنستبين جوانبه ، فنجد أن تلك الجوانب التى يتضمنها هذا النوع من التقييم يمكن أن تتحدد على النحو التالى :

أولاً — مدى ملاءمة المنتَج للتوظيف العملى :

فالتقييم الكيفى للإنتاج يهتم أكثر ما يهتم بمدى ملاءمة المنتَج لاحتياجات السوق ولخدمة الناس وتحقيق رغباتهم أو الوفاء بأهدافهم ومستلزمات حياتهم ، ولتحقيق الرفاهية لهم ، وإشعارهم بالسعادة والبهجة والرضى . فقد يكون الإنتاج كثيراً ولكنه لا يحقق الشروط الكيفية التى ذكرناها، وبالتالى فإن كثرته لا تشفع له، بل تعتبر خسارة وضياعاً للأموال والجهد بغير طائل .

ثانياً — مطابقة الإنتاج للأهداف والمواصفات :

فحتى يكون الإنتاج جيداً ، لا بد أن يكون محققاً للأهداف والمواصفات التى حُدِّدت بشكل مُسبق. فالمخططون للإنتاج يحددون أهدافاً ومواصفات دقيقة يجب أن تتحقق فيه . فكلما كان العامل فى مقر عمله واقفاً على تلك الأهداف والمواصفات وملتزماً بتحقيقها وتجسيدها فى المنتج الذى يقوم بإنتاجه ، فإنه يكون بذلك قد أجاد فى أداء عمله الإنتاجى .

ثالثاً — مماشاة التطورات التكنولوجية والإدارية والتنظيمية :

فالواقع أن الإنتاج فى أى موقع من مواقع العمل ، لا ينهج وَفْق طريقة استاتيكية لا تتغير ، بل ينهج وفق طريقة ديناميكية متطورة باستمرار . وتطور العمليات الإنتاجية ينبثق من دخيلة العمليات الإنتاجية ذاتها . وطالما أننا نستخدم لفظ « تطور »، فإننا نعنى إذن عدم وجود

طفرات فى الأداءات المتباينة، وحتى المبتكرات التكنولوجية والتنظيمية والإدارية التى تستجد فى مجالات العمل ، لا تقتحم تلك المجالات من الخارج ، بل تلتحم بهـا ، وتنبعث من صميمها . فالمحراث الآلى كان تطوراً للمحراث اليدوى ، والطائرة كانت تطوراً للسيارة ، والغواصة كانت تطوراً للباخرة . وقل الشىء نفسه بإزاء جميع وسائل الإنتاج وفنونه وتقنياته المتباينة . من هنا فإن المشتركين فى العمليات الإنتاجية لا بد أن يكونوا شخصيات مرنة قابلة للتطـور وملاحقة ما يستجد بمجالات عملهم من تطورات مستمرة ومتباينة .

رابعاً — التمتع بالنظرة المستقبلية :

فمن الخصائص الأساسية فى التقييم الكيفى للإنتاج قياس قدرة العاملين فى المواقع الإنتاجية المختلفة على الأخذ بالنظرة المستقبلية التوقعية. فالعامل المنتج يجب أن يستشرف الأخطار التى يمكن أن تلحق به أو بمقر العمل الذى يعمل به . فالعامل فى مَغْـلق الخشب أو فى ورشة النجارة، يجب أن يستشرف الأخطار التى يمكن أن تحيق بالأخشاب واحتمال اشتعال الحريق بها لأسباب يتسنى له أن يتوقعها ، فيستبعدها أو يبطل مفعولها قبل أن تحدث بالفعل . وكذا يستشرف العيوب أو النقائص أو الأخطار التى يمكن أن يسببها المنتَـج الذى يقوم بإنتاجه فيعمد إلى تنقيته منها، وذلك بأن يدخل عليه التعديلات التى يستبعد بواسطتها ما يمكن أن يتأتى عن إنتاجه من أخطار أو نقائص .

خامساً — القدرة على تصحيح الأخطاء وتعديل المسار الإنتاجى :

فالوقوع فى الأخطـاء فى أثناء التخطيط للإنتاج ، أو فى سياق العمليات الإنتاجية ذاتها مسألة واردة ، ولكن من خصائص الإنتاج

الجيد قدرة العاملين به على الخروج من نطاق الخطأ إلى نطاق الصواب ، وتعديل المفاهيم المُعْوجة وإحلال مفاهيم صحيحة وأكثر فاعلية محل تلك المفاهيم المُعْوجة أو غير المجدية . ومن المعلوم أن النمو الخبرى لا يتأتى إلا بالوقوع فى الأخطاء . ولكن كلما كان المرء أكثر قدرة على التخلص من أخطائه ، وإحلال الصواب محل الخطأ ، فإنه يكون بالتالى أرقى مستوى وقادراً على إحراز التقدم المستمر ، كما أن إنتاجيته تدأب على التحسن شيئاً فشيئاً وبشكل حثيث .

وهناك مجموعة من العيوب التى تشوب هذا النوع من التقييم الكيفى فى الإنتاج ، لعلنا نقوم بتقديمها على النحو التالى :

أولا — لا يغنى التقييم الكيفى عن التقييم الكمى :

فمهما كان تقدير المرء للتقييم الكيفى عظيماً ، فإنه لا يستطيع أن يستغنى به عن التقييم الكمى . فالإنتاج يقاس فى النهاية بالكم لا بالكيف ، أو قل إن التقييم الكيفى يأتى فى المرتبة الثانية بعد التقييم الكمى الذى لا مناص منه فى عملية التقييم .

ثانياً — هذا التقييم الكيفى مشوب بالذاتية والانحيازية :

فالتقدير الشخصى لمن يقوم بالتقييم يهيمن فى الغالب على العمليات التقييمية الكيفية . فما يعتبره أحد المقيِّمين إتقاناً وتركيزاً ، قد يعتبره مقيِّم آخر تباطؤاً وتضييعاً للوقت والمال . فالكيف يكمن بدخيلة العامل وبدخيلة المنتَج فى الوقت نفسه، بينما الكم واضح للعيان ويقاس بسهولة ويسر .

ثالثاً — التقييم الكيفى للمنتَج هو تقييم متأخر :

فمن المتعذر تحديد مدى جودة الإنتاج بعد إنتاجه مباشرة ، بل

تتضح جودته بعد وقت قد يكون طويلا . ناهيك عن أن المظهر الخارجي للمنتَج قد يكون وسيلة للخداع وللتقدير الزائف لقيمة ذلك المنتَج ، فقد ينبهر المرء بالشكل الخارجي لأحد المنتجات فيقبل على شرائه ، ولكنه يفاجأ بالعيوب التي اختبأت عن الأنظار فخدعت المشترى بالشكل الجميل المبهر وحالت بينه وبين الوقوف على حقيقة الكيف الردىء المختبئ بعيداً عن الأنظار .

□ المعنى الوقائى :

سبق أن ألمحنا إلى هذا المعنى الوقائى بذكرنا لمهمة ضابط الشرطة ولمهمة الطبيب الذى يذبّ عن الناس مصادر الأمراض المعدية ، وذلك بتحصينهم ضدها . ولعلنا فيما يلى نقوم بإلقاء الضوء على مفهوم الوقاية الإنتاجية ، أو بتعبير آخر على هذا المعنى الفرعى من فروع المعانى التى يتضمنها مفهوم الإنتاج على النحو التالى :

أولاً — الوقاية البيولوجية :

فحيث إن الناس يشكّلون العمود الفقرى للعمليات الإنتاجية ، فإن حمايتهم من أسباب الفناء السريع ، أو من الإصابة بالأمراض أو العاهات التى تعمل على التقليل من قدرتهم الإنتاجية ، يدخل فى نطاق هذا النوع من الإنتاج الوقائى . وكما سبق أن قلنا فإن الأطباء ينخرطون فى هذا النوع من الناس المنتجين إنتاجاً وقائياً .

ثانياً — الوقاية النفسية :

فمن الحقائق التى يجب ألا تعزب عن الأذهان أن الإنتاج لا يمكن أن يتم على خير وجه إلا إذا أحس المشاركون فيه بالأمن والطمأنينة . ومعنى هذا أن رجال الأمن والقضاء الذين يَكْفلون للمواطنين المناخ

المناسب لأداء أعمالهم وممارسة أنشطتهم بغير أن يعتدى عليهم معتد ، ينخرطون فى إطار المنتجين الوقائيين . ناهيك عن المسئولين عن وضع الحدود والضوابط فى مجالات العمل المختلفة التى تكفل لكل موظف أو عامل الشعور بالطمأنينة ، وبذا تتوافر له فرصة إبداء ما لديه من قدرات وممارسة مهام وظيفته أو القيام بالمسئوليات المنوطة به دون اعتداء أحد عليه . فبهذا المعنى فإننا نستطيع أن نقول إن توفير الأمن للناس يدخل فى نطاق هذا المعنى الوقائى للإنتاج .

ثالثاً — الوقاية التأمينية :

فثمة كثير من الأخطار المحدقة بالمرء تهدد حياته وحياة ذويه وأمواله وممتلكاته . من هنا فإن نوعاً من الحماية قد بزغ للعيان وصار يحتل مكانة هامة بين مقومات هذا النوع من الإنتاج الوقائى . فالتاجر الذى يؤمّن على محله التجارى ، والموظف الذى يشترك فى التأمينات الاجتماعية أو بإحدى شركات التأمين أو بغير ذلك من مؤسسات تأمينية ، إنما يكون تأمينه ضد ما يمكن أن يحمله له المستقبل من معوقات أو من شيخوخة تُعجزه عن مواصلة العمل. فهو يكون بذلك قد لجأ إلى هيئة إنتاجية وقائية تسانده ضد الظروف الصعبة التى يمكن أن تأتى على سعادته ، أو تجعله فى موقف صعب أو فى مجابهة مواقف خطرة تهدد حياته وحياة أولاده ، أو تهدده بضياع ممتلكاته ، فيرتمى فى حمأة الفقر والعَوَز .

رابعاً — الوقاية التربوية والإعلامية :

وهذا النوع من الوقاية يهدف إلى حماية الناشئة والبالغين من الشرور التى يمكن أن تحيق بهم . من ذلك مثلاً الوقوع فى براثن المخدرات ،

أو الانحرافات الجنسية أو اقتراف الجرائم ، أو الخروج عن الحدود التى يسمح بها القانون فى المعاملات والعلاقات الاجتماعية المتباينة ، سواء فى نطاق الأسرة ، أم فى نطاق العمل ، أم فى نطاق العلاقات الاجتماعية العامة . فهذا النوع من الوقاية التربوية والإعلامية يعتبر من روافد هذا النوع من الإنتاج الوقائى .

خامساً – الوقاية السيكولوجية والروحية :

فمن مقومات الإنتاج الوقائى ما يقوم به الموجِّه النفسى أو رجل الدين من توجيه للناس بقصد انتهاج السلوك الذى يقيهم من شر الوقوع فى براثن الأمراض النفسية أو الانحطاط الروحى وفقدان الطريق القويم أو الانحطاط إلى المستويات الحيوانية والحرمان من الحياة الروحية التى تكفل السعادة للمرء وتضىء حياته فيصير مستنيراً ومستمتعاً بالسمو الروحى .

وهناك فى الواقع مجموعة من الاعتراضات التى توجه ضد هذا النوع من الإنتاج ، لعلنا نقوم بتقديمها ونرد عليها على النحو التالى :

أولاً – السلبية دون الإيجابية :

فمن البديهى أن ينصب مفهوم الإنتاج على شىء إيجابى يقدمه المرء . أما أن تتوافر الحماية للمنتجين من الأخطار التى قد تحدق بهم ، فإن ما يقدم من حماية لا يمكن اعتباره إنتاجاً . فالمسألة هنا شبيهة بموقف الشاب الذى تنافس مع شاب آخر على التعيين بإحدى الوظائف ولكنه لم يعيَّن ، بل عين الشاب الآخر بها . فهل من المعقول أن نقول إن الشاب الذى فشل فى الحصول على الوظيفة هو صاحب الفضل فى إحراز الشاب الآخر لها وتعيينه بها ؟ صحيح إن ذلك الشاب الذى لم

يعيَّن بتلك الوظيفة قد أتاح الفرصة بطريق غير مباشر أمام الشاب الآخر فى التعيين بها ، ولكن لايمكن اعتباره صاحب الفضل فى تعيينه ، وذلك لأن الدور الذى قام به كان دوراً سلبياً وليس دوراً إيجابياً .

وللرد على هذا الاعتراض الذى يطعن فى اعتبار الأشخاص الوقائيين منتجين نقول إن تشبيههم بالشاب الذى فشل فى الحصول على الوظيفة وتعيين شاب آخر بدلاً منه ، إنما هو تشبيه فى غير محله . ذلك أن الأشخاص الوقائيين لا يتنافسون مع غيرهم على الإنتاج ، وإنما هم يقومون بالدفاع عنهم وتهيئة المناخ المناسب لهم فى أداء العمليات الإنتاجية التى يضطلعون بها . فهم شركاء حقيقيون فى العمليات الإنتاجية . وإذا أردنا أن ننحو إلى التشبيهات ، فلنشبههم إذن بالمقومات الصحية المتباينة ، كالتغذية والهواء الصالح للتنفس وسلامة الأجهزة الجسمية المتباينة لدى المرء ، فيضمن النهوض بأنشطته التى يستهدف النهوض بها فى حياته العملية على خير وجه . فهل من الممكن اعتبار ما تقوم به التغذية والهواء الصالح للتنفس وما تقوم به الأجهزة الجسمية الداخلية من عمل ، مجرد نشاط سلبي لا يكفل للمرء النهوض بالأنشطة الإيجابية فى الحياة ؟ هناك تكامل فى الواقع فيما بين تلك المقومات التى ذكرناها وبين ما يضطلع به المرء من أنشطة . وعلى النحو نفسه هناك تكامل فيما بين القائمين بالإنتاج الوقائى وبين القائمين بالإنتاج الكمى أو الكيفى .

ثانياً — تقليل الإنتاج وضعف مستواه :

أما الاعتراض الثانى الذى يوجه إلى الإنتاج الوقائى فهو اتهامه بأنه كثيراً ما يعمل على خفض مستوى الإنتاج كماً وكيفاً ، أعنى أنه يعمل على تقليل الإنتاج من جهة ، وعلى الحط من مستواه من جهة أخرى .

وشاهد ذلك مايلاحظ فى حالة حماية الموظفين والعمال من الفصل من الخدمة ومن توقيع العقوبات عليهم ومراعاة حقوقهم بالكامل والضرب على يد السلطة الرئاسية ، وذلك بعدم توقيع أى عقوبة على الموظف أو العامل إلا بعد إجـراء التحقيقات التى كثيراً ما تنتهى لصالح المرءوس وإلى معاقبة الرئيس . فنتج عن ذلك إهمال الموظفين والعمال فى أداء واجباتهم ، وبالتالى انخفاض إنتاجيتهم من جهة ، وإصابتها بالكثير من العيوب فى التنفيذ من جهة أخرى . بيد أن المتحمسين لهذا النوع من الإنتاج الوقائى يقولون إن لكل قاعدة شواذاً من جهة ، وإن عيوب التطبيق لايعنى فساد المبدأ ، أعنى بهتان هذا النوع من الإنتاج الوقائى .

فعلى الرغم من أن ما ذكر بإزاء إهمال الموظفين والعمال بعد توفير الضمانات لهم بتجاه تجبر الرؤساء صحيح ، فإن هذا لايحول دون القول بأن الإنتاج الوقائى يجب أن يأخذ فى اعتباره جميع أنحاء العمل بغير استثناء ؛ أعنى عدم ممالأة المرءوسين ضد الرؤساء والتحيز الأعمى لهم . فهـذا النوع من الإنتاج الوقـائى يجب أن يحقق التوازن بين الرئاسة والمرءوسية ، وأن يكون صالح العمل والإنتاج هو الهدف الرئيسى أولاً وأخيراً ، فلا تتوافر الوقاية أو الحماية للمتكاسلين أو المتباطئين ، بل تتوافر للمتحمسين والمنتجين إيجابياً . فيكون الإنتاج الوقائى عاملاً مساعداً لهم على إبراز مواهبهم وعلى بذل أقصى جهد لديهم فى الأداء ، بحيث يقدمون أكبر كم وأفضل نوعية فى أداء عملهم .

ثالثاً ــ الحيلولة دون بزوغ الإبداع :

أما الاعتراض الثالث على هذا النوع من الإنتاج ، أعنى الإنتاج الوقائى ، فهو أنه يحول بين المرء وبين شق خطوط جديدة فى الحياة ،

وبالتالى فإنه يحول بين المرء وبين الإبداع . فالواقع أن همة المرء لا تُشحذ ، ولا يشمر عن ساعد الجد، ولا يُقدم على الإبداع إلا إذا كان فى مجابهة بعض المشاكل . فالحياة الناعمة لا تُفضى إلى تقديم إبداعات جديدة . فالتحدى والإحساس بالخطر أو بعدم الرضى عن الواقع ، هو الذى يدفع بالإنسان إلى التفكير فى ابتكار أساليب أداء جديدة ، سواء فى ممارسة العمل أم فى حل المشكلات التى يحس بها . وهذا النوع من الإنتاج الوقائى يحاول جاهداً الحفاظ على الأوضاع القائمة .

فالعامل الذى يرضى عن الوسائل التى يستخدمها فى العمليات الإنتاجية التى اعتاد القيام بها ، لايفكر فى إحلال أدوات وآلات جديدة محلها . والموظف الذى يضمن الحصول على مرتبه آخر كل شهر ، لايفكر فى الاستعانة بوسائل مبتكرة فى أداء مهام وظيفته . وقس على هذا جميع العاملين والمنتجين . فالحماية التى يوفرها لهم الإنتاج الوقائى ، تعمل بطريق غير مباشر على إبطال قدراتهم الابتكارية والإبداعية .

وفى مقابل هذه الحجج التى يقدمها البعض ضد هذا النوع من الإنتاج الوقائى ، فإن المتحمسين له يقولون إن الإنتاج الوقائى يعمل فى الواقع على شحذ الهمة للإبداع . والخطأ لا يكمن فى طبيعة هذا النوع من الإنتاج ، بل يكمن فى التنفيذ فحسب . فمثلاً إذا توافرت الفرص أمام العاملين بمراكز البحوث لوقايتهم من العوز ولتوفير العيش الكريم لهم ، فإن ما يغدق عليهم من مال يمكن أن يحفزهم على الإبداع من جهة ، كما يمكن أن يحفزهم على الركون إلى الكسل من جهة أخرى . فالمسألة تتوقف إذن على المناخ الملائم لتوفير فرص الإبداع . ولعلنا نشبه الإنتاج

الوقائى بالسكين التى يمكن أن تستخدم فى إعداد الطعام أو فى تناوله ، كما يمكن أن تستخدم فى العدوان والقتل . فالميزة أو العيب ليسا فى السكين ، بل فى الشخص الذى يتناولها ، وفيما يعتمل فى قوامــه من استعدادات ونوايا .

□ المعنى العلاجى :

كما قلنا عن الإنتاج الوقائى إنه بمثابة شركة وتعاون وتكافل فيما بينه وبين الإنتاج الكمى والكيفى ، كذا نستطيع أن نقول الشىء نفسه بإزاء الإنتاج العلاجى . والواقع أن هذا النوع من الإنتاج يتضمن مجموعة من الجوانب لعلنا نقدم أهمها على النحو التالى :

أولاً — العـلاج الصحى :

فمن المعروف أن الأمراض تعمل على تعطيل عجلة الإنتاج بأى مجتمع من المجتمعات البشرية . من هنا فإن الأطباء الذين يعملون على تخليص المرضى من أمراضهم يعتبرون من المنتجين بهذا المعنى العلاجى . وما يقال عن الأطباء الذين يهتمون بتخليص المرضى من أمراضهم الجسمية ، ينسحب أيضاً بإزاء الأطباء النفسيين الذين يحاولون بفنونهم المتعلقة بالعلاج النفسى تخليص المصابين بالأمراض النفسية مما أصابهم من اعـوجاجات سيكولوجية . وهناك فى الواقـع تفاعل متبادل بين المرض الجسمى والمرض النفسى ، بحيث صار الاتجاه الحديث فى العلاج يهتم بالجسم والنفس معاً فيما يسمى بالعلاج السيكوسوماتى Psycho – somatic therapy

ثانياً — العلاج الإدارى :

فمما لاشك فيه أن الأخطاء فى إدارة الأعمال ، قد تشكل مرضاً

مزمناًيصيب الأجهزة والهيئات الحكومية والشركات ونحوها. ومايعرف بأمراض الروتين ، إنما هو فى الواقع مرض يكون قد أصاب الإدارة . فالمدير الذى حمل فى عقله أفكاراً خاطئة حول أصول الإدارة ، أو الذى يكون قد أفعم بتوجهات أو عادات سلوكية مُعوْجة أو قيم فاسدة ، إنما يكون سبباً فى فساد الإدارة التى يتولى قيادتها . وفى بعض الحالات لا يكون من مناص سوى التخلص من مثل ذلك المدير السيئ بالبتر وتعيين مدير صالح محله . ذلك أن شأنه كشأن العضو الفاسد الذى يتحتم بتره حتى يتخلص الجسم منه ويعاود نشاطه بكفاءة من جديد . وقد تكون هناك إيديولوجية إدارية خاطئة أو رجعية أو غير مناسبة لمستوى التطور الذى بلغه المجتمع وحاجاته ومتطلباته ، فيتحتم إذن التخلص من تلك الإيديولوجية غير الملائمة وإحلال إيديولوجية ملائمة محلها .

ثالثاً — العلاج الاقتصادى :

فمن المعوقات التى تحول دون تحقيق الإنتاج الجيد انتشار الانحرافات الاقتصادية وعدم استثمار الإمكانات المادية فى أوجهها الصحيحة ، ولاشك أن أى مؤسسة — كائنة ما تكون — لابد أن تستند إلى سياسة اقتصادية تعمل فى هديها وتلتزم بها . فإذا كانت السياسة الاقتصادية التى تأخذ بها المؤسسة فاسدة أو غير مناسبة لها ولا تحقق أهدافها أو تعمل على تعطيل تحقيق تلك الأهداف ، فإنها تكون إذن فى حاجة إلى علاج . ولا يكون العلاج المنشود فى أيدى المشتغلين بتلك المؤسسة ، بل يكون فى أيدى أشخاص متخصصين فى الشئون الاقتصادية وفى وضع السياسات الاقتصادية ، فيعمدون إلى استبعاد العوامل المعطلة أو المفسدة وإحلال عوامل منشطة وصالحة محلها . وواضح أن المصلحين الاقتصاديين هم

شركاء أصليون فى الإنتاج ؛ فموقفهم العلاجى لايقل أهمية وفائدة عن موقف المشتغلين بالإنتاج الكمى أو الكيفى المباشر .

رابعاً — العلاج التطويرى :

فمن الحقائق التى لاتحتاج إلى برهان أن الحياة فى تطور مستمر ، وأن التوقف عن مسيرة التطور يعنى التخلف والتوقف عن تحقيق أى تقدم . وهذا ينسحب بإزاء الأفراد والمؤسسات على السواء . فالشخص الذى لايتطور يتخلف عن ركب الحضارة وعن مسيرة المجتمع الذى ينتسب إليه . وكذا حال أى مؤسسة من المؤسسات التى يفترض أنهـا تقوم بخدمة المجتمع الذى توجد به . فالمؤسسة شأنها شأن الفرد ، أو قل إنها فرد اعتبارى . فالمؤسسات المتباينة تشكّل أعضاء بجسم المجتمع . وحيث إن المجتمع — أياً كان — لايتوقف عن التطور ، فإن المؤسسة التى لا تساير تطوره أو يكون تطورها أبطأ من سرعة تطور المجتمع الذى توجد به ، يكون مآلها الذبول والموت فى نهاية المطاف ، وإذا ما أُريد لمثل تلك المؤسسة أن تلحق بالمجتمع فى تطوره ، فلابد من خضوعها لما نسميه بالعلاج التطويرى . وهذا النوع من العلاج منوط بالشخصيات القادرة على بث روح التطور فى المؤسسة وتخليصها من المقومات الرجعية التى تدفع بها إلى الخلف أو التى تعطل مسيرتها التقدمية . ولاشك أن أولئك الأشخاص يعتبرون من الشخصيات المنتجة بهذا المعنى العلاجى .

خامساً — العلاج الإيديولوجى :

فلقد تكون هنـاك إيديولوجية سائدة بالمجتمع تعمـل على تعطيل إنتاجيته . من ذلك مثلاً تلك الإيديولوجية التى تذهب إلى أن الكثرة العـددية للسكان تتواكب مع كثرة الإنتاج وجودته . فمثل هـذه

الإيديولوجية طالما أنها منتشرة ومتحكمة فى عقول وقلوب الناس ، فإنها تشكل عقبة كأداء أمام مسيرة الإنتاج وانتعاشه . ونأسف إذ نقول إن هذه الإيديولوجية تمسك برقبة بلدنا . ومن ثم فإن كل إصلاح اقتصادى يبوء بالفشل ، لأن كل إنتاج يمكن تحقيقه تبتلعه الأفواه الكثيرة المتدفقة بغير حساب أو ضابط . فلا يكون إذن من مناص سوى اقتلاع تلك الإيديولوجية بواسطة التربية ووسائل الإعلام ، حتى يتسنى بعد ذلك الإفادة من الإصلاحات الاقتصادية ومن المحاولات الجادة التى ترتفع بمستوى الإنتاج . ولاشك أن رجال التربية ورجال الإعلام الذين يضطلعون بإحلال إيديولوجية جديدة محل تلك الإيديولوجية الفاسدة ، يعتبرون من الشخصيات المنتجة ، وذلك بانخراطهم فى إطار الإنتاج العلاجى .

□ المعنى الدفاعى :

عندما نذكر هذا المعنى الدفاعى ، فإن أول ما يتبادر إلى ذهن المرء الجيش والشرطة ورجال القانون بكافة فئاتهم . فالواقع أن الإنتاج بحاجة إلى درع واق يحميه ويدافع عنه . فالجيش يدافع عن القوام الكلى للأمة ، فيدفع عنها اعتداء المعتدين الذين يتربصون بها ويهاجمونها للاستيلاء على خيراتها واستنزاف أموالها . أما الشرطة فإنها تحمى المواطنين من الداخل ، فترد المعتدين على أعقابهم ، وتحول دون سطوهم على المواطنين ، وتضمن لهم الأمن والأمان والطمأنينة حفاظاً على أموالهم وأعراضهم وحياتهم . أما رجال القانون فإنهم يدافعون عن المظلومين ، فترد إليهم حقوقهم ممن يكونون قد اغتصبوا أموالهم أو اعتدوا على ممتلكاتهم .

وإذا نحن تساءلنا عن مقومات هذا النوع من الإنتاج الدفاعى ، فإننا نستطيع أن نقدم تلك المقومات على النحو التالى :

أولاً — مقوِّمات سيكولوجية :

فطالما أن الناس يحسون بالطمأنينة ، فإنهم يقبلون على ممارسة الإنتاج الكمى والكيفى على السواء بغير خوف أو تردد . والواقع أن الإنتاج ليس مجرد عمليات أدائية ، بل هو قبل أن يكون تأثيراً فى الخامات ، هو أنشطة عقلية ووجدانية وإرادية . فالإنتاج يبدأ من القوام النفسى ، ثم يجد له تعبيراً عنه فى الواقع الخارجى المادى والاجتماعى على السواء . ولعل أهم مقـوِّم سيكولوجى فى هـــذا النوع من الدفاع يكون هو مقوم الطمأنينة والشعور بالأمن والأمان . وهذا الشعور يجب أن يعم المنتجين قبل بدئهم فى العمل الإنتاجى ، وفى أثناء قيامهم به ، وبعد انتهائهم منه . فهذا الشعور بالأمن والأمان يمتد من الماضى إلى الحاضر إلى المستقبل . فبالنسبة للماضى ، فإن شعور المرء بأن ما سبق أن أنجزه من إنتاج لم يَضِع سدى ولم يَعـْتدِ عليه مُعـْتدٍ ، يحمله على مواصلة الإنتاج فى حاضره ، كما أن شعوره بالطمأنينة فى أثناء قيامه بأداء أنشطته الإنتاجية فى حاضره ، يجعله مطمئناً إلى توافر ما سوف يحمى ثمار إنتاجه فى المستقبل . فإذا ما سادت الطمأنينة على أفق المرء بصفة مستمرة وفى جميع أنحاء حياته ، فإن هذا يشكـِّـل إذن سلاحاً جوهرياً فى نهوضه بالعمليات الإنتاجية ، بل وفى مخططاته الإنتاجية المستقبلية .

ثانياً — مقوِّمات تنبؤية مستقبلية :

فبالنسبة لما ذكرناه عن المخططات الإنتاجية المستقبلية ، فإن المرء لايتخذ بإزائها الموقف السلبى ، فيقتصر على الدفاع عن تلك المخططات

المستقبلية فحسب ، بل إنه يتخذ أيضاً موقفاً إيجابياً . فثمة عوامل أو عناصر تقويضية أو هدمية يمكن أن تتربص بتلك المخططات الإنتاجية المستقبلية التى يترسَّمها المرء . من ذلك مثلاً قيام منتجين آخرين بالاستيلاء خِلْسة على تلك المخططات والمسارعة إلى تنفيذها ، أو ابتكار مخططات إنتاجية أنجع منها فتجبّها وتقضى عليها حتى قبل أن ترى النور .

ولقد يقوم المنافسون الأعداء فى المجال الإنتاجى نفسه بوضع العراقيل والعقبات أمام تنفيذ تلك المخططات الإنتاجية المستقبلية ، فتبوء بالفشل وتفقد صلاحيتها للتنفيذ أو لاستمرار البقاء. ناهيك عن المتسللين إلى داخل المعقل الإنتاجى نفسه ، فيعملون على تقويض المصنع أو المؤسسة من الداخل ، وبالتالى فإن ذلك التخطيط الذى وضعه صاحب المصنع أو المؤسسة يبور ولا يأتى بثماره المرجوة . من هنا فإن الدفاع التنبؤى المستقبلى يحتل مكانته الخطيرة ضد تلك الحملات الشعواء التى يمكن أن توجَّه إلى ما يقوم المرء بالتخطيط له فى المستقبل من إنتاج .

ثالثاً ــ مقوِّمات اجتماعية :

فإذا نحن اعتبرنا المجتمع بمثابة كائن حى متكامل ، فإننا نجد أن ذلك الكائن الحى لا ينشط إنتاجياً بطريقة إيجابية فحسب ، بل إنه يَدْفع عن نفسه أيضاً عوامل الهدم والموت والإبادة . فكما أن الكائن الحى تتهدده عوامل المرض والإيذاء من الخارج ومن الداخل جميعاً ، كذا فإن المجتمع تتهدده العوامل والمؤامرات الخارجية والداخلية على السواء ، وهى العوامل التى لابد أن يتخذ المرء موقفاً دفاعياً عن حياضه بإزائها حتى يقهرها ولا يسمح لها بالاعتداء عليه أو وَقْفه عن مسيرته الإنتاجية ، وعن تقدمه فى حَلْبة السباق المستمر بينه وبين المجتمعات

الأخرى . فالدفاع فى هذه الحالة هو دفاع يقوم به المجتمع من دخيلته عن نفسه ، ويكون كل فرد من أبنائه ممسكاً سلاحاً إنتاجياً بيمينه ، وسلاحاً دفاعياً بشماله ، فيبنى وينتج بيمينه ، ويهاجم أعداءه ويهزمهم بشماله . وبذا فإنه يضمن لمجتمعه البقاء والتقدم فى سباق الإنتاج .

رابعاً ـ مقوّمات تنويرية :

فالواقع أن النهوض للدفاع عن المسيرة الإنتاجية لا يتأتى للفرد أو للمجموعة إلا إذا بث فيهما روح الحماس والوعى بالظروف التى تحيط بهما ، وبما يحتمل أن يحمله المستقبل القريب والمستقبل البعيد من أحوال ومواقف . ومن المعروف أن التنوير يعتبر شرطاً لازباً حتى يتسنى للمرء وللمجتمع أن يشمّرا عن ساعد الجد ، وأن يكونا على أهْبة الاستعداد للدفاع عن حياضهما ، وأن يوفرا الظروف المناسبة لتقديم أفضل قدر من الإنتاج وأحسن نوعية ممكنة منه . ومما لاشك فيه أن التنوير يجعل مهمة الدفاع ميسورة وسهلة . ولعلنا لانخطئ إذا مازعمنا أن التنوير فى ذاته يتضمن قوة دفاعية هائلة . فالمعتدون يخشون بأس الشخص المستنير أو المجتمع الواعى . فهم يعلمون أن الشخص المستنير والمجتمع الواعى محصّنان ضد مؤامراتهم وألاعيبهم الفجة .

خامساً ـ مقوم تأديبى :

فما لاشك فيه أن الإنتاج الدفاعى يتضمن فى مقوماته استخدام أساليب التأديب والتخويف وإلقاء الرعب فى قلوب المتآمرين على المسيرة الإنتاجية . فالدفاع يتضمن فى مقوماته الهجوم أيضاً إذا ما تطلب الأمر القيام به وعدم الاكتفاء باتخاذ الموقف الدفاعى البحت . فلقد يعمد المرء إلى المزاوجة فيما بين الدفاع والهجوم حسب متطلبات الموقف ،

وفى ضوء ما تحتمه الظروف والمواقف المستجدة . فمثلاً إذا قام أحد العمال بإشعال الحريق فى المصنع الذى يعمل به ، فإن المسئولين عن ذلك المصنع لا يقفون عند مجرد إطفاء الحريق ، بل يجب عليهم أن يأخذوا ذلك العامل بالشدة وتقديمه للمحاكمة وفصله من وظيفته . فالدفاع فى مثل هذه الحالة يتواكب مع الهجوم والتأديب .

* * *

الفصل الثانى
سيكلوجية الشخصية المنتجة

□ الطاقة النفسية وتجددها :

تمتاز الشخصية المنتجة باستمرار تدفق الطاقة النفسية لديها حتى يتسنى لهـا الاستمرار فى النهوض بالعمليات الإنتاجية بغير نضوب أو توقف أو هبوط فى مستواها الإنتاجي . ونحن عندما نستخدم لفظ « الطاقة النفسية » ، فإننا نعنى مجموعة من المقومات التى نستعرضها على النحو التالى :

أولاً ــ تحقيق المعادلة بين الوارد والمنصرف من الطاقة الجسمية :

فالشخصية المنتجة تدأب على اتباع سياسة حكيمة بإزاء إنفاق طاقتها الجسمية . فهى لا تركن إلى الكسل من جهة ، كما لا تندفع فى ممارسة العمليات الإنتاجية إلى درجة الإرهاق والوقوع فى حبائل النَّـهْـكة من جهة أخرى . فهى عندما تحس بالاقتراب من نقطة الإرهاق ، فإنها تتوقف عن ممارسة النشاط الإنتاجى لالتقاط الأنفاس والتعويض عما فقدته من طاقة جسمية حيوية .

ثانياً ــ مراعاة الأصول الصحية فيما يتعلق بالغذاء والجنس والنوم :

فالواقع أن الالتزام بالسياسة المنضبطة بإزاء هذا الثالوث المتمثل فى الغذاء والجنس والنوم ، يوفر للمرء الحفاظ على طاقته النفسية من الذبول والضمور ، كما يسمح بتجددها على النحو الصحيح . وبتعبير آخر فإن الشخصية المنتجـة لا تقع فى خطأ الإفراط أو فى خطأ التفريط .

فهى لاتندفع فى المأكل بغير مراعاة لما يناسب حاجتها ، وما يجب أن تقبل عليه فتأكله ، وما يجب أن تقلل من أكله أو تمتنع عن تناوله تماماً . وكذا الحال بالنسبة للنشاط الجنسى . فالشخصية المنتجة تلتزم بالاعتدال والحرص على تحقيق التوازن فيما بين الحاجات الجنسية البيولوجية والسلوك الخلقى والدينى المتعفف عن الانغماس فى الشهوات الجنسية وعدم الاندفاع فى تيارها . وبالنسبة للنوم ، فإن الشخصية المنتجة لاتفرط فى النوم ولا تحرم نفسها من أخذ القسط المناسب منه . فالإفراط فى النوم ضار بالدورة الدموية ، لأنه يقلل من سرعة سريان الدم فى الشرايين ، كما أن قلته تعمل على اضطراب الأعصاب والإصابة بالقلق والاضطراب النفسى . فباتباع هذه السياسة الحكيمة تجاه النوم والجنس والطعام يصير المرء كفئاً للنهوض بالأنشطة الإنتاجية المتباينة على خير وجه .

ثالثاً — تنويع الأنشطة :

فالواقع أن من وسائل الحفاظ على الطاقة النفسية وتوفير المناخ المناسب لتجددها ، تنويع الأنشطة التى يضطلع بها المرء . فالتزامه بنوعية واحدة من النشاط — سواء كان نشاطاً جسمياً أم نشاطاً عقلياً — يؤدى إلى خفوت إنتاجيته . وحتى بالنسبة لممارسة النشاط الذهنى ، فإن التنويع فيه يساعد على الحفاظ على الطاقة النفسية وعلى تجددها . فمثلاً تنويع القراءات ، وتغيير المكان الذى يمارس فيه النشاط الذهنى ، يضمنان الحفاظ على الطاقة النفسية وتجددها ، وكذا فإن بذل جانب من الطاقة النفسية فى القراءة وجانب آخر فى الكتابة ، يساعد على الحفاظ عليها ويساعد على تجددها . وحتى تغيير نوعية القراءات ونوعية ما يقوم

المرء بكتابته يساعد على تحقيق ذلك ، وهذه حقيقة يدركها جميع المشتغلين بالكتابة .

رابعاً — تجديد الأهداف :

فالشخصية المنتجة لاتكتفى بتحقيق الأهداف التى سبق أن ترسَّمَـها بل تدأب على حذف بعض الأهداف التى بَلِـيت وفقدت بريقها ، كما تضيف أهدافاً جديدة ذات بريق وجاذبية ، فتأخذ فى ترسُّمها والتخطيط لتحقيقها ، ومعنى هذا أن ثمة وارداً ومنصرفاً بإزاء الأهداف التى يترسَّمها المرء المنتج . فلقد وُجد أن عدم تجديد الأهداف يعمل على ذبول الطاقة النفسية لدى المرء ، بينما وجد على عكس هذا أن تجديد الأهداف وبالتالى حيوية وبريق ما يستهدفه المرء ، يعمل على تنشيط طاقته النفسية والاستمرار فى تدفقها ونضارتها .

رابعاً — تجديد الوسائل المستخدمة :

فالجدة المنشـودة لا تقتصر على الأهـداف ، بل تمتد أيضاً إلى الوسائل التى يستخدمها المرء . فالواقع أن الإنسان مَلُـول بإزاء ما دأب على استعماله . وكلما تسنى له أن يحل وسائل أداء جديدة محل الوسائل التى انطفأ بريقها ، كان ذلك أدعى إلى تجدد نشاطه ، بل أدعى إلى الحفاظ على حيويته وعلى إقباله على العمل الإنتاجى بجد ونشاط . ولعلنا ننحو إلى توسيع مدى ما نعنيه من لفظ « الوسائل المستخدمة » ليشمل المكان أيضاً الذى يمارس فيه المرء إنتاجه . فكلما أدخل المرء على المكان الذى يمارس فيه أنشطته الإنتاجية مقومات جديدة ، بل وكلما عمد إلى تغيير الزاوية التى يجلس بها فى الحجرة أو المعمل أو الورشة ، وكلما تجددت الأدوات والآلات ووسائل الإنتاج التى يستخدمها ، كان لذلك صدى فى الحفاظ على طاقته النفسية وعلى تجددها وعدم نضوبها أو انطفائها .

خامساً — تجديد العلاقات الاجتماعية :

ومن وسائل الحفاظ على الطاقة النفسية وتجديدها ، تجديد الروابط الاجتماعية التى نشأت بين المرء وبين الأفراد والمجموعات . فمن الخطأ الاعتقاد بأن ما ينشأ من علاقات وروابط اجتماعية بين المـرء وبين الآخرين من حوله ، تظل كما هى . والصحيح أن يقال إن العلاقات الاجتماعية علاقات ديناميكية متحركة . فثمة علاقات اجتماعية جديدة تنشأ ، وثمة علاقات اجتماعية قديمة تنطفئ . وثمة علاقات اجتماعية تقوى ، وثمة علاقات اجتماعية تضعف . ولكن ثمـة فرقاً بين الخضوع للتيـار الذى يسيطر على تسيير العلاقات الاجتماعية ، وبين السيطرة على ذلك التيـار . واعتقـادنا أن الشخصية المنتجة هى تلك الشخصية التى تسيطر على تيـار العلاقات الاجتماعية وترسم سياسة علائقيـة معينة ، فهى تعرف وتحدد العلاقات الجديدة التى يجب أن تعمل على إقامتها مع الآخرين ، كما تعرف وتحدد العلاقات القائمة التى يجب أن تعمل على تقويضها ، كما تعرف وتحدد العلاقات الاجتماعية التى يجب عليها أن تساندها وتقويها ، والعلاقات الاجتماعية التى يجب العمل على إضعافها . فهى بهذا تحافظ على طاقتها الحيوية من جهة ، وعلى تجددها من جهة أخرى .

وهناك مجموعة من العراقيل أو العقبات التى تحول دون تجدد الطاقة الحيوية لدى بعض الناس الذين يفترض فيهم أن يكونوا شخصيات منتجة ، لعلنا نقوم بتحديدها على النحو التالى :

أولاً — الاضطرابات النفسية :

فمن المعروف أن إصابة المرء بالاضطرابات النفسية — كأن يصاب

بالقلق أو الوساوس أو الهلوسات — تعمل على فقدانه لطاقته النفسية ، وعجزه بالتالى عن تجديدها . فتلك الاضطرابات النفسية تستهلك ما لديه من تلك الطاقة ، كما أنها تسيطر على دخيلته ، وبالتالى فإنها تحول بينه وبين الاستعانة بالمصادر التى تساعده لتجديد طاقته النفسية .

ثانياً — المشكلات والأزمات :

ومن العقبات التى تحول بين المرء وبين تجديد طاقته النفسية وفقدان ما لديه منها، ما يمكن أن يَعْتَوِر حياته من مشكلات وأزمات . من ذلك مثلاً تلك الخلافات التى قد تنشأ بينه وبين غيره ، أو ما قد يتورط فيه من أزمات اقتصادية .

ثالثاً — الحوادث والإصابة بالعاهات :

فإذا ما أُصيب المرء فى إحدى الحوادث ونتج عن ذلك عجزه عن القيام بأنشطته الإنتاجية التى اعتاد القيام بها بسبب ما لحق به من عاهة فى عينيه أو يديه أو رجليه أو غير ذلك من عاهات ، فإن ذلك يؤدى بالطبع إلى فقدانه لحيويته وعدم الاستمرار فى المستوى الإنتاجى الذى كان يتمتع به قبل ذلك .

□ العادات العقلية والوجدانية والأدائية :

من المعروف أن جميع الناس محكومون بمجموعة من العادات العقلية والوجدانية والأدائية فيما يمارسونه من أنشطة متباينة . بيد أن تلك العادات التى يمارسها الناس تتباين من شخص لآخر فى ضوء مجموعة من الاعتبارات التى نستطيع تحديدها على النحو التالى :

أولاً — من حيث تكامل العادات التى يكتسبها المرء :

فبينما تكون العادات التى يكتسبها أحد الأشخاص مترابطة فيما

بينها ومؤازرة بعضها لبعض ، فإنها قد تكون لدى شخص آخر متفرقة بعضها عن بعض، بل ومتناقضة بعضها مع بعض . والواقع أن اتصاف العادات التى يكتسبها المرء بالتكامل، يعد شرطاً جوهرياً لاستمرار تدفق إنتاجيته وارتفاع مستواها . فلكى يكون المرء منتجاً إنتاجاً غزيراً وجيِّداً ، يشترط أن تكون عاداته العقلية وعاداته الوجدانية وعاداته الأدائية متكاملة فيما بينها ، ومترابطة بعضها مع بعض بطريقة جيدة .

ثانياً — قابلية العادات للتطور :

ولكى تكون العادات التى يكتسبها المرء ناجعة ومفيدة فى المجال أو المجالات الإنتاجية التى يشارك فيها ، فلابد أن تكون قابلة للتطور . ذلك أن العادات العقلية والوجدانية والأدائية تسير فى تطورها بطريقة تفاعلية . فمنذ أن يولد المرء وهو يكتسب عادات حركية ووجدانية وأدائية ، ولكن كلما أُتيحت له الفرصة لتطوير ما سبق له اكتسابه منها، وذلك بتفاعلها مع الظروف والمواقف والمطالب التى تستجد فى حياته ، كانت عاداته المتباينة قابلة إذن لاكتساب صيغ جديدة على جانب أكبر من التعقد والدقة . فعادة الكتابة على الآلة الكاتبة أو الكتابة على لوحة أزرار الكومبيوتر مثلاً ، لا بد أن تكون مسبوقة باكتساب المرء لعادات حركية كثيرة وأن يكون مسيطراً عليها ، فيكون قادراً على تحريك أصابعه وتشغيلها فى تآزر بعضها مع بعض . وكذا فإن الأديب الذى يقوم بكتابة الشعر أو القصة ، لا بد أن يكون قد مر خلال حياته السابقة بمراحل يكون قد اكتسب خلالها مجموعة كبيرة من العادات الوجدانية بالإضافة إلى ما اكتسبه من عادات حركية وأدائية . وكذا الحال بالنسبة لأداء الأعمال المتباينة . فما يتمتع به المرء من قدرة على تسيير أعماله وتنفيذها ، إنما يعتمد فى الواقع على سلسلة طويلة ودقيقة

من العادات الحركية والوجدانية والأدائية التى يكون قد اكتسبها عبر حياته بدءًا من طفولته . وكلما كان المرء أكثر مرونة فى تطوير العادات التى سبق له اكتسابها ، كان بالتالى أكثر قدرة على اكتساب صيغ جديدة ودقيقة تتعلق بتلك العادات التى يستثمرها فى الإنتاج .

ثالثاً — الهدم والبناء :

تتضمن التفاعلات التى تتم فى نطاق العادات الحركية والوجدانية والأدائية عمليتين أساسيتين :

الأولى : عملية الهدم ، والثانية : عملية البناء .

فثمة جوانب من العادات التى سبق للمرء اكتسابها تنهدم ، بينما تبزغ إلى الوجود عادات جديدة لم تكن موجودة من قبل . والحال بإزاء العادات ، كالحال بإزاء جسم المرء . فالعمليات الحيوية التفاعلية التى ينخرط فيها الجسم منذ ميلاد المرء حتى وفاته ، تخضع لقانون الهدم والبناء Metabolism ، إذ أنها تتواكب مع مراحل نموه المتتالية. وكذا الحال بالنسبة للعمليات التفاعلية التى تخضع لها العادات الحركية والوجدانية والأدائية التى يكتسبها المرء . فهى تنخرط فى عمليات هدم وبناء مستمرة يتأتى عنها نمو العادات كماً ، والارتفاع بمستواها كيفاً .

رابعاً — الاكتساب العفوى التلقائى والاكتساب الإرادى القصدى للعادات :

فبينما نجد أن بعض العادات الحركية والوجدانية والإرادية التى يكتسبها المرء يتم كسبها بطريقة تلقائية ، فإن بعضها الآخر يتم كسبه عن قصد . ومما لا شك فيه أن النوعين من العادات التلقائى والإرادى هامان فى تكوين شخصية المرء المنتجة . ومعنى هذا أن ممارسة بعض

الأعمال يكسب المرء بطريقة عفوية جانباً من عاداته الحركية والوجدانية والإرادية ؛ بينما تتطلب أعمال أخرى الخضوع لإعداد قصير أو طويل قبل الشروع فى المشاركة فى تلك الأعمال . فلكى يصير الشاب طياراً ويتولى قيادة الطائرة وحده ، فإن عليه أن يخضع لمرحلة إعداد طويلة بكلية الطيران يكتسب خلالها مجموعة كبيرة ودقيقة من العادات الحركية والوجدانية والأدائية . أما لاعب كرة القدم ، فإنه يكون فى الغالب قد اكتسب جانباً كبيراً من العادات المتعلقة بلعبة كرة القدم منذ طفولته بطريقة الممارسة المباشرة نفسها فى أثناء لعبة مع أترابه بالشارع أو بالنادى . ولكن هذا لا يحول دون القول إن لاعب كرة القدم بأحد الأندية الرياضية ، يخضع لسلسلة من التدريبات القصدية ، وذلك حتى يتم صقل ممارساته السابقة التى اكتسبها منذ طفولته وعبر مراهقته ، والعمل على تنقيتها مما سبق له اكتسابه من عادات حركية ووجدانية وإرادية تلقائية مشوبة ببعض النقائص أو الشوائب أو الفجوات فى أدائه لهذه اللعبة ، وذلك حتى يتسنى الارتفاع بمستواه الإنتاجى الكروى المتمثل فى اللعب الجيد وإحراز النصر لفريقه فى المباريات التى تقام بينه وبين الأفرقة الأخرى .

خامساً — بزوغ العادات الطفيلية :

فكما أن هناك نباتات وحشرات طفيلية قد تصيب الزرع والحيوان ، كذا فإن هناك عادات طفيلية تنبت فى سياق تكوين العادات الحركية والوجدانية والإرادية . وكما أن الفلاح الماهر يقوم بتنقية محصوله من الحشائش والقضاء على الآفات التى تلم بزرعه وحيواناته ، كذا فإن الشخصية المنتجة تدأب على التخلص من العادات الطفيلية التى تنبت وتترعرع فى أثناء اكتساب العادات الجيدة . وطبيعى أن يقوم الشخص

الواعى بتحديد وتعيين تلك العادات الطفيلية التى تعرقل وتضيّع قيمة وفاعلية العادات الجيدة ، ثم هو بعد ذلك يضع الخطة الناجعة لاقتلاعها من سلوكه . ولكن مما يؤسف له أن كثيراً من الناس يُغْمضون أعينهم عن تلك العادات الطفيلية ويظلون متلبسين بها ، فتتجاور فى سلوكهم جنباً لجنب مع العادات الجيدة ، فإذا نحن تصفحنا حياتهم ، بل وأيضاً حياة بعض العباقرة الأفذاذ ، فإننا نجد أن ثمة عادات حركية ووجدانية وأدائية تعتمل فى سلوكهم وتمسك بزمام حياتهم ، وقد أغفلوها وتركوها تنمو لديهم وتمسك بخناقهم جنباً لجنب مع ما اكتسبوه من عادات جيدة . فلو أنهم كانوا قد اقتلعوا تلك العادات الرديئة من قوامهم السلوكى ، لكانوا إذن قد قدموا للبشرية ثماراً أعظم مما استطاعوا أن يقدموا .

ولقد تكون من نتائج تلك العادات الرديئة التى تملكت عليهم ، إنهاء حياتهم قبل الأوان أو تضييع جانب كبير من وقتهم الثمين سدى فيما لا طائل وراءه ، أو إنفاق طاقاتهم الحيوية فى العبث والمجون ، أو فى الانحرافات الجنسية ، أو فى تعاطى المخدرات أو معاقرة الخمر . وما يترتب على ذلك من نقص إنتاجيتهم أو الهبوط بها عن المستوى العظيم الذى كان من الممكن بلوغه لو لم تكن تلك العادات الرديئة قد أمسكت بتلابيبهم وأخضعتهم لسلطانها .

□ التركيز الذهنى :

يعتبر التركيز الذهنى ضمن العادات العقلية التى يكتسبها المرء ، وهو نسبي وليس مطلقاً ، بمعنى أن ثمة درجات أو حالات بينية فيما بين التشتت الذهنى والتركيز الذهنى . على أن التركيز الذهنى المطلق مسألة افتراضية ، لأن من المستحيل أن يصل المرء إليه ويبلغ قِمَّته . فثمَّة تضاد فيما بين التشتت الذهنى والتركيز الذهنى كما هو الحال بإزاء

السواد والبياض . فكما أن هناك حالات وسطى فيما بين السواد والبياض ، وأن المستحيل أن يكون هناك سواد كامل أو بياض كامل ، كذا الحال بإزاء التشتت الذهنى والتركيز الذهنى . فمن المستحيل أن نقع على حالة فيها تشتت ذهنى تام ، أو حالة يمكن وصفها بالتركيز الذهنى التام .

وبالإضافة إلى هـذا فإن التركيز الذهنى لا ينسحب بإزاء جميع الحالات التى يوجه الذهن إليها . فمن الناس من يركِّزون أذهانهم فى الأشياء المادية كالمخترعين مثلاً ، بينما هناك أشخاص يركِّزون أذهانهم فى المسائل الرياضية البحتة ، وهناك فئة ثالثة تركز الذهن فى المسائل الاجتماعية ، إلى آخـر الموضوعات التى يمكن أن يركز الناس أذهانهم فيها . ناهيك عن أن بعض الناس يركِّزون أذهانهم فى دخائلهم ، كما هو الحال بالنسبة للشخص الذى يمارس الاستبطان introspection ، بينما يركز غالبية الناس أذهانهم فى الموضوعات الخارجية ، سواء كانت أشياء أم أحياء أم علاقات اجتماعية .

ومما لا شك فيه أن الإنتاج يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمدى قدرة المرء على تركيز ذهنه فى المجال الذى ينكب عليه ويحاول الإنتاج فيه . ولعلنا نلقى بالضوء على العلاقة فيما بين التركيز الذهنى والإنتاج ، فنجد أن تلك العلاقة يمكن أن تتحدد على النحو التالى :

أولاً — التركيز الذهنى التحليلى :

فلقد تكون علاقة التركيز الذهنى بالموضوع الذى يحاول المرء الإنتاج فيه هى علاقة تحليلية ، بمعنى أن إنتاجه يتخذ له نقطة انطلاق من العمليات التحليلية التى يضطلع بها بإزاء الموضوع الذى يتناوله . ولقد يكون التحليل هو نفسه الإنتاج الذى يضطلع به المرء ، كما أنه

قد يكون نقطة بداية تتلوها مراحل أو خطوات تالية ، فيكون التحليل فى هذه الحالة بمثابة تمهيد للإنتاج وليس الإنتاج نفسه .

ثانياً — التركيز الذهنى التركيبى :

وفى مقابل التركيز الذهنى التحليلى ، نجد هذا النوع من التركيز الذهنى التركيبى . فبدلاً من أن يقوم الشخص المنتج بعمليات تحليلية ، فإنه يقوم بعمليات تركيبية . فهو يتناول المفردات التى سبق أن قام بها المنتجون من الفئة التحليلية ويعمد إلى إقامة علاقات فيما بينها ، فيتأتى عن ذلك نشوء مركبات أو مخترعات غير مسبوقة . ولكن علينا ألا نزعم أن كل شخصية منتجة عن طريق التركيز الذهنى التركيبى تكون بالضرورة شخصية مبدعة . فثمة من المنتجين عن طريق التركيز الذهنى التركيبى من يضربون فى إثر خطوط سبق لغيرهم أن قاموا برسمها وتحديد معالمها . وبتعبير آخر هناك أشخاص منتجون إبداعيون وأشخاص منتجون نمطيون ، وكلا الفريقين يستعين أفرادهما فى عملياتهم الذهنية بالتركيز الذهنى التركيبى .

ثالثاً — التركيز الذهنى العلائقى :

وهذا النوع من التركيز الذهنى ينصب على العلاقات القائمة بين الأفراد بعضهم وبعض ، أو بين فرد ما وإحدى المجموعات ، أو بين مجموعة ومجموعة أخرى ، والواقع أن رجال التربية ورجال السياسة يهتمون بالتركيز الذهنى العلائقى ، وذلك لأنهم يتابعون العلاقات الاجتماعية القائمة بالفعل ، وما عسى أن يدخلوه من تغييرات وتطويرات على تلك العلاقات الاجتماعية الموجودة بالفعل .

رابعاً — التركيز الذهنى التوقعى أو المستقبلى :

وفى هذا النوع من التركيز الذهنى يقوم المرء بتركيز ذهنه فيما عسى أن يتطور إليه الحاضر فى المستقبل ، وما يمكن أن يتأتى عن ذلك التطور من أحداث أو تغيرات جديدة . والواقع أن علم المستقبلية يهتم بهذا النوع من التركيز الذهنى لأنه يتشوف المستقبل حتى يتسنى اتخاذ الإجراءات المناسبة بإزائه ، وذلك لأن المستقبل المتوقع ليس قَدَراً محتوماً ، بل هو مجرد احتمالات يمكن التدخل فى سياقها وتوجيهها الوجهات المرغوب فيها والأكثر فائدة أو ملاءمة .

خامساً — التركيز الذهنى الاقتصادى :

وهذا النوع من التركيز الذهنى يهتم بالشئون المالية . والواقع أن رجال الاقتصاد يَكْلَفون بتحديد القوانين التى تخضع لها الأحوال الاقتصادية ، وما يمكن أن يتخذ من إجراءات اقتصادية يتوقع أن تعود بالنفع على المرء أو على المؤسسات أو الدول .

وهناك مجموعة من العقبات أو العراقيل التى تحول بين المرء وبين تركيز ذهنه بالمدى الملائم للعمليات التى يضطلع به مما يترتب عليه قلة إنتاجيته أو انخفاض مستوى جودته ، لعلنا نقوم بتحديدها على النحو التالى :

أولاً — الخوف والقلق وترقب الأخطار أو التهديدات :

فالشخص المفعم بالخوف والقلق والذى يتوقع الأخطار التى تهدده أو تهدد ذويه أو تأتى على ممتلكاته ، أو الشخص الذى يتلقى التهديدات بالقضاء عليه أو عرقلة نشاطه ، لا يستطيع أن يركز ذهنه . فشرط ضمان الطمأنينة ضرورى حتى يتسنى للمرء تركيز ذهنه فيما يصبو إلى الإنتاج فيه من مجالات .

ثانياً ــ الخبرات المكبوتة فى اللاشعور :

فالواقع أن الخبرات المؤلمة المكبوتة فى اللاشعور ، والتى تطل برأسها من وقت لآخر ، تشكّل عوائق وعقبات تحول بين المرء وبين تركيز ذهنه فى العمليات التى يضطلع بها . وهناك عقد نفسية نتيجة الخبرات المؤلمة التى مرت فى حياة المرء ترتبط بموضوعات أو مجالات معينة ، فكلما أقبل على تركيز ذهنه فيها فإنه يعجز عن ذلك ، وبالتالى فإنه لا يستطيع أن يقدم إنتاجاً جيداً بممارستها أو العمل فى مجالها .

ثالثاً ــ الأمراض والوهن الجسمى :

ومن العقبات التى تحول بين المرء وبين تركيز ذهنه فى الأنشطة التى يضطلع بالإنتاج فيها ، تلك العقبات الصحية ، كالإصابة بالأمراض المزمنة وأمراض الشيخوخة ، وأيضاً الأمراض العصبية والنفسية المتباينة .

□ التخلص من الأخطاء :

يعتقد كثير من الناس أن الإنتاج ــ فى أى صورة من صوره التى عرضنا لها قبلاً ــ يمكن أو يجب أن يكون نقياً من الأخطاء منذ اللحظة الأولى التى يبدأ فيها المرء مشواره الإنتاجى . ويشهد على ذلك أنك تجد المسئولين عن التعليم والتدريب يفترضون فيمن يقومون بتعليمهم وتدريبهم مراعاة الإرشادات التى يوجهونهم بها فلا يحيدون عنها ، وأن يلتزموا بالصواب وينبذوا الخطأ ولا يتعرضوا للإصابة به من قريب أو من بعيد . والواقع أن الطريق الطبيعى والناجع للتعلم والتدرب هو طريق المحاولة والخطأ . وبتعبير آخر ليس ثمة مناص من اتباع مجموعة من الخطوات المشوبة بالأخطاء فى التعلم واكتساب المهارات المتباينة

قبل بلوغ الوسائل السليمة والخالية من الأخطاء فى الإنتاج ، لعلنا نقوم باستعراضها على النحو التالى :

أولاً — توافر الخيارات أمام المرء :

فلكى يتم التعلم أو التمرن السليم ، لابد أن يتوافر أمام المرء خياران أو أكثر يقع على واحد فقط من بينها . والخيارات التى تتوافر أمام المرء يتم الاختيار من بينها فى ضوء معيار أو أكثر من المعايير التى يتخذها ويضعها نصب عينيه والتى نقدمها فى البند التالى .

ثانياً — معايير الاختيار :

هناك فى الواقع ثلاثة معايير أساسية يمكن أن يستعين بها المرء فى اختياره ، أو لعله يكتفى باختيار أو اختيارين منها فحسب : المعيار الأول : هو معيار الخطأ والصواب ، والمعيار الثانى : هو معيار المناسب وغير المناسب ، والمعيار الثالث : هو معيار الجميل والقبيح . ويتوقف نوع المعيار الذى يستعين به المرء أو يرجّحه على نوع الموضوع الذى يقبل على تعلمه أو التمرن عليه . فبالنسبة للطالب الذى يتعلم الرياضيات ، يكون عليه أن يستعين بمعيار الصواب والخطأ . وبالنسبة للفنان ، فإن المعيار الذى يستعين به هو معيار الجميل والقبيح . وبالنسبة للمرء فى علاقاته الاجتماعية وبإزاء المواقف التى يجد نفسه فى مواجهتها هو معيار المناسب وغير المناسب .

ثالثاً — خوض غمار المواقف :

فلكى يتم التعلم أو يتقن المرء التمرن ، فإن عليه أن يَسْبر غمار المواقف . فهو يقتحمها ولا يهمه أن يلتزم بالصواب أو بالمناسب أو بالجميل منذ اللحظة الأولى . إنه فى اقتحامه لها لا يستطيع أن يتحاشى

الخطأ وعدم المناسبة والقبح ، ولكنه يأخذ فى تنقية سلوكه شيئاً فشيئاً من براثن الخطأ وعدم المناسبة والقبح . وبتعبير آخر فإنه يقوم بعملية تقييم مستمرة فى أثناء الممارسة العملية للسلوك ، أو هو يبدأ بالممارسة ثم يقوم بالتقييم الذى ينتهى به إلى التخلص مما يجعله يخطئ أو لا يختار المناسب أو يصيب إنتاجه بالقبح .

رابعاً — الاستعانة بالمعايير الموضوعية :

وبعد أن يقوم المرء بالتقييم السلوكى المتصل بالأداء الذاتى ، فإنه يبدأ فى الاستعانة بالمعايير الموضوعية التى تنشعب إلى ثلاثة أنواع من المعايير هى :

(أولا) المعيار الكمى : فيتساءل المرء عما إذا كانت هناك طريقة أخرى أفضل كان يمكن أن يستعين بها تكفل تقديم كم أكبر من الإنتاج .

(ثانياً) المعيار الكيفى : فيتساءل المرء عما إذا كان بمقدوره أن يستعين بطريقة أفضل تكفل تقديم نوعيات من الإنتاج أحسن مما قدمته الوسائل التى استعان بها .

(ثالثاً) المعيار الاقتصادى : وينصب هذا المعيار على تكلفة الإنتاج فيتساءل المرء عما إذا كان بمقدوره أن يستعين بوسائل أقل تكلفة وأكثر إنتاجية مع الاحتفاظ بمستوى الإنتاج الجيد .

خامساً — تجديد الثقة بالنفس :

وهناك أخيراً العامل النفسى الذى يحدد مدى قدرة المرء على التخلص من أخطائه . فثمة ما يعرف بالتحرر النفسى من العادات الرديئة التى سبق أن اكتسبها المرء . وبتعبير آخر فلا بد أن يكون المرء واثقاً فى قدرته على تعديل سلوكه والتخلص من المعوقات النفسية التى تحول

دون تقديم الإنتاج الجيد ودون تقديم كمية أكبر من الإنتاج . فلقد كشفت الدراسات والبحوث النفسية عن أن العامل النفسى لا تقل أهميته فى التخلص من الأخطاء أو المعوقات السلوكية التى تقلل من قيمة الإنتاج وتعمل على الحط من مستواه عن العوامل الأخرى المؤثرة فى إنتاجية المرء .

وبهذه المناسبة فإن علينا أن نعرض للعوامل النفسية التى تعمل على إعاقة قدرة المرء على التخلص من الأخطاء التى تعمل على تقليل كمية الإنتاج والانخفاض بمستواه على النحو التالى :

أولاً — العقد النفسية :

فمن العوامل النفسية التى تؤثر فى قدرة المرء على التخلص من الأخطاء التى تحول بينه وبين تقديم الإنتاج الوافر والجيد ، ما يكون قد أُصيب به من عقد نفسية بإزاء نوع الإنتاج الذى يُقْدم على تقديمه. خذ مثالاً لذلك بالطالب الذى انخرط بإحدى المدارس الصناعية بسبب انخفاض مجموعه فى الشهادة الإعدادية ، وكان قد أُصيب بعقدة نفسية تتعلق بممارسة العمل اليدوى منذ طفولته ، وذلك لأن والديه كانا يهددانه بأنه إذا لم يجتهد فى الدراسة ، فإنهما سوف يلحقانه كصبى بإحدى الورش . إنه بعد التحاقه بالمدرسة الصناعية وجد نفسه غير قادر على التخلص من الأخطاء التى تشوب حياته الدراسية . فلقد كانت العقدة النفسية التى أصابته منذ طفولته تهدده وتسد أمامه طريق التخلص من أخطائه الذهنية والأدائية .

ثانياً — انخفاض مستوى الذكاء والقدرات الخاصة :

ولقد يكون السبب فى عدم قدرة المرء على التخلص من الأخطاء

فى أثناء تعلمه أو تمرنه ، انخفاض مستوى ذكائه أو عدم حصوله على المواهب أو القدرات الخاصة المتعلقة بالمجال الذى يتعلم فنونه أو يتمرن على أداءاته . فمثل ذلك الشخص لا يستطيع أن يتخلص من أخطائه ، بل إن أخطاءه تتزايد وتتضاعف بحيث يحكم المسئولون عن تعليمه وتمرينه بأنه لا يصلح لتعلم واكتساب المهارات المتعلقة بذلك المجال الإنتاجى .

ثالثاً — نقص الرعاية والتوجيه السليم :

ومن أسباب استمرار المرء فى أخطائه واستفحالها ، عدم توافر المدربين الصالحين أو الموجهين القادرين على التوجيه المهنى السديد . فالمرء بحاجة إلى اكتساب الخبرات السليمة عن غيره ، بل إنه بحاجة أيضاً إلى أن يتلقى التوجيه المتبصر من الموجِّهين القادرين على الوقوف على أسباب وقوعه فى الأخطاء ، بل والقادرين على استخدام الأساليب التربوية الناجعة فى التوجيه التربوى السديد .

□ التقييم الموضوعي والتقييم الذاتى :

تقوم الشخصية المنتجة بتقييم النتائج التى أسفرت عنها جهودها الإنتاجية . على أن هذا التقييم يتضمن مجموعة من الخطوات التى نستطيع القيام بتحديدها على النحو التالى :

أولاً — مدى مطابقة النتائج الإنتاجية للأهداف :

فالواقع أن المرء يترسَّم أهدافاً إنتاجية قبل أن يَشْرع فى العمل من أجل تحقيقها وإبرازها للعيان والخروج بها من حيز الكمون إلى حيز الواقع الخارجى . بيد أن النتائج الإنتاجية لا تكون متطابقة بالضرورة مع تلك الأهداف التى حددها المرء أمام عينيه . فهى قد تكون أقل كمًّا

مما ترسَّمه المرء ، أو قد تكون أخفض كيفاً ، أو قد تكون مباينة ، أو حتى لقد تكون متناقضة مع الأهداف التى كان المرء يصبو إلى تحقيقها .

ثانياً — تقييم الوسائل التى استخدمت :

وبعد الخطوة السابقة يقوم المرء بتصفح الوسائل أو الأدوات التى استعان بها فى تحقيق الأهداف ، وهو فى تقييمه لتلك الوسائل يتساءل عن مدى مناسبتها وفاعليتها ، وهل كانت هناك وسائل أفضل منها كان ينبغى عليه الاستعانة بها واستخدامها لتحقيق الأهداف التى ترسَّمها ؟ وهل كانت هناك وسائل يجب إضافتها جنباً لجنب مع الوسائل التى استخدمت ؟ وهل كانت هناك من بين الوسائل المستخدمة ما كان له تأثير ضار أو معطِّل ، وكان الأحرى استبعاده والعزوف عنه ؟ وهل من بين التكنولوجيات الجديدة المستحدثة ما هو أنجع فى تحقيق الأهداف من الوسائل المستخدمة بالفعل والتى جرى العرف على استخدامها ؟ وهل ثمة تدريبات كان يجب أن يمرِّن المرء نفسه عليها قبل الشروع فى استخدام الوسائل المتاحة حتى يتم الحصول على أنجع النتائج وأفضلها ؟ إلى آخر تلك التساؤلات المتعلقة بالوسائل المستخدمة فى العمليات الإنتاجية .

ثالثاً — التقييم الذاتى :

وهذا التقييم ينصب على ذاتية المرء وما كان عليه حاله عقلياً ووجدانياً وإرادياً فى أثناء تنفيذ الأهداف والخروج بها من نطاق الكمون إلى نطاق الواقع الخارجى . فهو يتصفح ما كانت عليه حالته من حيث مدى تركيز الانتباه وإعمال الذكاء فى الموقف . وهل

كان مجهداً بحيث لم يتسنّ له استخدام طاقته الذهنية الاستخدام الأمثل ؟ وهل كان منحرف المزاج فى أثناء القيام بالنشاط الإنتاجى ؟ وهل كانت هناك مشكلات علائقية بينه وبين غيره فى أثناء العمل الإنتاجى ؟ وهل كانت هناك مشاعر غير مواتية تجتاحه فى أثناء العمل ؟ هل كان مكتئباً أم حزيناً أم متشائماً ، أم أنه كان منشرح الصدر ومسروراً ومتفائلاً ؟ وهل كانت إرادته على أُهْبَة الاستعداد للتنفيذ والخروج بالفكر إلى الواقع الممارس بالفعل ؟ وهل كانت هناك عوامل صحية مؤثِّرة فى موقفه الإنتاجى ؟ هل كان يحس بصداع أو غثيان أو ميل إلى النعاس أو بأى ألم فى جزء معين من جسمه ؟ إلى غير ذلك من تقييمات تنصب على شخصه خلال الفترة التى كان يضطلع خلالها بالإنتاج .

رابعاً — تقييم الشركاء فى العمليات الإنتاجية :

فالواقع أن للغالبية العظمى من الأنشطة الإنتاجية علاقة بالآخرين بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر . من هنا فلابد أن يقوم الشخص المنتج فى أى مجال إنتاجى بالتساؤل بينه وبين نفسه عن المواقف التى اتخذها الآخرون منه ، سواء فى أثناء القيام بالعمليات الإنتاجية أم بعدها. فالعمليات المشتركة بينه وبين غيره فى النشاط الإنتاجى تتطلب القيام بتقييم مواقف الآخرين من العمل . فهل كان وجودهم مساعداً ومنشِّطاً للإنتاج ، أم كان عامل تعطيل وتعويق ؟ وهل كان كل شخص من المشتركين معه فى النشاط الإنتاجى يقوم بدوره على خير وجه ، أم أن واحداً أو أكثر منهم كان مقصِّراً فى أداء دوره ؟ وهل كان الجميع ملتزمين بالحضور فى مواعيد العمل ، أم أن بعضهم كان متهاوناً فى ذلك ؟

وهل كان وقت العمـل مستثمراً كله فى الأداء الإنتاجى ، أم أن العمل كان مشوباً بالفجوات الزمنية أو بالبطالة الإنتاجية ؟

خامساً — النظرة الوظيفية والمستقبلية إلى الإنتاج :

والشخصية المنتجة لا تتوقف عند الحاضر فتحصر نفسها فى نطاق صلاحية النتاجات المتأتية عن النشاط الإنتاجى للوقت الراهن ، بل تتعدى ذلك الإطار الزمنى الراهن إلى الإطار الزمنى المستقبلى . فهى تتساءل عما عسى أن يكون عليه الإنتاج فى المستقبل؟ وما عسى أن يتحول إليه ، فيُستبعد جانب منه أو يُستبعد كله ليحل محلَّـه إنتاج من نوع جديد ؟ وما عسى أن يكون ذلك الإنتاج الجديد؟ فالواقع أن الشخصية المنتجة هى شخصية متطورة . ومن ثَمَّ فإنها لا تجرى فى أذيال التطورات التى تقع بالفعل ، بل تسبق تلك التطورات ، أو قل إنها هى التى ترسَّم تلك التطورات وتحدد معالمها ، ومن ثَمَّ فإنها تنطلق من أفق الحاضر إلى أفق المستقبل ، بل إنها لا تسقط من حسابها الماضى وما كان يَعُجُّ به من ألوان متعددة من الإنتاج . فهى إذن تفيد من نتاجات الماضى ونتاجات الحاضر لكى ترسَّم خطوط الإنتاج التى يجب أن تشرق على سماء الواقع فى المستقبل . وهى بالطبع تقوم بتقييم تلك الخطوط الإنتاجية المستقبلية قبل أن يَهِـلَّ ذلك المستقبل ويستحيل إلى حاضر ، وتأخذ فى تنقيحها وتعديلها والمقارنة بينها وبين الخطـوط الحالية والخطوط الماضية . وبتعبير آخر فإن ما ترسَّـمه الشخصية المنتجة للمستقبل يتأتى لها نتيجة التفاعلات التى تعتمل بداخلها .

* * *

الفصل الثالث
الصحة النفسية والانتاج

□ الاتزان الانفعالى والإنتاج :

نقصد بالاتزان الانفعالى ذلك الموقف الوسط فيما بين التوتر الشديد والاسترخاء الشديد . ذلك أن الشخص المتوتر جداً لا يستطيع أن يقدم إنتاجاً بالكم المطلوب والكيف المرغوب . وكذا الحال بالنسبة للشخص المرتخى عصبياً . إنه لا يستطيع أن يقدم إنتاجاً معقولاً ، لا من حيث الكم ولا من حيث الكيف . فالواقع أن الحالة الوسط فيما بين التوتر الشديد والاسترخاء الشديد هى الحالة الكفيلة بتقديم الجهد النفسى المناسب للإنتاج الجيد كماً وكيفاً .

وهناك مجموعة من الخصائص التى يتسم بها الاتزان الانفعالى وما يترتب عليه من تأثير فى إنتاج المرء ، لعلنا نقوم بتحديدها على النحو التالى :

أولاً ـ الضبط الانفعالى :

فالشخص المتزن انفعالياً يتسم بالقدرة على كبح جماح انفعالاته . فلا يكون بمثابة قشة تذروها رياح الانفعالات . وإذا نحن وضعنا نصب أعيننا أن الانفعال هو حالة تجتمع فيها بعض المقومات البيولوجية وبعض المقومات الوجدانية فى اتحاد يتأتى عنه ما نسميه الانفعال ، فإننا نجد إذن أن الانفعال ليس واقعاً بيولوجياً فحسب ، كما أنه ليس واقعاً وجدانياً فحسب . وحتى إذا تم الانفعال تحت تأثير مخدر أو والمرء فى غيبوبة

أو فى حلم عميق تحت سيطرة كابوس فى منامه ، فإن المقوّمين البيولوجى والوجدانى يلعبان فى هذه الحالات الدور نفسه . ذلك أن المقومات الوجدانية يمكن أن تلعب دورها والمرء فى حالة اللاوعى ، أى أنه لا يدرك مقومات الموقف . والشخص المتزن انفعالياً هو ذاك الذى يستطيع أن يتخذ الموقف الوسط ، فلا يترك العنان لذلك المركّب الانفعالى ، بل يلجمه ويتحكم فيه ويسيطر عليه .

ثانياً — التوظيف السديد للانفعال :

والشخص المتمتع بالاتزان الانفعالى هو ذاك الذى يستطيع أن يقدّم المقدار المناسب من الانفعال والنوعية المناسبة منه للموقف الذى يوجد به . وبتعبير آخر فإنه الشخصية التى تستطيع أن تقوم بتوظيف الانفعال لخدمة هدف اجتماعى ما . فكلما كان المرء أكثر قدرة على توظيف انفعالاته فى ضوء المتطلبات الموقفية ، كان بالتالى متمتعاً بدرجة أكبر من الاتزان الانفعالى .

ثالثاً — الاقتصاد الانفعالى :

والشخص المتزن انفعالياً هو ذاك الذى ينفق من حصيلته الانفعالية بغير إفراط وبغير تفريط . فهو لا يقدم من طاقته الانفعالية أكثر مما يتطلبه الموقف ، كما أنه لا يقدم من تلك الحصيلة ما يَقْصر عن خدمة الموقف الذى يوجد به . فالمسألة هنا شبيهة بالتعامل فى السوق . فالزبون الجيد لا يغالى فيما يقدمه من نقود لدى شرائه سلعة ما ، كما أنه من جهة أخرى ليس الشخص الذى يبخس السلعة التى يرغب فى شرائها حقها فيقدم سعراً أقل من السعر الذى تستحقه .

رابعاً – البصر بمقومات الموقف :

والشخص المتزن انفعالياً يتمتع بالقدرة على الوقوف على مقومات الموقف . فهو يبدأ بالوقوف على الخطوط العريضة، ثم ينزل منها إلى التفاصيل . ومن جهة أخرى فإنه الشخص الذى يُلِمُّ بالماضى الذى ترتب عليه حدوث الموقف الراهن ، ثم هو أيضاً الشخص الذى يتقدم بذهنه من الواقع الراهن إلى ما سوف يحمله المستقبل من مواقف تالية . ومعنى هذا أن الشخص المتزن لا يرى الموقف الراهن فحسب ، بل إنه يُلِمُّ بالمواقف السابقة والمواقف المستقبلية أيضاً . وكلما كان المرء بعيد النظر إلى الماضى وإلى المستقبل مع عدم تهاونه فى مشاهدة الموقف الراهن ، فإنه يكون أكثر اتزاناً من الناحية الانفعالية ، وبالتالى فإنه يكون أكثر إنتاجية وأجودها .

خامساً – التمتع بالهدوء النفسى :

أخيراً فإن الشخص المتزن انفعالياً يكون خلواً من الخوف والقلق والوساوس . وبتعبير آخر فإن استقراره الداخلى يكون بمثابة ثمرة لتلك الحالة النفسية الهادئة والمستقرة والخالية من التقلبات المزاجية . إنه الشخص الذى يكون قد رتَّب دخيلته الترتيب الجيد الذى يسمح له بأن يمارس نشاطه الانفعالى وتوظيفه فى مواقف الحياة المتباينة بالطريقة السليمة ، فينجم عن ذلك تمتعه بالإنتاج الجيد كماً وكيفاً .

وعلينا بعد هذا أن نقوم بتصفح الحالات والمواقف التى يفقد فيها المرء اتزانه الانفعالى ، وما يترتب على ذلك من تأثير فى إنتاجيته . والحالات والمواقف هى :

(أولا) الفُجَاءة: فثمة مفاجآت غير متوقعة يمكن أن تحدث فى

سياق حياة المرء تعمل على شـل حركته فيتوقف تياره الانفعالى ؛ أو قد يتدفق ذلك التيار الانفعالى بشدة أكثر مما يتطلبه الموقف المفاجئ الذى حدث . وفى الحالتين فإن شرط التوازن الانفعالى يُفْـقد ، ويترتب على ذلك التوقف عن الإنتاج ، أو تقديم إنتاج ضخم ولكنه إنتاج فاسد . أو استهلاك الطـاقة الإنتاجية مما قد يترتب عليه توقف أجهزة هـامة بالجسم مثل القلب أو المخ . وبالتالى فإن شخصاً كهذا يتوقف عن الإنتاج إلى الأبد بعد أن يتحول إلى جثة هامدة .

(**ثانياً**) **الأفكار الثابتة** : ومن عوامل إفساد الاتزان الانفعالى وما يترتب عليه من الانحـــراف بالإنتاجية كماً وكيفاً ، ما يمكن أن يستحوذ على ذهن المرء من أفكار ثابتة ، وهى تلك الأفكار التى إذا رغب فى التخلص منها أو التخفف من شدة وطأتها عليه ، فإنه لايتمكن من ذلك ، بل يظل أسيراً لها وخاضعاً لسطوتها عليه . فحتى إذا هو استمر فى عملياته الإنتاجية ، فإنه يكون متقولباً فى قوالب تلك الأفكار الثابتة التى لا تريم عنه بحال .

(**ثالثاً**) **الوساوس** : والشخص المصاب بالوسواس يكون فى حالة تردد فى الاختيار بين فكرتين أو أكثر دون أن يصل إلى بر الأمان بأن ينتقى خياراً محدداً من بين تلك الخيارات المطروحة أمامه . فالوسواس يجعل المرء فى حالة تذبذب بين تلك الخيارات الموجودة بالموقف بغير أن ينتهى إلى خيار من بينها . وبالتالى فإنه يكون شخصاً عاجزاً عن الإنتاج تماماً ، أو هو ما يكاد يبدأ فى عمل ما حتى يعزف عنه إلى عمل ثان فثالث فرابع ... إلخ .

(**رابعاً**) **مركّب النقص** : ومركب النقص مباين للشعور بالنقص . فالشخص المصاب بمركب النقص يعمد لاشعورياً إلى إخفاء ذلك الشعور

فيقدم سلوكاً فيه مبالغة بالثقة بالنفس أو بالتهور الإنتاجى — إذا صح التعبير . فبدلاً من محاولة الوقوف على عوامل نقص الإنتاج أو رداءته ، فإن الشخص المصاب بمركب النقص يبالغ فى تقديم كم ضخم من الإنتاج ، ولكنه إنتاج غث لايساوى شَرْوَى نَقِير .

(خامساً) تثبيط الهمة والفتّ فى العضُد : ومن عوامل إجهاض الطاقة الانفعالية وإفسادها مايقوم به الأشخاص المحيطون بالمرء أو الرؤساء بالتربص به ، فيصادرون حريته فى العمل ويحيلونه إلى مجرد آلة يحركونها كيفما يشاءون . والواقع أن شخصاً كهذا يفقد القدرة على السيطرة على طاقته الانفعالية ، وبالتالى فإنه يسىء توجيهها ويقدم إنتاجاً بكمٍّ أقل مما فى مستطاعه ، كما أن إنتاجه يكون منحط المستوى ، وحتى إذا هو استمر لبعض الوقت فى تقديم إنتاج كبيرٍ كماً وجيدٍ كيفاً ، فإنه بمجرد رفع عصا الرقابة عنه يتوقف عن الإنتاجً ، وإذا أنتج فإن إنتاجه يكون متسماً بالرداءة .

□ التفاؤل والتشاؤم والإنتاج :

قد يذهب البعض إلى أن التفاؤل والتشاؤم سمتان مفروضتان على الشخصية بالوراثة ، فيولد المرء متفائلاً أو متشائماً . والواقع مخالف لهذا المنحى تماماً . فالتفاؤل والتشاؤم خاصيتان مكتسبتان بطريقة تفاعلية منذ طفولة المرء وعبر مراحل عمره التى مر بها ونتيجة ما تلقاه بالمواقف المختلفة ، وفى ظل الظروف المتباينة من خبرات سارة أو مكدرة . ومعنى هذا أن الجهاز النفسى للمرء يكتسب صبغة عامة ، إما أن تكون صبغة تفاؤلية ، وإما أن تكون صبغة تشاؤمية .

وواضح أن الشخصية المتمتعة بالصحة النفسية الجيدة هى الشخصية

المتفائلة ، أما الشخصية المريضة نفسياً فإنها تتصف بالتشاؤم . ولعلنا نلقى الضوء على خصائص الشخصية المتفائلة ، ثم نلقى الضوء بعد ذلك على خصائص الشخصية المتشائمة ، ولنبدأ بالشخصية المتفائلة على النحو التالى :

أولاً — توقع النجاح فى مساعى المرء :

فالشخصية المتفائلة تتوقع إحراز الثمار اليانعة نتيجة ما تقوم ببذله من جهود فى الأنشطة التى تضطلع بها . فهى تعتقد أنها كلما بذلت جهداً أكثر ، وكلما أخلصت فى عملها وفيما تبذله من نشاط ، فإنها تجنى ثماراً مساوية أو مكافئة للجهد المبذول . وبتعبير آخر فإن الشخصية المتفائلة تتلحف بمبدأ العلة والمعلول ، أو السبب والنتيجة . والعلة أو السبب يتمثلان فى الجهد المبذول ، أما المعلول أو النتيجة فيتمثلان فى تلك الثمار التى تجنيها . فثمة حتمية تؤمن بها الشخصية المتفائلة . فكما أن الماء يغلى ثم يتبخر إذا ما تعرض للحرارة ، كذا فإن النجاح فى الحياة يتأتى نتيجة اشتعال جذوة الحماس فى قلب المرء والضرب فى طريق الاجتهاد والمثابرة .

ثانياً — مقابلة حب المرء للناس بحب مماثل منهم :

والشخصية المتفائلة تؤمن بالحب المتبادل بينها وبين الآخرين . فكلما قدَّم المرء حباً للناس من حوله ، فإنه ينال حباً مماثلاً منهم . ولكن مع اعتراف الشخصية المتفائلة بأن بعض الناس الذين يقدم إليهم الحب لاينال منهم سوى المقت والغدر ، فإنها تؤمن أن الحصيلة النهائية لما تقدمه من حب إلى الناس بصفة عامة ، تكون متسمة بالتكافؤ مع مقدار الحب المبذول . فإذا ما نظر المرء إلى الناس بنظرة كلية ، فإنه يجد أن ما ينفقه من حب لهم يتساوى مع مقدار الحب الذى يجنيه منهم .

ثالثاً ـ توافر الفرص المواتية :

والشخصية المتفائلة تعتقد أن الفرص المواتيـة التى يمكن استغلالهـا متوافرة أمام المرء ، فالحظ الباسم عبارة عن مجموعة كبيرة من الفرص المتاحة التى يمكن استغلالها واستثمارها إذا أراد المرء ذلك . وبتعبير آخر فإن باب الحظ مفتوح أمام جميع الناس دون استثناء . فليس هنـاك أشخاص محظوظون وأشخاص فرض عليهم النحس ، بل هناك أشخاص يستغلون ويستثمرون الفرص المتاحة أمامهم ، بينما هناك أشخاص آخرون يتواكلون ويتباطئون ويهملون استغلال واستثمار تلك الفرص المتاحة .

رابعاً ـ الشعور بالسعادة :

والشخصية المتفائلة تستشعر الرضى والقناعة بما حصلت عليه من مقومات وخصائص شخصية وموارد اقتصادية ، وما تحس به من سعادة إنما يكون نتيجة التقبل والاقتناع بأن الظروف التى تمر بها هى ظروف جيدة . وحتى ما تصادفه الشخصية المتفائلة من صعاب أو من مواقف منغِّصة ، فإنها تعتبر فى نظرها بمثابة اختبار لمتانة عودها ؛ بل تعتبرها عوامل صقل لمواهبها . فالشدائد والعقبات والمكدرات هى فى النهاية عوامل مساعدة على تفتيق ما يكمن فى قـوام الشخصية من إمكانات عظيمة لايتسنى التعبير عنها وإخراجها من مكامنها إلا عن طريق تلك الصعاب والأحوال غير المواتية؛ التى هى فى الحقيقة عقبات مؤقتة يحس المرء بمنتهى السعادة عندما يتغلب عليها ، ومعنى هذا أن الشعور بالسعادة لا يتأتى إلا فى ضوء مجابهة تلك الصعاب بقوة الإرادة وإرادة القوة . (انظر كتابينا : « قوة الإرادة » و « إرادة القوة ») .

خامساً ـ تجدد أهداف الحياة :

والشخصية المتفائلة تتسم بالخصوبة فيما تترسَّمه من أهداف متجددة .

فهى كلما حققت جانباً من أهدافها ، فإنها تستشرف جانباً آخر من الأهداف التى لم تكن قد ترسَّمتها قبل ذلك . فالأهداف بالنسبة لهـا بمثابة تيار جار لاينضُب ، بل يستمر فى التدفق حتى نهاية العمر . فليس من حائل يقف بينها وبين تجدد الأهداف بما فى ذلك الانخراط فى مرحلة الشيخوخة . فالشخصيات المتفائلة تستمر فى استشراف أهداف غير مسبوقة طالما هى على قيد الحياة . ومن ثَـمَّ فإن جهدها المبذول يستمر بدأب لا ينقطع حتى يتسنى لها تحقيق ما وضعته نصب أعينها من أهداف متجددة باستمرار .

وفى مقابل هذه السمات الخمس التى تتسم بها الشخصية المتفائلة ، فإننا نجد أن الشخصية المتشائمة تتسم بمجموعة مغايرة من السمات ، لعلنا نقوم بتقديمها على النحو التالى :

أولاً — المستقبل المظلم :

فبينما نجد أن الشخصية المتفائلة تنظر إلى المستقبل باستبشار ، فإن الشخصية المتشائمة تنظر إلى المستقبل بتوجس وتشكك وتخوُّف مما سوف يحمله من مصائب وكوارث وكل شر يمكن أن يخطر بالبال . فالشخصية المتشائمة تعتقـد أن الكون كله والبشرية عموماً تنحدر إلى مهاو مخيفة . فالأرض لاتتحمل من عليها وما عليها . والفناء آت لامحالة . وحتًى بالنسبة للشخص الواحد فإن المستقبل أكثر شناعة من الحاضر ، كما أن الحاضر أكثر شناعة من الماضى . فمنذ اللحظة الأولى التى يتكون فيها الجنين فى بطن أمه ، فإن عوامل الفناء تتربص به . وحتى إذا تسنى له الاستمرار فى صحة وفتوة حتى الشباب ، فإن الانحدار إلى الضعف والخور يبدأ فى الاعتمال فى أوصاله بتزايد مطرد ، ويزيد احتداماً فى الشيخوخة إذا ما تسنى له الاستمرار على قيد الحياة حتى الشيخوخة . وثمة العديد من

الكوارث الشخصية التى تعمل على خنق نشاط المرء وتحط من معنويته إذا ما ألقى ببصره إلى المستقبل . وبتعبير آخر فإن الشخصية المتشائمة ترى أن المستقبل بشع بجميع معانى البشاعة .

ثانياً — تفاهة الحياة :

والشخصية المتشائمة ترى أن حياة الفرد تافهة . فهو لا يعدو أن يكون بمثابة خلية فى قوام المجتمع . والخلايا تضمر وتموت وكأنها لم تكن موجودة . ومن الغرور أن يعتقد إنسان ما أن حياته ذات قيمة . وحتى العظماء والعباقرة لم تنفعهم الشهرة وذيوع الصيت ، وهم على كل حال استثناء من بين بلايين البشر الذين ينسى الناس أنهم كانوا موجودين بين ظهرانيهم . فالحياة والموت سيان ولا قيمة لهما على أية حال .

ثالثاً — لماذا ننتج ؟

والشخصية المتشائمة تتساءل عن الدافع إلى الإنتاج . فهل ينتج المرء لنفسه أم للآخرين ؟ فإذا كانت الإجابة أنه ينتج لنفسه ، فإنه يحس أنه مهما حاول أن ينتج لنفسه ، فإنه مضغوط من الخارج ومحكوم عليه بأن يكون عالة على غيره حتى منتصف عمره على الأقل ، بل إن الحضارة الحديثة قد حرمت معظم الناس من المشاركة فى العمليات الإنتاجية وجعلت منهم عيالاً طوال حياتهم . وشاهد ذلك ما نراه من بطالة صريحة وبطالة مقنّعة على المستوى العالمى . وهذان النوعان من البطالة يستفحلان أكثر فأكثر كلما تقدمت الحضارة بتكنولوجياتها المتطورة بسرعة وتدفق . وإذا قيل إن المرء ينتج من أجل الآخرين ، فإنه يكون مخادعاً ومنافقاً . فالواقع أن الإنسان كائن أنانى ، وليس هناك ما يسمى بالتضحية ، بل هناك الأنانية التى تختبئ خلف تلك المظاهر والتصرفات التى يعتبرها الناس

تضحية . فالمضحى شخص يسعى شعورياً أو لاشعورياً إلى نوال الحظوة والشهرة من جانب الناس الذين يضحى من أجلهم . ولكن بالأسف فإن من يضحى من أجلهم يتنكرون له ويهاجمونه ويديرون ظهورهم له .

□ **الحب والكراهية والإنتاج :**

لايعزب عن البال أن صحة المرء النفسية تتحدد فى ضوء مظاهر الحب والكراهية لديه ، بمعنى أن ثمة مجموعة من الخصائص التى يتسم بها الحب والكراهية لدى الشخصية المتمتعة بالصحة النفسية الجيدة ، لعلنا نقوم بتحديدها على النحو التالى :

أولاً — التوظيف الجيد للحب والكراهية :

فالشخصية السوية المتمتعة بالصحة النفسية الجيدة تقوم بتوظيف الحب والكراهية التوظيف الجيد من حيث ملاءمة المشاعر الوجدانية للشخص أو الأشخاص الذين يوجه إليهم المرء عواطفه بحيث تكون هناك غرضية معينة مرتجاة من الحب أو الكراهية المعتملان بدخيلته وخارجيته . فلا يكون الحب لذات الحب ، أو الكراهية لذات الكراهية ، بل يكون الحب والكراهية موظَّفين لتحقيق أهداف نفسية وسلوكية معينة . ومعنى هذا أن الحب والكراهية لدى الشخصية السوية يرتبطان بالإنتاج — كائناً ما يكون ذلك الإنتاج . فسواء أحب المرء السوى أو كره ، فإن حبه أو كراهيته يكونان لخدمة إنتاجيته فى الحياة .

ثانياً — صدق الحب والكراهية :

على أن الشخص المتمتع بالصحة النفسية الجيدة يكون صادقاً فى حبه وكراهيته . فهو لا ينهج فى سلوكه بوجهين ، ولايكون ثمة تناقض بين حقيقة سلوكه الداخلى وبين مظاهر سلوكه الخارجى ، بل تكون هناك

مطابقة تامة بين داخليته وخارجيته ، أعني ما يحس به فى قلبه ، وما يعبر عنه بملامح وجهه وحركاته وتصرفاته البادية للعيان . ومما لاشك فيه أن صدق السلوك يكون مدعاة لدعم الإنتاجية ومتانتها واستمرارها .

ثالثاً — الاتزان التدفقى للحب والكراهية :

فالشخصية السوية المتمتعة بالصحة النفسية الجيدة تسوس عواطفها بسياسة اقتصادية رصينة . فهى لاتبذر فى عواطفها ، كما لا تبخل بها فى الوقت نفسه . وبتعبير آخر فإنها تقدم من عاطفتى الحب والكراهية بقدر ما يناسب المقام الإنتاجى بغير إفراط أو تفريط . وثمة فى الواقع علاقة وثيقة بين إنتاجية المرء وبين مدى قدرته على توجيه عاطفتى الحب والكراهية لديه . فكما أن كل عملية إنتاجية تستلزم توافر قدر معين من التوتر النفسى لكى يتم الإنتاج بأكبر كَم وأفضل كيف ، كذا فإن كل عملية إنتاجية تستلزم توافر قدر معين من الحب وقدر معين من الكراهية لكى يتم الإنتاج بأكثر كَم وبأفضل كيف ممكنين .

ولقد يتساءل البعض عن الدور الذى يلعبه الكره فى الإنتاج . والإجابة بأن الحب والكراهية صنوان لايفترقان . فعندما نحب شخصاً أو شيئاً، فإننا نكره ما يناقضهما ولا يماشيهما . وبتعبير آخر فإن الكره هو انعدام الحب ، كما أن الظلام هو انعدام النور . فعلاقة الحب بالكراهية هى علاقة وجود وعدم وجود. ولكن هناك نقطة هامة بهذا الصدد هى أن الوجود والعدم فى نطاق الحب والكراهية ليسا وجوداً وعدماً مطلقين ، بل هما وجود وعدم نسبيان ، أى أن الموقف الواحد يمكن أن يتواجد فيه الحب والكراهية بنسب متفاوتة . فكلما كان الحب أكثر وجوداً كان الكره أقل وجوداً ، تماماً كما هو الحال لدى اختلاط النور بالظلام . فكلما كان النور أكثر تواجداً كان الظلام أقل تواجداً .

ولكن كما سبق أن قلنا فإننا عندما نطلق صفة الوجود على ظلام أو على الكره، فإن إطلاقنا هذا يكون على سبيل التجوُّز ، لأنه ليس ثمة وجود للظلام أو للكره .

رابعاً — الاستقرار وعدم التذبذب بين الحب والكراهية :

فالشخصية السوية المتمتعة بالصحة النفسية الجيدة لاتكون مصابة بالتناقض الوجدانى أو بالتذبذب الوجدانى. فهى لاتكون مصابة بالميوعة الوجدانية، أى لايكون الحب الموجه إلى العمل الإنتاجى مساوياً للكراهية الموجهة إليه ، كما أنها لاتتذبذب بين الحب والكراهية الموجهين إلى المجال الإنتاجى مثلما يفعل بندول الساعة ، فتحب العمل الإنتاجى ثم تكرهه ، ثم تحبه ثم تكرهه إلى غير نهاية ، بل هى تستقر وجدانياً بأن تشتمل على قدرمعين من حب العمل ولا تحس بالكراهية تجاهه . وحتى إذا هى أحست ببعض الكره تجاه العمل فى بعض الأوقات ، فإن ذلك الكره يكون كالسحابة العابرة التى ما تكاد تظهر حتى تنقشع ، ويكون الكره فى ذلك الموقف لسبب عارض ، ويكون شبيهاً بالكره العارض الذى قد يشوب علاقة الزوجين الحبيبين فى موقف ما ، ولكنه كره سرعان ما يتلاشى بسرعة وتتغلب عاطفة الحب عليه .

خامساً — دعم أسباب الحب واقتلاع أسباب الكره :

فالشخصية السوية المتمتعة بالصحة النفسية الجيدة تدأب على توفير العوامل التى تَـدْعم حب المجال الإنتاجى الذى تعمل فيه، كما أنها تقتلع الأسباب التى تشجع نمو الكره تجاهه فى قلبها . فالواقع أن هناك مجموعة من العوامل التى تؤدى إلى دعم حب المرء للمجال الإنتاجى الذى يوجه اهتمامه إليه ، كما أن هناك مجموعة أخرى من العوامل التى تعمل على إشاعة الكراهية فى قلبه تجاهه . فإذا ما عمد المرء إلى إنعاش العوامل

الأولى المدعمة لحب العمل الإنتاجى من جهة ، وإلى القضاء على العوامل الثانية المدعمة لكراهيته من جهة أخرى ، فإن ذلك يكون بالتالى عاملاً على الارتفاع بمستوى إنتاجيته كماً وكيفاً على السواء .

□ الإيجابية والسلبية والإنتاج :

ينقسم الناس إلى فريقين أساسيين : فريق الإيجابيين ، وفريق السلبيين . بيد أن الإيجابية والسلبية ليستا سمتين مطلقتين بإزاء جميع الأنشطة . فالشخص الإيجابى بإزاء أحد الأنشطة ، قد يكون سلبياً بإزاء أنشطة أخرى . وكذا فإن الشخص الإيجابى بإزاء أحد الأنشطة قد يتخذ موقفاً سلبياً من النشاط نفسه لفترة أو أخرى لأسباب صحية أو نفسية أو اجتماعية . ناهيك عن أن الإيجابية والسلبية سمتان متداخلتان بمعنى أن الشخص الإيجابى بإزاء أحد الأنشطة لاتكون إيجابيته مطلقة ، بل يكون إيجابياً إلى حد بعيد أو إلى حد قريب . وكذا فإن الإيجابية التى يتسم بها نشاط شخص ما أو مجموعة ما قد تكون إيجابية نمطية ، كما أنها قد تكون إيجابية إبداعية . والإيجابية لاتكون خيرة بالضرورة ، بل قد تكون إيجابية شريرة ، فقد تنصب الإيجابية على اقتراف الجرائم والمشاركة فى بؤر الشر بالمجتمع .

وهكذا نجد أن الإيجابية والسلبية تتخذان مجموعة من المعانى التى عرضنا لبعض منها . ولو استرسلنا فى تغطية جميع معانى الإيجابية والسلبية ، إذن لغطينا عدة صفحات ، وبالتالى تضيع منا معالم الطريق ، ونخرج عما نقصد إليه وهو إيضاح علاقة الإيجابية والسلبية بالإنتاج . وعلى أية حال فإننا نكتفى بهذه المعانى التى قدمناها ، مُتبعينها باستعراض المناحى التى ترتبط فيها الإيجابية والسلبية بالإنتاج ، فنجد أن تلك المناحى يمكن أن تتحدد على النحو التالى :

أولاً — الإيجابية الذهنية :

فالشخص المنتج يكتسب تصوراً شاملاً ودقيقاً بإزاء العمليات الإنتاجية التى سوف يشارك فيها . ومعنى هذا أن الفكر يسبق الأداء . وطبيعى أن يتبادل الناس أفكارهم وتصــوراتهم المتعلقة بالعمليات الإنتاجية . وهنا لابد أن نذكر التراث الذى يمثل ثَـبْـت الخبرات التى اكتسبها الناس ، والتى تم تسجيلها على الورق . فالإعداد الذهنى لما سوف يشارك فيه المرء من عمليات إنتاجية يسبق المشاركة الفعلية فى تلك العمليات. وكلما تقدمت الحضارة الإنسانية وتعقّـدت ، تضخم الكم المعرفى وصار على جانب أدق وأعمق . والواقع أن الإنسان الحضارى المنتج يعتمد على ما بالتراث القريب والبعيد من خبرات مسجلة ، وإن كان الكثير من المنتجين يكتفون بأن ينقلوا عن غيرهم ما علق بأذهانهم من ذلك التراث القريب والبعيد . ونقصد بالتراث القريب الثقافة السائدة بمكان معين وفى عصر معين .

ثانياً — الإيجابية الوجدانية :

فلكى يحيل المرء تصوراته الذهنية إلى أداء ، لابد أن يقوم ببلورة وجدانه بالحب حول تلك التصورات الذهنية . فالواقع أن الوجدان بمثابة الطاقة التى تدفع التصورات الذهنية من نطاق الكمون إلى نطاق الأداء . ولا يعزب عن البال أن هناك — فى مقابل البَـلْـورة الإيجابية الوجدانية بالحب حول التصورات الذهنية المتعلقة بالعمليات الإنتاجية — بَلْـورة سلبية بالكراهية حول تلك التصورات الذهنية . ولعلنا نفسر إحجام الكثير من الناس عن المشاركة فى ركب الإنتاج بذلك التبلْـور السلبى للوجدان بالكراهية حول التصورات الذهنية المتعلقة بتلك العمليات

الإنتاجية ، ومن ثَمَّ فإن المرء لايستطيع أن يشارك فى الإنتاج ، سواء بطريق شعورى أم بطريق لاشعورى .

ثالثاً — اكتساب مجموعة من العادات الإيجابية :

فالواقع أن المرء المنتج لا يؤدى كل تفصيلة من تفصيلات العمليات الإنتاجية بإدراك كامل لمقوماتها ، بل يكتسب مجموعة من العادات العقلية والوجدانية والأدائية التى تسمح له بأن يباشر عملياته الإنتاجيـة فى جانب كبير منها بما يسمى « تحت الشعور » ، أى بطريقة شبه آلية . وحتى المفكر الذى يقوم بتأليف كتاب ، فإنه فى إنتاجه لعمله الفكرى يكون متلبساً بمجموعة من العادات الذهنية والوجدانية والأدائية ، فيؤدى جانباً كبيراً منه بطريقة شبه لاشعورية ، أو بطريقة استبطانيـة introspective ، فهو يترك قلمه على السجية يدبِّـج ما يعـبر به عن فكره وهو محكوم بما سبق له اكتسابه من أسلوب يعبر به بطريقة شبه لاشعورية .

رابعاً — تقييم ما يتم إنتاجه :

ومن خصائص الشخصية الإيجابية أنها تقوم بتقبل نقد الآخرين لمـا تقوم بإنتاجه ، كما أنها تقوم بعمليات النقد الذاتى المستمرة . والواقع أن تلك العمليات النقدية لاتكون تجريحية أو تثبيطية ، بل تكون بنائية تشجيعية . وهنا يبدو الفرق بين الشخصية الإيجابية وبين الشخصية السلبية بإزاء نقد الآخرين لها ونقدها لنفسها . فبينما نجد أن الشخصية السلبية تجد فى نقد الآخرين لها أو فى نقدها لما تقوم هى بإنتاجه شخصياً، عمليات هدمية أو تعويقية ، فإن الشخصية الإيجابية على العكس من هذا تجد فى تلك العمليات النقدية سبيلاً إلى التجويد والبناء . ذلك أنها تضع

نصب عينيها أن الحق يتأتى عن المحاولات الدائمة للتخلص من الباطل ، وأن البناء هو المقاومة الدائمة للعمليات الهدمية . والشأن هنا كالشأن بالنسبة لعمليات البناء والهدم فى جسم الإنسان . فصاحب البنية القوية هو ذاك الذى يقاوم عمليات الهدم ويتفوق بعمليات البناء عليها . فليس إذن من المستغرب أن يقع الإنسان فى بعض الأخطاء ، ولكن الشخصية الإيجابية هى تلك الشخصية التى تعمد باستمرار إلى تنقية إنتاجها من العوالق الرديئة التى لحقت بها أثناء الأداء .

خامساً — التعاون مع الآخرين :

هناك كثير من الأعمال التى يشترك شخصان أو عدة أشخاص فى أدائها . وواضح أن الإيجابية تتبدى فى التعاون الذى يسود بينهم ، بينما تتبدى السلبية فى تقوقع المرء حول ذاته وعدم مشاركته فى العمليات التعاونية التى يتطلبها الإنتاج .

وهناك فى الواقع مجموعة من المعوِّقات التى تحول دون اعتمال الإيجابية فى العمليات الإنتاجية ، لعلنا نقوم بتقديمها على النحو التالى :

أولاً — نقص الخبرة اللازمة :

فلقد يعمل نقص الخبرة لدى المرء على نكوصه عن إبداء الإيجابية. فحتى إذا هو حاول إبداء الإيجابية فى مشاركته بالعمليات الإنتاجية ، فإنه يجد نفسه عاجزاً عن تقديم الإنتاج الجيد ، أو يجد أن إنتاجه مشوب بالكثير من الخلل أو العيوب .

ثانياً — اكتساب عادات ذهنية أو وجدانية أو أدائية رديئة :

ومما يعمل على عرقلة المساهمة الإيجابية من جانب المرء فى العمليات الإنتاجية ، ما يكون قد سبق له اكتسابه من عادات عقلية أو وجدانية أو أدائية رديئة .

ثالثاً — السأم من الرتابة :

ومما ينكص بالمرء عن التذرع بالإيجابية ، إصابته بالسأم من رتابة العمليات الإنتاجية . فالواقع أن الإنسان يتشوَّف إلى الجدة وينبهر بالوسائل الجديدة التى يتذرع بها فى الإنتاج ، ولعلنا نقول إن هناك أشخاصاً يتعشقون الجديد أكثر من غيرهم . فهم ينفرون من الضرب فى الطريق نفسه فى الأداء باستمرار . فإذا ما فرض عليهم أن ينهجوا نفس النهج بغير تجديد ، فإن السأم يصيبهم ، وبالتالى فإنهم يتخذون موقفاً سلبياً فى حياتهم الإنتاجية .

□ الاستمرارية والتذبذبية والإنتاج :

إن الشخصية المنتجة تمتاز بأنها تستمر فى تجديد طاقتها الإنتاجية وفى تجديد أهدافها وفى تجديد الوسائل التى تتذرع بها فى إخراج المخططات الإنتاجية من حيز الكمون إلى حيز الواقع ، ثم هى أخيراً الشخصية التى تدأب على تقييم ما تقوم بإنتاجه وإدخال التعديلات والتنقيحات على ما أنتجته بالفعل ، وعلى ما تعتزم إنتاجه فى المستقبل المنظور . وباختصار فإن الشخصية المنتجة هى الشخصية الديناميكية التى تصدر فى إنتاجها عن دخيلتها ، ولا تكون مدفوعة إليه من الخارج بواسطة الضغوط التى يحدثها غيرها فيها .

وعلى هذا فإن الشخصية المنتجة تتسم بالاستمرارية فى إنتاجها . فهى تجهز نفسها بالجديد باستمرار . وكلما حققت هدفاً من الأهداف التى ترسَّمتها ، فإنها تكون قد أعدت أهدافاً جديدة تستشرف تحقيقها فتجهز لها الخطط المناسبة ، فلا تكون هناك فى حياتها فجوات فارغة بغير إنتاج ، ناهيك عن أن الشخصية المنتجة لا تتذبذب بين إتمام إنتاج

شيء ما وبين البدء فى إنتاج جديد . وحتى إذا هى قامت بتأجيل عمل إنتاجي ما لبعض الوقت ، فإنها لا تصرف النظر عنه نهائياً ، بل تؤجله لأسباب نفسية أو لأسباب عملية ، ولكنها على أية حال لا تقدم رجْلاً وترجع بأخرى ، بل تستمر فى التقدم بغير كلل أو ملل ، ثَم هى لا تترك عملاً ناقصاً دون أن تتمه . فكل شيء لديها محسوب بحساب دقيق .

ولعلنا فيما يلى نقوم بإلقاء الضوء على معنى الاستمرارية وعدم التذبذب ، وهى السمة التى يتسم بها صاحب الشخصية المنتجة ، فنجد أن هذه السمة تتضمن الجوانب التالية :

أولاً — الربط المستمر بين الماضى والحاضر والمستقبل :

فالشخصية المنتجة تنظر إلى الزمان بمنظار مباين للمنظار الذى تنظر به الشخصيات غير المنتجة . فالزمان فى نظرها مقيَّم بميزان دقيق ، بل إن لكل دقيقة من حياتها وزنها وقيمتها التى لا تَعْدلها قيمة أخرى . فالوقت فى نظرها هو أثمن شيء فى الوجود . ومن ثم فإنها تقوم بتقييم إنتاجيتها التى حققتها فى الماضى ، وما تقوم بإنتاجه حالياً ، وما سوف تنتجه فى المستقبل . وبتعبير آخر فإن الزمان فى نظرها يتسم بالتكامل . فهى تعتقد أن رأس مالها لا يتمثل فيما تمتلكه من مال ، بل فيما تمتلكه من وقت . فإذا كانت قد أنتجت فى الماضى ، فإنها تحس بأنها قد ادخرت ذلك الإنتاج لكى تستمر به فى الحاضر والمستقبل . وبتعبير آخر فإنها تعتقد فى التفاعلات الإنتاجية ، بمعنى أن العمليات الإنتاجية لا تنفصل بعضها عن بعض ، بل تتفاعل بعضها مع بعض . ذلك أن تلك العمليات هى فى الواقع مهارات تتزايد دقة وإتقاناً كلما تسنى لها أن تتفاعل بعضها مع بعض ، فيتأتى عن تفاعلها مركب خبرى مهارى

إنتاجى عظيم القيمة . فهى فيما تعتزم إنتاجه فى المستقبل سوف تقوم باستخدام ذلك المركب الإنتاجى وتوظفه بحيث يأتى الإنتاج المستقبلى أروع مما تحقق بالفعل فى الماضى وما يتحقق حالياً فى الحاضر .

ثانياً — استمرارية تفريخ الأهداف :

وما دمنا قد قلنا بالدينامية ، أى أن النزعة الإنتاجية تعتمل بدخيلة الشخصية المنتجة قبل أن تتبدى الثمار الإنتاجية فى الواقع العملى ، فإننا نستطيع أن نقول إذن إن الأهداف الإنتاجية التى يتوخاها المرء المنتج تتوالد فى قوامه ، فلكأنها بمثابة كائنات حية تتلاقح فيما بينها ، فيتأتى عن تلاقحها إنجاب أجيال جديدة من الأهداف . وكلما كان المرء أكثر خصوبة فى دخيلته الذهنية والوجدانية والنزوعية ، كانت الفرصة المتاحة لذلك التلاقح الخبرى فيما بين الأهداف أرحب . وطالما أن تلك العمليات التلاقحية مستمرة ، فلا يكون هناك مجال إذن للتذبذب بين الإقبال والإدبار ، أو بين التقدم إلى الأمام والتذبذب إلى الوراء . فالشخصية المنتجة شخصية لا تعرف التراجع ، وإن كانت تستعين بالتكتيكات المناسبة للواقع الخارجى الذى تنتج فيه وله .

ثالثاً — الاستمرار فى تذليل الصعاب :

وكما قلنا فإن الشخصية المنتجة تقوم بعمل تكتيكات بإزاء الواقع الخارجى . ونقصد بهذا أنها تضع المخططات التى تسمح لها بأن تذلل الصعاب التى اكتنفت طريقها فتقضى عليها وتحطمها . ولذا فإن الشخصية المنتجة لا تكتفى بالنظر إلى الواقع المحيط بها من زاوية واحدة ، بل تنظر إليه من عدة زوايا ، ثم تقع على الزاوية المناسبة لاعتمال نشاطها الإنتاجى من خلالها . وبتعبير آخر فإن الشخصية المنتجة كلما وجدت

الطريق أمام نشاطها الإنتاجى موصداً ، فإنها تبحث عن طريق آخر تسلكه ، وطالما أنها تأخذ فى اعتبارها عدة زوايا ، فإنها تكون إذن خليقة بعدم التوقف وبعدم الشعور بالإحباط عندما تجد زاوية من تلك الزوايا موصدة ، ولا يمكن العبور من خلالها إلى الواقع الإنتاجى . فالخيارات الكثيرة المتاحة أمامها توفر لها الفرص الكثيرة للاستمرار فى الإنتاج والنجاح فى تخطى العقبات ونفض غبار الكسل عن قوامها الإنتاجى .

رابعاً — الاستمرار فى تجديد وسائل التنفيذ :

فالواقع أن وسائل الإنتاج مستمرة فى التطور والتقدم . فكلما تقدم الزمن زادت عجلة التطور فى التقدم والقفز إلى الأمام بخطى سريعة متضاعفة . فالتكنولوجيات المتباينة لا تقف عند مستوى لا تتقدم بعده ، بل هى دائبة فى التقدم والتعقد . والشخصية المنتجة لا تتقدم فى أهدافها فحسب ، بل تتقدم أيضاً فيما تتذرع به من تكنولوجيات . فكلما ظهرت تكنولوجيا جديدة أفضل وأنسب من التكنولوجيا التى تستعين بها فى إنتاجها ، فإنها تنبذ التكنولوجيا القديمة وتأخذ بالتكنولوجيا الجديدة . وهذا يستلزم قيامها بالتدرب على استخدام التكنولوجيا الجديدة بحيث تتقنها ، فيكون استخدامها لها ممتازاً ، ويتأتى عن ذلك تحقيق التقدم بعجلة الإنتاج من حيث الكم ومن حيث الكيف أيضاً بغير توقف .

خامساً — الاستمرار فى تذليل العقبات النفسية :

فالواقع أن الشخصية المنتجة تتعرض للإصابة بمجموعة من العقبات النفسية ، كالإحباط والقلق والتوتر ، فالمرء مهما كان ممتازاً من الناحية النفسية ، فإنه يكون معرضاً من وقت لآخر للإصابة

بالوعكات النفسية التي لا تعتبر ضمن الأمراض النفسية ، بل تعتبر ضمن المظاهر النفسية العادية التي تصيب أكثر الناس تمتعاً بالصحة النفسية . بيد أن تلك الوعكات لا تتلاشى ولا تندثر إلا إذا قام المرء بمقاومتها والعمل على قهرها وملاشاتها . وأكثر من هذا فإنه إذا ما سكت عنها ، فإنها يمكن أن تستفحل ويعظم شأنها وتستحيل مع الوقت إلى أمراض أو انحرافات نفسية . من هنا فإن الشخصية المنتجة تدأب على اقتلاع تلك الحشائش الضارة قبل أن تأخذ فى النمو والاستفحال . وهذه العملية تتخذ لها ضلعين : ضلع الوقاية ، وضلع العلاج . فالشخصية المنتجة تستمر فى الأخذ بهذين المنهجين : منهج الوقاية النفسية ، ومنهج العلاج النفسى . فهى تدرأ عن نفسها عوامل الكسل النفسى من جهة ، كما أنها تقتلع بذور العقبات النفسية بمجرد أخذها فى النمو من جهة أخرى . وبهاتين العمليتين المستمرتين تظل الشخصية المنتجة مستمرة فى إنتاجيتها بغير توقف وبغير تذبذب على السواء .

* * *

الفصل الرابع
العقل والانتاج

□ الإدراك والإنتاج :

الإدراك هو الترجمة الذهنية للتيارات العصبية التى تنتقل من الحواس الخمس بواسطة الأعصاب إلى مراكز الترجمة الإدراكية بالمخ، وبتعبير آخر فإن الشحنات العصبية البيولوجية تستحيل فى تلك المراكز إلى مدركات ذهنية ، إذ يقوم كل مركز من تلك المراكز الإدراكية بترجمة الشحنات العصبية المنقولة إليه من الحاسة المتصلة به بواسطة تلك الأعصاب الحسية .

والواقع أن جميع الأنشطة الإنتاجية — كائنة ما تكون — إنما تتخذ من الإدراك الحسى نقطة انطلاق لها . وعلينا أن نلقى بالضوء على العلاقة القائمة فيما بين الإدراك الحسى وبين الإنتاج ، فنجد أن تلك العلاقة يمكن أن تتحدد على النحو التالى :

أولاً — الوقوف على طبيعة وخصائص الشىء المدرك حسياً :

فعن طريق الإدراك الحسى للموضوعات المدركة ، يتسنى للمرء أن يدرك الخصائص التى تحملها ، وما تتسم به طبيعتها ، فالواقع أن الإدراك الحسى ليس إدراكاً شَبَحياً لتلك الموضوعات التى يتم إدراكها ، بل هو إدراك جَوْهرى بمعنى الكلمة ، لدرجة أن المرء لا يستطيع أن يفرِّق بين الأشياء المدركة وبين صورها الذهنية الإدراكية . فنحن لا ندرك إذا ما تلمَّسنا أن ثمة مفارقة فيما بين الشىء المدرك ، وبين

الصورة الذهنية الإدراكية التى ندركه عن طريقها . ولكننا فى حياتنا اليومية لانفرِّق بين الموضوع الذى ندركه وبين صورته الذهنية المدركة. ومعنى هذا أن تلك الصورة الذهنية الإدراكية تقرِّب بين عقولنا تقريباً شديداً وبين الواقع الخارجى الذى نلتقط له صوراً ذهنية إدراكية تصل إلى درجة المطابقة الاعتقادية ، فنعتقد أننا ندرك طبيعة وتفاصيل وخصائص الموضوع الذى يتم لنا إدراكه بحاسة أو أكثر من حواسنا الخمس .

ثانياً — تناول الشيء المدرك بالفحص :

فالإدراك الحسى وإن كان فى طبيعته عملية استقبالية ، فإننا لا نكتفى بالوقوف موقفاً سلبياً بإزاء ما ندركه من موضوعات ، بل نتخذ خطوات إيجابية ، وذلك بتناول تلك الموضوعات وتقليبها على أوجهها . فبالنسبة للمس مثلاً ، فإننا لا نكتفى بلمس ما يصادفنا منها ، بل نتناولها من جميع أنحائها حتى نتبين ما إذا كانت هناك تباينات لمسية نستشعرها مع تباين الأجزاء التى نلمسها . وكذا الحال بإزاء باقى الحواس الخمس . فالمرء لا يقف موقف المتلقى للصورة اللمسية الأولية ، أو الصورة المرئية الأولية ، أو الصورة السمعية الأولية ، أو الصورة الشمِّية الأولية ، أو الصورة الذوقية الأولية ، بل يحاول الحصول على أكبر قدر من تلك الصور الإدراكية ، حتى يقتنع أنه قد وقف على جميع جوانب الموضوع الذى يتم له إدراكه بحاسة أو أكثر من حواسه الخمس .

ثالثاً — التمييز فيما بين حقيقة الشيء المدرك وبين الخداع الإدراكى illusion :

فالمرء لدى قيامه بالعمليات الإدراكية قد يصادف تبايناً أو اختلافاً

واضحاً فيما بين مدركاته المتعلقة بالشيء الواحد . فهو يشاهد الملعقة مُعْوجة وهى موضوعة فى كوب زجاجى مملوء إلى نصفه بالماء ، بينما يشاهدها مستقيمة وهى فى الهواء . فماذا يكون الحل إذن ؟ إنه يعقد مقارنة بين الصورتين المدركتين للملعقة وهى بالكوب ، ثم وهى فى الهواء أو وهو يتحسسها بأصابعه ، ثم ينتهى من تلك المقارنة إلى إصدار حكم يقينى بأن الصورة الذهنية للملعقة وهى مغموسة بالكوب الممتلىء إلى نصفه بالماء ليست جديرة بالاعتقاد ، وأن إدراكه لها عندئذ كان وهماً وخداعاً بصرياً . أما إدراكه لها وهى بين يديه فى الهواء فهو الإدراك الخليق بالتصديق والاعتقاد .

رابعاً — إجراء التجارب المعملية :

إن العلوم المتباينة تعتمد على إجراء التجارب التى لا يمكن القيام بها إلا عن طريق الإدراك الحسى والحصول على تلك المدركات الحسية المتباينة . بيد أن الإنسان حاول ويحاول وسيحاول أن يستعين بالأدوات والأجهزة التى يمكن أن تساعده على الحصول على مدركات حسية على أكبر قدر من الدقة والوضوح . ومن تلك الأجهزة ما يعمل على تقريب البعيد ، أو على تكبير الصغير ، أو على استحداث مدركات حسية كانت مخبوءة فى قوام المادة ، أو يمكن أن يتأتى ظهورها بخلطها أو تفاعلها أو احتكاكها بمادة أخرى . وهكذا استطاع الإنسان أن يوسِّع رقعة مدركاته الحسية . فهو لا يكتفى بالظواهر الخارجية ، بل يعمِد إلى الغوص إلى بواطن المواد المتباينة ، بل إنه استطاع أن يخترع الأجهزة الإلكترونية التى يتسنى له عن طريقها أن يشاهد ما لا يتسنى له إدراكه بأى من الأجهزة المكبِّرة ، كما يفعل بإزاء مكوِّنات الذرة .

وكذا فإنه امتد بوسائله إلى خارج المجموعة الشمسية التى تُعتبر الكرة الأرضية كوكباً ضمن كواكبها ، حتى يتسنى له إدراك النجوم والكواكب أو المجموعات الشمسية البعيدة .

خامساً — تخليق مواد جديدة :

فالإنسان لا يكتفى بما يعثر عليه من خامات ، بل يحاول دائباً أن يتوصل إلى خامات جديدة مُشْتقة من الخامات الموجودة . فهو لم يقنع بالحديد ، بل اخترع الصلب ، كما اخترع الكثير من الوسائل التى يتسنى له بواسطتها التوصل إلى منتجات مستحدثة يتخذها أساساً لصناعاته المتباينة . فبدلا من الاعتماد على الحرير الطبيعى الذى تصنعه دودة القز ، فإنه اخترع أنواعاً أخرى من الحرير التى تفضل الحرير الطبيعى وتتفوق عليه . وقِسْ على هذا الكثير جداً من الصناعات التى اتخذت الإدراك الحسى نقطة انطلاق لها ، ثم امتد بها الإنسان إلى آفاق بعيدة المدى .

على أن هناك مجموعة من العقبات التى تعترض طريق الإدراك الحسى ، وبالتالى فإنها تشكّل عوامل معوِّقة أمام الإنتاج ، لعلنا نقوم بتحديدها على النحو التالى :

أولاً — الهلوسات الإدراكية :

فالواقع أن ليس كل ما يدركه المرء يكون إدراكاً متيناً وقائماً على أرض صلبة ، بل إن الكثير مما يتم إدراكه ، يدخل فى نطاق الهلوسات الإدراكية ، وتاريخ العلم يذكر أن بعض العلماء قد وقعوا فريسة للهلوسات الإدراكية ، فبنوا على ما أدركوه نظريات خاطئة . نذكر من بين هؤلاء ما وقع فيه مسمر Mesmer من أن هناك سائلا مغنطيسياً يمكن أن يشفى الناس بمجرد لمس قضيب من حديد مغموس فيه مما

أصيبوا به من أمراض . ولقد ذاع صيت مسمر وتبعه كثيرون ، وعرفت حركتهم بالمسمرية Mesmerism ، ثم تأكد العلماء المدققون من أن ما أدركه مسمر وأتباعه، إنما هو خرافة، أو هو مما يمكن دَرْجه في صلب الهلوسات الإدراكية .

ثانياً — الاعتقاد الذى يلوى عنق الإدراك الحسى :

فالواقع أن اعتمال الاعتقاد فى قلب المرء قد يطغى على مدركاته الحسية ، فيجرى فى أذيال معتقداته ، بينما يُغْضى عما يقع تحت حسه . من ذلك ما حدث عندما كذَّب العلماء جاليليو الذى قام بالتجربة أمامهم من فوق برج بيزا ، ليثبت لهم أن الجسم الأكثر وزناً يسقط فى الوقت نفسه الذى يسقط فيه الجسم الأخف وزناً إذا ما ألقى بهما فى نفس اللحظة من مكان مرتفع . ولكن العلماء انحازوا إلى ما سبق أن اعتقدوه من آراء أرسطو وكذَّبوا أعينهم ، وما قدمته لهم من مدركات بصرية .

ثالثاً — الإصابة بالوسوسة :

ثمة فرق بين الوسوسة والشك . فالشك هو التفكير فى الخيارات المطروحة أمام المرء والوقوع على واحد منها . أما الوسوسة فهى التذبذب باستمرار بين خيارين أو أكثر دون التوصل إلى قرار يستريح إليه المرء ولا يريم عنه . فإذا ما أُصيب بالوسوسة ، فإنه لا يستطيع إذن أن ينطلق من المستوى الإدراكى إلى ما يمكن أن يتخذه من خطوات إنتاجية تالية .

□ التذكر والإنتاج :

إذا نحن ألقينا الضوء على التذكر ، فإننا نكتشف أنه يتضمن مجموعة من المعانى التى يتسنى لنا تقديمها على النحو التالى :

أولاً — تذكُّر المدركات الحسية :

فالواقع أن بعض ما يتم للمرء إدراكه حسياً بطريق حواسه الخمس يَعْلق بالذاكرة ، بينما يخفت أو يتلاشى البعض الآخر منه . وحتى ما يتم اختزانه من تلك المدركات الحسية بالذاكرة يَخْفت ويتلاشى . ولكن البعض من تلك الذكريات المنسية يعود إلى النشاط والبزوغ من جديد وبخاصة فى مرحلة الشيخوخة ، حيث تنبض بعض الذكريات بالحياة من جديد بعد أن تكون قد خفتت ونسيت تماماً .

ثانياً — تذكر الانطباعات الوجدانية :

فما يترسب فى الذاكرة لا يقتصر على المدركات الحسية ، بل إن المواقف التى يمر بها المرء ، والتى تشتمل على مدركات حسية ، لا تكون مجردة من الوَقْع الوجدانى ، بل إنها كثيراً ما تكون مشحونة بشحنات وجدانية . ويطلق على الذاكرة فى تلك الحالات الوجدانية اسم « اللاشعور » . فاللاشعور هو المخزن الذى يشتمل على الانطباعات الوجدانية ، سواء كانت انطباعات سارة أم انطباعات مكدرة . بيد أن هناك علاقة وثيقة وديناميةفيما بين المخزونات أو المكبوتات الوجدانية وبين ما تتعلق به من مدركات حسية . فعندما يتذكر المرء تلك المدركات الحسية ، فإنه يصطحب مع تذكره لها ما ترتبط به من مشاعر وجدانية سارة أو مكدرة . وكذا فعندما تفور تلك المكبوتات الوجدانية ، فإنها كثيراً ما تستدعى ما يرتبط بها من مدركات حسية . ولكن هذا لا يتم فى جميع الحالات . فكثيراً ما تفور المكبوتات الوجدانية دون أن يتسنى للمرء أن يتذكر ما يرتبط بها من مدركات حسية اختزنت بالذاكرة الوجدانية .

ثالثاً — العادات الذهنية والوجدانية والأدائية :

فما يكتسبه المرء من عادات تتعلق بفكره أو بوجدانه أو بطرق أداء أنشطته المتباينة ، يشكّل نوعاً من التذكر اللاشعورى . فالجهاز العصبي لدى المرء يتضمن جانباً يعمل بطريقة إدراكية واعية ، وجانباً آخر يعمل بطريقة غير إرادية وغير واعية . والعادات بجميع أنواعها الثلاثة التى ذكرناها تعمل على المستوى اللاإرادى وغير الواعى . بيد أننا لا نستطيع أن نقول إن عادات المرء تسير على نحو لا إرادى إطلاقى ، بل تسير على نحو لا إرادى نسبي ؛ أى وَفْق حالة بَيْنية ، أعنى أن المرء فى ممارساته لعاداته المتباينة يكون فى حالة غير واعية نسبياً ولكنها تكون مشوبة ببعض الوعى وببعض الإدراك .

رابعاً — التقاليد والعادات الاجتماعية :

فالمجتمع — كائناً ما يكون — بمثابة كائن حى يكتسب مجموعة من العادات أو الذكريات التى تظل لصيقة به ومتمثلة فى التقاليد والعادات الاجتماعية . فما يمر به المجتمع من خبرات يترسب ويتكثف فى هيئة تقاليد وعادات اجتماعية تفرض نفسها على حياة وأنشطة الأجيال المتعاقبة به . وكما أن المرء ينسى أو يهمل جانباً من العادات التى سبق له اكتسابها ، كذا يفعل المجتمع بإزاء ما سبق له اكتسابه من تقاليد وعادات . فهو يتنحى عن الأخذ ببعضها ، بينما يكتسب تقاليد وعادات اجتماعية جديدة. ومن الطبيعي أن تحدث هذه العملية المتعلقة بهدم وبناء تقاليد وعادات اجتماعية وقتاً طويلاً لا يكاد أبناء الجيل الواحد يلاحظونه فى حياتهم .

خامساً — التراث الجمعى :

وتتمثل الذكريات الجمعية أيضاً فيما تركته الأجيال السابقة من

ذكريات جمعية تسمى التراث . والتراث قد يكون تراثاً رمزياً فى هيئة نقوش مكتوبة أو مرسومة أو منحوتة ، أو فى هيئة رموز مسموعة ، كما قد يكون تراثاً مجسَّماً وموظَّفاً لخدمة الإنسان . وثمة جانب من هذا التراث المجسم يبطل استخدامه ، وبعضه الثانى يستخدم قليلاً ، وبعضه الثالث لا يزال مستخدماً على نطاق واسع وتدخل عليه التطويرات المتباينة .

وبعد استعراضنا لهذه الأنواع الخمسة من التذكر ، يبقى علينا أن نلقى الضوء على العلاقة بين التذكر عموماً وبين الإنتاج ، فنجد أن تلك العلاقة تتمثل فيما يلى :

أولاً — حتمية التذكر لإمكان الإنتاج :

فلولا وجود التذكر بأنواعه الخمسة التى ذكرناها ، ما كان يتسنى القيام بأى إنتاج من أى نوع مما سبق أن ذكرناه بالفصل الأول من هذا الكتاب . فالذاكرة تلعب دوراً رئيسياً فى أى عملية إنتاجية يقوم بها المرء ، أو قل إن الذاكرة هى الركيزة الأولى التى ينبنى عليها الإنتاج أياً كان ذلك الإنتاج . وشاهد ذلك أن الشخص الذى يصاب بالعجز التذكرى يتوقف عن ممارسة الإنتاج فى المجال الذى كان يقوم بالإنتاج فى مضماره .

ثانياً — التجديد التذكرى شرط للتطور بالإنتاج :

فمن المعروف أن الحضارة فى تطور مستمر ، بل إنها تتقدم بخطى واسعة ووفق متتالية هندسية ، أو قل إنها تتقدم بطريقة تضاعفية . من هنا فإن الشخصية المنتجة لا بد أن تستقبل فى ذاكرتها ما يتساوق مع التقدم الحضارى المتعلق بالمجال الذى تنتج فيه . فإذا ما تقاعست

عن ملاحقة عجلة التقدم؛ فإنها تكون قد حكمت على نفسها بالتأخر الإنتاجى الكيفى ، برغم أنهـا قد تظل مستمرة فى الإنتاج الكمى بغـير نقصان . ومعنى هذا أن من المحتم أن يستمر المرء فى الاستقبال التذكرى بغير توقف حتى لا تهمله الحضارة خلفها وهو يجر أذيال الحسرة وخيبة الأمل .

ثالثاً — الاسترجاع التذكرى :

وطالمـا أننا اعترفنا قبلاً بأن المخزون التذكرى قابل للانكماش وتسرُّب جانب من الذكريات التى سبق تخزينها به ، فلا بد أن يقوم المرء باسترجاع أكبر جانب ممكن مما فقدته ذاكرته ، سواء كان الفاقد فاقداً ذهنياً ، أم كان فاقداً وجدانياً ، أم كان فاقداً أدائياً . فنجد مثلاً أن من يشتغل بالإنتاج الذهنى ينسى الكثير من الحقائق التى كان قـد استوعبها قبل ذلك ، فالمترجم ينسى جانباً من المصطلحات الواردة باللغة التى يترجم عنها أو ما تترجم به ألفاظها ومصطلحاتها . وقل هذا أيضاً بإزاء جميع المنتجين بالمجالات المتباينة . فما يتمكن منه المرء لا يظل فى حوزته إلا إذا استمر فى صقله وملاشاة الصدأ الذهنى الذى يرين عليه مع مرور الوقت .

□ الخيال والإنتـاج :

الخيال هو الوظيفة العقلية التى تقوم بها المخيلة . ووظيفة المخيلة وظيفة تصنيعية أو تصييغية . ذلك أنها تقوم بتصنيع أو تصييغ صـور ذهنية مستحدثة مستخدِمة فى ذلك جانباً من الصور الذهنية المدركة والصور الذهنية المتذكرة باعتبارهما خامات تستخدمها فى عملية التصنيع أو عملية الصـياغة الجديدة التى سوف تتبدى فيها تلك الصور الذهنية الإدراكية والتذكرية .

ومما لا شك فيه أن الإنتاج فى أى مجال من المجالات الإنتاجية يستعين بالخيال فى ممارسته . ولعلنا نقوم بتحديد تلك العلاقة القائمة بين الخيال والإنتاج فيما يلى :

أولاً — التفاعلات الذهنية :

فالخيال لا يقتصر على مزج الصور الذهنية الإدراكية والصور الذهنية التذكرية ، بل يتعدى هذا النطاق المَزْجى إلى نطاق آخر هو النطاق التفاعلى . وموقف الخيال من الخامات الإدراكية والخامات التذكرية كالموقف بإزاء التفاعلات الكيميائية التى لا تكون مجرد مزج مادتين أو أكثر بعضهما ببعض ، بل تتعدى هذا النطاق المزجى إلى نطاق جديد هو النطاق التفاعلى الذى يتأتى عنه قوام جديد يحمل خصائص جديدة . وواضح أن تلك التفاعلات الذهنية التفاعلية تسبق إخراج ما يتم تفاعله أو ما ينتهى إليه ذلك التفاعل بالخروج من نطاق الذهن إلى نطاق الواقع الحى ، أو الخروج بالصور الذهنية الخيالية المتأتية عن تلك التفاعلات الذهنية من نطاق الخيال إلى نطاق الواقع الممارس بالفعل فى العمليات الإنتاجية البادية للعيان .

ثانياً — تفردية الخيال وتكاملية الأخيلة :

إن كل فرد من أفراد المنتجين يتمتع بمخيلة فريدة غير متكررة كما هو الحال بإزاء بصمة يديه . وحتى إذا ما توصل أكثر من شخص واحد من المنتجين إلى أخيلة متشابهة ، فلا بد أنها تكون متمايزة على نحو أو آخر بعضها من بعض . فليست هناك مطابقة بين أخيلة الأفراد المشتركين فى المجال الإنتاجى الواحد ، وهذا مما يساعد على خصوبة المنتجات فى المجال الواحد . فكلما تسنى تضافر الأخيلة المتباينة بعضها

مع بعض ، وتكاملها فيما تسعى إليه من إنتاج ، كان الإنتاج أروع وأفضل . ومعنى هذا أن تمايز الأخيلة بعضها من بعض لا يعنى التفرق والتباعد ، بل يعنى التكامل والتعاون فيما بينها .

ثالثاً — بالخيال يتم التغلب على الصعاب والتخلص من العقبات :

فوظيفة الخيال بإزاء الإنتاج ليست وظيفة بنائية فحسب ، بل هى وظيفة نقدية تنقيحية أيضاً ، ففى المجال الإنتاجى — أياً كان — تظهر صعاب وتتبدى عقبات وعيوب فى المنتجات التى يتم إنتاجها ، فيكون من وظائف الخيال محاولة التغلب على تلك الصعاب والعقبات . ولعلنا نؤكد بهذا الصدد أن الوظائف المتباينة التى يضطلع بها الخيال بإزاء الإنتاج تتكامل فيما بينها . فالخيال يخترع المنتجات الجديدة ، كما يقوم بتطوير المنتجات الموجـودة بالفعل ، بل إنه يسدد سهام النقد إليهـا ويستكشف العيوب التى لحقت بها . كما أنه يحاول الكشف عن الوسائل التى يتسنى بها ملاشاة العيوب وإحلال مزايا جديدة محلها ، فيتقدم الإنتاج بذلك ويرتفع مستواه .

رابعاً — بالخيال تقام علاقات جديدة بين المشتركين فى العمليـات الإنتـاجية :

إن الخيال لا يقتصر على توجيه الاهتمام إلى العمليات الإنتاجية أو إلى الخامات أو المواد التى تستخدم فى العمليات الإنتاجية ، بل يهتم أكثر ما يهتم بالمشاركين فى العمليات الإنتاجية . فالقوى البشرية خليقة بأن يوجَّـه الانتباه إليها ، فبالخيال تقام علاقات جديدة بين المشاركين فى الإنتاج ، كما تهـدم علاقات قائمة بالفعل ولكنها غير مواتية . ناهيك عن استبعاد بعض العناصر البشرية الضـارة ، أو غير الفاعلة ، أو التى

ليس فى حوزتها المهارات الإنتاجية المناسبة للمرحلة التطورية التى توصل إليها مستوى الإنتاج ، وإحلال عناصر أصلح منها محلها . فمهمة الخيال إذن هى الارتفاع بمستوى المنتجين أنفسهم . ولعل من أهم ما توصل إليه الخيال بإزاء المشاركين فى العمليات الإنتاجية ذلك الفرع من علم النفس المسمى « علم النفس الصناعى » الذى يوجه الانتباه إلى أشخاص العمال الذين يقومون بالإنتاج ، فبالخيال تم التوصل إلى أفضل العلاقات البشرية التى يجب أن تسود مناخ العمل والإنتاج .

خامساً — بالخيال يستكشف المستقبل الإنتاجى :

فثمـــة تدفقات إنتاجية مستمرة على المستوى المحلى والإقليمى والعالمى . فمن المنتجات ما يَذْوى من جهـة ، ومنها ما يزدهر من جهة ثانية ، ومنها ما يظهر إلى الوجود ، ولم يكن موجوداً من قبل من جهة ثالثة . والواقع أن المسئولين عن عجلة الإنتاج بالمجالات المتباينة يجب أن يتمتعوا بخيال مستقبلى ، بحيث يتسنى لهم تحديد النوعيات المتباينة من الإنتاج التى سوف يحتاج إليها السوق الاستهلاكى خلال بضع سنوات مقبلة ، كأن تكون خمس سنوات مثلاً ، ثم يقومون بالتخطيط لذلك المستقبل المتوقع بحيث يواجهونه قبل حدوثه بالفعل . وبالتالى فإن حلول المنتجات الجديدة محل المنتجات التى كتب عليها أن تتلاشى لا يكون صدمة للمنتجين أو للعاملين فى المجالات الإنتاجية المتباينة . وطبيعى أن تلك التنبؤات التخيلية تستلزم تدريب العاملين الجدد على العمليات الجديدة حتى يهيأوا لأن يحلوا محل العاملين القدامى الذين سوف تنـدثر عملياتهم الإنتاجية ويستغنى عنهـا ، فلا تتوقف عجلة الإنتاج أو تتعثر .

بيد أن الخيال لا يكون ناجحاً فى مهامه على طول الخط ، بل قد يتعثر بسبب احتمال مجموعة من الأسباب التى نستطيع تلخيصها فيما يلى :

أولاً — الميول العاطفية والانحيازات الشخصية :

فمن المعروف أن العاطفة تلعب لدى كثير من الناس أدواراً مؤثِّرة قد تعوق الخيال والقدرات الذهنية الأخرى . فكم من شخص متمتع بخيال خصب ومثمر ، ولكن خياله لا يساوى شروى نقير بسبب خضوعه للانحيازات العاطفية والتقلبات المزاجية ، أو بسبب خضوعه لعاملى الحب والكراهية ، سواء بإزاء الأشخاص المنتجين ، أم بإزاء الأنشطة الإنتاجية ذاتهـا . فلقد يُعرقَل خياله ويُعاق بسبب عشقه للوسائل التقليدية التى يستخدمها فى الإنتاج ، أو لأنه لا يرغب فى أن يقسو على المشتغلين بالإنتاج ، وذلك بإحلال أشخاص آخرين محلهم لعدم صلاحيتهم للعمل وَفْق ما يترسَّمه بخياله الخصب للمواصفات التى يجب أن تتوافر لدى العاملين المنتجين .

ثانياً — جنون الخيـال وتدفقاته الشديدة :

فقد يكون الخيال أبعد شأواً من الإمكانات المتاحة ، أو قد يكون غير مقبول من جانب المنتجين فيرفضونه بالرغم من أنه خيال عظيم القيمة . فربمـا يكون المخطط الإنتاجى سابقاً لعصره بمائة سنة مثلاً ، فيرفض المنتجون ما ينتهى إليه صاحب الخيال الخصب بخياله ويتهمونه بالنَّزَق أو حتى لقد يتهمونه بالجنون والخروج عن المألوف والمتعارف عليه .

ثالثاً — ضحالة الخلفية الخِبْرية :

قد يكون الخيـال الإنتاجى عظيمـاً ولكنه لا يجد لدى المنفذين

له خلفية خِبْرية يتسنى الاستعانة بها لتنفيذه والإفادة منه ، فيكون هناك بون شاسع بين الخيال التخطيطى الإنتاجى وبين إمكانات التنفيذ ، وذلك بسبب تلك الضحالة الخِبْرية لدى المستقبلين لذلك الخيال المتجسد فى هيئة خطة قابلة للتنفيذ ، ولكن ضحالة الخبرة تحول بين المنتجين وبين تنفيذه والإفادة منه .

□ الذكاء والإنتاج :

الذكاء هو القدرة الذهنية التى تؤهل المرء للوقوف على العلاقات القائمة بين مقوِّمات الموقف ، ثم هو القدرة التى تؤهله لإقامة علاقات بين تلك المقومات لم تكن موجودة من قبل ، وهو أيضاً القدرة على فَسْخ وهدم علاقات قائمة بالفعل ، أو إدخال التعديلات عليها بتقويتها أو بإضعافها ، وهو أيضاً القدرة الذهنية التى تؤهل المرء للتنبؤ بالعلاقات المستقبلية التى سوف تنشأ فيما بين الأشياء والأحداث ، وهو أيضاً القدرة على التخطيط لتعديل تلك العلاقات المستقبلية أو لتقويتها أو القضاء عليها قبل أن تقع بالفعل ، ومعنى هذا أن ثمة علاقة وثيقة فيما بين الذكاء والتخطيط للمستقبل فى ضوء الواقع الراهن ، وفى ضوء ما سبق أن وقع من أحداث وما توافر من إمكانات ، وما تردى فيه المرء من أخطاء . فللذكاء إذن وظيفة سلوكية تصحيحية ، بل إنه يشكِّل دينامية سلوكية تعمل على تطوير حياة المرء وتوفير فرص التأثير فى الأشياء والأشخاص ، وفى إقامة وهدم علاقات شيئية أو حيوية أو اجتماعية .

وفى ضوء ما ذكرناه آنفاً نتبين أهمية الذكاء فى ممارسة العمليات الإنتاجية ، وما يضطلع به من وظائف فى تلك العمليات ، وهى الوظائف التى يمكن أن نحدد معالمها على النحو التالى :

أولا — السيطرة على مقومات الموقف :

ففى ضوء ما قدمناه من تعريف للذكاء نجد أنه بمثابة القدرة الشخصية التى تمكّن المرء من السيطرة على مقوِّمات الموقف. ونعنى بهذه السيطرة تلك القدرة التى يتسنى للمرء بواسطتها سَبْر أغوار المجهول من جهة ، والتأثير فى الواقع الخارجى الموضوعى بطريقة أو أخرى من جهة أخرى ، مع البصر بالنتائج التى سوف تتأتى عن ذلك التأثير . ولعلنا نزعم بحق أن الذكاء البشرى هو صاحب الفضل فى إرساء الحجر الأساسى للحضارة البشرية ، والتقدم بها إلى الأمام عبر العصور المتعاقبة . فلولا الذكاء ما كانت هناك حضارة . ولعلنا نشير بصفة خاصة إلى تلك القدرة التنبؤية التى يختص بها الإنسان ، وقدرته على التطلع إلى المستقبل واستشفافه له كما لو أنه حاضر أمام عينيه . فكلما كان المرء أكثر ذكاء ، وأعمق سبراً للأغوار ، كانت بالتالى قدرته على استشفاف المستقبل أقوى وأمضى وأفعل ، وأكثر تأثيراً وأمضى فعالية .

ثانياً — الاقتصاد فى بذل الجهد :

فبفضل الذكاء يتسنى اتباع سياسة اقتصادية رشيدة فيما يبذل من جهود ذهنية أو عضلية أو مالية فى ممارسة الأنشطة الإنتاجية . وبتعبير آخر فإن الذكاء يوفر الكثير من الجهد الذى كان ليبذل اعتباطاً وبغير خطة ذهنية واضحة المعالم . وبتعبير آخر فإن الذكاء يوفر لصاحبه الحصول على أكبر عائد من بذل جهده بأقل كمية من ذلك الجهد ، مع الارتفاع بمستوى ثمار ذلك الجهد المبذول إلى أعلى مستوى ممكن . فكلما كان المرء أعلى ذكاء وأمضاه ، فإن الفاقد من جهده يكون أقل كماً ، كما أنه لا يستحيل إلى عبد للمحاولة والخطأ دون استبصار

بمقومات الموقف الراهن من جهة ، ودون بصر بما يمكن أن يتأتى عن جهوده المبذولة من ثمار من جهة أخرى . فالشخص الذكى لا ينخرط فى المحاولة والخطأ بغير بصر بالموقف ، أو وهو تحت رحمة المصادفات السعيدة ، بل إنه يضع نُصْبَ عينيه مجموعة من الخيارات أو النتائج المحتملة ، وعلى أساسها يبدأ فى بذل جهوده بالمحاولة الخطأ فى أضيق نطاق ممكن . وموقفه هذا يختلف جذرياً عن موقف الشخص ضعيف الذكاء الذى لا يستطيع أن يضع نصب عينيه مجموعة من الخيارات ، وحتى إذا تسنى له ذلك فإنه لا ينجح فى الوقوع على الخيارات الجيدة التى يتسنى له الخيار من بينها بالمحاولة والخطأ ، فتكون النتيجة أنه يتخبط ولا يحصل على النتائج المرجوة من جهوده المبذولة .

ثالثاً ــ التطوير المستمر للإنتاج :

لا يقتصر عمل الذكاء على التنبؤ بما سوف يكشف عنه المستقبل من علاقات ، بل يمتد بهذا التنبؤ إلى عملية أخرى هى عملية التجويد والتطوير المستمرين حتى تتقدم عجلة الإنتاج كماً وكيفاً . فالشخص الذكى لايتسم بالقناعة بإزاء ما تم التوصل إليه من إنتاج، بل هو طموح دائماً إلى إنتاج أكثر وأفضل، وهذا لا يتأتى له إلا بالتقييم المستمر لما تم إنجازه من إنتاج ، والكشف عن المزايا والعيوب التى يتصف بها ذلك الإنتاج الذى حققه . فسيطرة الذكاء على الواقع الإنتاجى تعنى التقـدم به إلى الأمام وعدم الركون إلى ما تم تحقيقه بالفعل . والواقع أن الفرق بين الشخص الذكى وبين صاحب الذكاء المنخفض يتبدى فى مدى ما يرضى به كل منهما بما تم له إنتاجه . فالشخص الذكى شخص طُلَعة ، أما الشخص صاحب الذكاء المنخفض فإنه يتقوقع فى قمم الإنتاج الذى حققه ، بل إنه يستمر فى الإحساس بأن ما تم له إنتاجـه

هو أعلى وأفضل ما يتسنى بلوغه . وأكثر من هذا فإن صاحب الذكاء المنخفض يستمر فى تمجيد القدماء بإزاء ما تم لهم إنتاجه ، بينما يحس بالقصور والعجز عن مجاراتهم أو الارتفاع إلى قامتهم الإنتاجية . من هنا فإنك تجد ذلك الشخص صاحب الذكاء المنخفض شخصاً رجعياً ، فيعتقد أن الماضى وما تضمنه من إنجازات ، أفضل من الحاضر وما يعج به من تدفقات حضارية راهنة ، بل وأفضل من المستقبل وما سوف يتم تحقيقه فيه من أحلام مستقبلية .

□ الحدس والإنتاج :

الحدس قدرة عقلية تعتمل فى الأنشطة المتباينة التى يضطلع بها الإنسان — بل وبعض الطيور والحيوانات — بغير استناد إلى ركائز معرفية ، ودون المرور فى خطوات أو مراحل متتابعة تبدأ بالأسباب أو المقدمات وتنتهى إلى النتائج التى تُفْضى إليها تلك الأسباب أو المقدمات . ولعلنا نقوم باستعراض بعض من الأنشطة التى يتبدى فيها الحدس على النحو التالى :

أولاً — تمييز الأشكال والأحجام والألوان :

فنحن عندما نكون بإزاء الواقع من حولنا وما يعج به من أشياء وأحياء وأشخاص متلبسين بأشكال وأحجام وألوان ونسب متباينة ، فإننا نميز فيما بين تلك الأشكال والأحجام والألوان والنسب دون أن نمر فى خطوات عقلية ، بل ننتهى إلى ما نصدره من أحكام ذهنية دفعة واحدة .

ثانياً — التعبير عن المعانى والمشاعر بالكلام أو الإشارات :

فعندما نتكلم أو نعبر عما نحس به من مشاعر وجدانية ، فإننا نقع

على الألفاظ مباشرة دون أن نمر فى مرحلة إلباس المعنى باللفظ أو الألفاظ المناسبة له والتى تعبر عن حقيقته . وحتى فى مجال الكتابة بالنسبة لمن يشتغلون بالكتابة ، كالمفكرين والأدباء ، فإنهم يستعينون بالحدس فى الكثير مما يقومون بتدبيجه . ولقد يفسر بعضهم الحدس بالإلهام فيذهب إلى أن قوة غيبية تلهمهم بما يقومون بكتابته، وحتى إذا كان ما يذهبون إليه هو حقيقة إلهامية بالفعل ، فإن الإلهام ينصب على المضمون الذهنى ولا ينصب على إلباس ذلك المضمون بما يناسبه من كلام . فحلقة الصلة بين المعانى والمشاعر من جهة ، وبين ما يعبر به المرء عن تلك المعانى أو المشاعر من جهة أخرى هو المنوط بالحدس ، أى أنه لا يوجد تدرج أو مراحل أو خطوات فيما بين الفكرة أو الشعور الوجدانى وبين ما يرتديانه من ألفاظ . وما يسمى بالعادات ، إنما هو فى الواقع حدس انبثاقى — إذا صح التعبير . فالعادة التى تمكِّن الكاتب أو المتكلم من الكتابة السليمة أو من النطق الخالى من الاعوجاج أو الانحراف عن النطق السليم فيما يبين عنه شفاهاً ، إنما هى قفزة لا يمر فيها المرء بخطوات . فهى بهذا الاعتبار عبارة عن حدس . فأنت تكتب أو تتكلم دون أن تمر فى مراحل ذهنية، ودون أن تُعْمل فكرك بتركيز دقيق فيما تقوم بكتابته أو النطق به .

ثالثاً — الكشف عن حقائق جديدة والقفز إلى النتائج الصحيحة :

فالكثير من الحقائق التى قام العلماء بالكشف عنها ، كان بطريق الحدس . وأكثر من هذا فإن لدى بعض الناس قدرة حدسية تسمح لهم بالقفز فى حلِّهم للعمليات الحسابية المعقدة إلى النتائج الصحيحة مباشرة دون الوقوع فى الخطأ . ناهيك عن أن التجارب والتطبيقات الخاصة بالتنويم المغنطيسى قد كشفت النقاب عن أن الشخص المنوَّم

مغنطيسياً ، يكون أكثر قدرة على استخدام الحدس منه هو شخصياً وهو غير خاضع للتنويم . ففى أثناء التنويم تجد أنه يقدم الإجابات الصحيحة عما يطلب منه القائم بالتنويم القيام بحله بمجرد سماعه من مسائل حسابية معقدة . (انظر كتابنا المترجم « التنويم المغنطيسى : ما له وما عليه ») .

رابعاً — سبر أغوار الآخرين :

وبالحدس يتسنى لبعض الموهوبين أن يسبروا أغوار من يتعاملون معهم من أشخاص . فالتاجر صاحب الحدس السابر للأغوار يستطيع أن يميز بواسطته بين الزبون الجاد وبين الزبون الذى يتسلى أو يضيِّع وقته فى التردد على المحال التجارية . ورجل الشرطة المتمتع بقدرة حدسية قوية، يستطيع أن يميز بين الشرفاء وبين الخارجين على القانون بمجرد التحديق فى وجوههم أو مراقبة ملامحهم وما يصدرونه من حركات.

خامساً — تحديد الأهداف وتجديدها :

والشخصية المتمتعة بقوة حدس دقيقة ، تستطيع أن تقوم بتحديد أهدافها بدقة ، بل إنها تستطيع أن تقوم بتفريخ أهداف جديدة يشار إليها بالبنان ، وتتأتى عنها نتائج عظيمة .

وبعد أن قمنا بتقديم هذه المجالات التى يعتمل فيها الحدس ، فإن علينا أن نقوم بإلقاء الضوء على الوظائف التى يضطلع بها الحدس فى الإنتاج والوظائف هى :

أولاً — إقامة وشائج متينة فيما بين الواقع الذى يمارس به الإنتاج وبين المرء :

فالعمليات الذهنية التى يتم بها التكيف والتواؤم فيما بين الواقع

المحسوس الذى يتم فيه الإنتاج أو بواسطته ، وبين ما لدى المرء من فكر ووجدان وإرادة ، هى عمليات حدسية فى طبيعتها . ذلك أن ذلك التكيف أو التواؤم لا يتم عن قصد من جانب المرء وبغير تدبير أو تخطيط ، بل يتم طفرياً بقوة الحدس . وحتى ما يسمى بالمواهب التى تدفع بالمرء إلى الانتحاء إلى ما يناسبها من أنشطة فى الواقع الخارجى ، فإنها تستعين بالحدس فى عملية التزاوج مع ما يناسبها من أنشطة .

ثانياً — الحذف والإضافة فى الممارسات الإنتاجية :

ويتبدى الحدس فيما يسمى بتجويد الإنتاج . فالمرء وهو منخرط فى أداء العمليات الإنتاجية ، يكتشف جوانب جديدة يرى لزاماً عليه أن يضيفها إلى العمليات التى يمارسها ، كما يكتشف جوانب أخرى يجب عليه حذفها واستبعادها . ولا تتم تلك العملية التى يضيف بها خطوات أو عمليات جديدة ويحذف خطوات أو عمليات أخرى عن طريق مقدمات أو وَفْقاً لخطوات عقلية يمر بها ، بل ينتهى إليها بطفرة واحدة ، أعنى بالحدس .

ثالثاً — اكتساب العادات والخبرات اللاشعورية :

ويتبدى الحدس أيضاً فيما يتم لدى المرء من اكتساب للعادات المتباينة ، ونعنى هنا العادات الإيجابية أو المفيدة ، كما أننا لا نقصد ممارسة العادات ، بل نقصد اللحظة التى يتم فيها اكتساب العادة ، كقيادة السيارة أو العزف على إحدى الآلات الموسيقية ، أو عادة العوم ، أو عادة التأليف على لوحة مفاتيح الكومبيوتر ، أو غير ذلك من عادات . إن تلك اللحظة التى تقع فيما بين التدرب على الممارسة وبين اكتساب العادة هى لحظة حدسية . وبتعبير آخر فإن الجهاز العصبى

ينتقل بنشاطه من المستوى الشعورى الواعى إلى المستوى شبه اللاشعورى طفرة واحدة بواسطة الحدس ، أعنى الاكتساب الطفرى بغير مرور فى خطوات أو مراحل أو عمليات ، وبغير تدرج . ومن الطبيعى أن هذا ينسحب بإزاء العمليات الإنتاجية التى تعتمد على التدريب . فالتدريب نفسه لا يدخل فى نطاق الحدس ، ولكن الذى يدخل فى نطاقه هو الانتقال الطفرى من المستوى الشعورى إلى المستوى شبه اللاشعورى فى الممارسة الأدائية .

رابعاً — الإبداع فى المجالات الإنتاجية المتباينة :

فالواقع أن الشخص المبدع فى المجال الذى يعمل به يستعين بالحدس فيما يقوم بإبداعه . ولعلنا نزعم بحق أن الحضارة البشرية قد استعانت بالحدس منذ قيامها . فأول فأس قام الإنسان البدائى بابتكارها ، كان ابتكاره لها بواسطة الحدس . وكذا الحال بإزاء أول شعلة استحدثها الإنسان ، أو أول شعلة قام بتطويعها لأهدافه وفائدته . إنه أشعلها مستعيناً فى ذلك بالحدس .

خامساً — التمييز بين الخير والشر ، وبين الفائدة والضرر :

فالإنسان منذ بداوته الأولى وهو يقوم بعمليات تقييم للأنشطة التى يضطلع بها أو يضطلع بها غيره ، فيضم بعضها تحت قائمة الخير ، بينما يضم بعضها الآخر تحت قائمة الشر ، كما أنه يضم بعضها تحت قائمة الفائدة وبعضها الآخر تحت قائمة الضرر . وإذا اعترض معترض على كلامنا هذا بأن الخير والشر والفائدة والضرر قد تحددت عن طريق التجربة وحدها ، فإننا نستعين بذكر ما لدى الكثير من الطيور ، والأسماك

والحيوانات من حدس تقف به على ما يفيدها وما يضرها . فالعصفور يخاف من الحية بالحدس ، وهو الذى لم يمر فى تجربة سابقة تبصّره بالخطر الذى يتهدده . فعلى هذا النحو بدأ الإنسان البدائى بالتمييز بين المفيد والضار ، وأيضاً بين الخير والشر . أما التجارب والمواقف العملية فقد كانت بمثابة عوامل مساعدة للتقدم بمعايير الخير والشر ، والفائدة والضرر خطوات حثيثة إلى الأمام .

* * *

الفصل الخامس
الوجدان والانتاج

□ المحاور الوجدانية والإنتـاج :

من الحقائق التى يجب ألا تعزب عن البال أن الوجدان عبارة عن طاقة نفسية عامة يمكن توجيهها وبلورتها حول محاور موضوعية أو ذاتية فتستحيل تلك الطاقة عن طريق ذلك التبلور إلى عواطف ثابتة نسبياً . ومعنى هذا أن العاطفة ـ أياً كانت ـ إنما هى وجدان تم له التبلور حول محور معين فاستحال بذلك من العمومية إلى الخصوصية ، وبالتالى فقـد صارت له هوية يعرف بها ويتميز بواسطتها من باقى الوجدانات التى تم لها التبلور حول محاور أخرى ، فصار لكل منها هوية قائمة برأسها مباينة لغيرها من وجدانات متبلورة .

والتبلور الوجـدانى الذى يسـتحيل الوجدان بمقتضاه إلى عاطفة ، يمكن أن يكون تبلوراً إيجابياً ، فتتأتى نتيجة ذلك عاطفة حب للموضوع الذى تم التبلور الإيجابى حوله، كما يمكن أن يكون التبلور سلبياً، فتتأتى عن ذلك عاطفة كراهية للموضوع الذى تم التبلور السلبى حوله .

وإذا نحن طبّقنا هذه الفكرة بإزاء الإنتاج وما يوكل إلى المـرء من أنشطة إنتاجية ، فإننا نجد أن الشخص المشتغل بالإنتاج يمكن أن يكون وجدانه متبلوراً بالإيجاب أو بالسلب حول الأنشطة الإنتاجيـة التى يضطلع بها ، فيكون محباً للعمل الذى يشارك فيه ، أو يكون كارهاً له . ولعلنا نتساءل بهذه المناسبة عن العوامل المسئولة عن توجيه التبلور

حول المحاور الإنتاجيـة ، وما يمكن أن يتـأتى عن ذلك من حب أو من كراهية للعمل الإنتاجى ، فنجد أن تلك العوامل يمكن أن تتحدد على النحو التالى :

أولاً — الارتباط الشرطى :

فقد قام (بافلوف) الروسى بالكشف عن الارتباط الشرطى بصدد تجاربه التى أجراها على الكلاب . فوجد أن صوت الجرس الذى يصاحب تقديم الطعام إلى الكلب يمكن أن يعمل وحده على إسالة لعابه دون أن يقدم الطعام نفسه الذى يسيل لعابه ، وذلك إذا ما صاحب صوت الجرس تقديم الطعام أمامه . فتلك المصاحبة تعمل على نقل الاستجابة من رائحة الطعام أو شكله ، أعنى سيلان اللعاب ، إلى صوت الجرس الذى يكتسب قوة التأثير التى يحدثها منظر الطعام أو رائحته التى تسيل لعاب الكلب . فأطلق (بافلوف) اسم المثير الأصلى على الطعام ، واسم المثير الشرطى على صوت الجرس . وبالتالى فإن سيلان اللعاب نتيجـة تقديم الطعام تسمى الاستجابة الطبيعية ، بينما تسمى الاستجابة المتمثلة فى سيلان اللعاب بواسطة صوت الجرس دون تقديم الطعـام معـه بالاستجابة الشرطية . ولقد امتد (واطسون) الأمريكى بمبدأ الاستجابة الشرطية إلى جميع المناحى النشاطية التى يضطلع بها الإنسان أو الحيوان بما فى ذلك القطاع الذهنى والقطاع الوجدانى والقطاع الاجتماعى ، أعنى العلاقات الاجتماعية . وفى ضوء الارتباط الشرطى فإننا نستطيع أن نقول إن المشتغل فى أى عمل إنتاجى يمكن أن يكتسب استجابات إيجابية بالحب ، واستجابات سلبية بالكراهية بإزاء جانب أو أكثر من جوانب نشاطه الإنتاجى ، سواء وهو فى مرحلة التدريب أم وهو فى أثناء ممارسته للعمل فى سياق حياته العملية .

ثانياً — مدى قدرة العامل على التكيف لمطالب العمل الإنتاجى :

ومن العوامل التى تؤدى إلى بلورة الوجدان إيجابياً أو سلبياً حول المحاور الإنتاجية ، أعنى الإحساس بحب العمل أو كراهيته ، مايستشعره المرء من مدى قدرته على التكيف لمطالب العمل الإنتاجى الذى يتدرب عليه أو الذى أوكلت إليه ممارسته بالفعل . والواقع أن التكيف لأى نشاط عملى إنتاجى يتضمن مجموعة من الزوايا لا زاوية واحدة فقط .

خذ مثالاً لذلك بمهنة المحاماة . إنها لا تتضمن زاوية الإلمام بالقوانين فحسب ، بل تتضمن أيضاً مجموعة من الزوايا ، منها التمكن من التعبير بالكلمة المنطوقة والكلمة المكتوبة عن القوانين التى يجب أن يكون المحامى قد هضمها هضماً جيداً ويقوم بتوظيفها أمام النيابة والقضاء . ناهيك عن الهيئة العامة للمحامى ومدى تقبل الزبائن لشخصيته وانسجامه مع الواقع الاجتماعى الذى يعمل فى نطاقه ، إلى آخر تلك الزوايا التى يجب أن تتوافر له حتى يتسنى له النهوض بمهامه كمحام ناجح ، فلقد يتكيف أحد الطلبة بكلية الحقوق للدراسات القانونية ويستوعبها ، ولكنه يجد نفسه غير كفء للترافع أمام القضاة ، فيحس بكراهية مهنة المحاماة. فبينما تتبلور وجداناته إيجابياً حول الدراسات القانونية ، فإن وجداناته تتبلور سلبياً حول ممارسة مهنة المحاماة ذاتها ، وذلك بسبب شعوره بعدم القدرة على التكيف للممارسات التى تتطلبها هذه المهنة فى الواقع العملى بالمحاكم .

ثالثاً — عوامل التشجيع وعوامل التثبيط :

ومن عوامل بلورة الوجدان بالإيجاب أو بالسلب حول المحاور المختلفة المتعلقة بالعمل الإنتاجى الذى يضطلع به المرء ما يصادفه فى ممارساته

الإنتاجية من نجاح أو فشل . فثمة مواقف تعمل على الارتفاع بمعنوية المرء ، بينما هناك مواقف أخرى تعمل على الحط من تلك المعنوية . فالمواقف المشجِّعة تعمل على تبلور الوجدان بالإيجاب . أعنى بالحب حول تلك المحاور الإنتاجية التى حققت له النجاح ، بينما تعمل المواقف المثبِّطة للهمة على تبلور الوجدان بالسلب ، أعنى بالكراهية ، حول تلك المحاور الإنتاجية التى لاقى بصددها الصدمات النفسية التى يمكن أن تشكل عُقداً نفسية يصعب تخلصه منها .

رابعاً — مدى تمتع شخصية العامل بالتكامل :

ونعنى بالتكامل قيام الجوانب المتباينة من شخصية المرء بوظائفها التى ترمى إلى التعاون مع الكل فى سبيل التوصل إلى تحقيق هدف عام وعدم الاكتفاء بالقيام بالعملية الجزئية المنوطة بذلك الجانب وحده . فمن المحتم أن يتم التكامل فيما بين النشاط الحركى والعصبى والجسمى بصفة عامة مع النشاط العقلى ، والنشاط الوجدانى ، والنشاط الإرادى المهارى ، والنشاط الإرادى العلائقى ، فإذا ما تحقق التكامل بين جسم المرء وفكره ووجدانه وما اكتسبه من مهارات يدوية أو من مهارات علائقية اجتماعية ، فإنه يكون خليقاً عندئذ بأن تتشكل لديه تلك المحاور الإيجابية . ولكنه إذا افتقد ذلك التكامل بين تلك القطاعات الخمسة من شخصيته ، فإنه يكون عندئذ عاجزاً عن بلورة وجدانه حول المحاور الخمسة جميعاً ، أو قل إنه يبلور وجدانه إيجابياً حول قطاع أو أكثر من هذه القطاعات الخمسة ، بينما يبلور وجدانه سلبياً حول بعضها الآخر فيصاب عندئذ بالتناقض الوجدانى ، وبالتالى فإنه يعجز عن ممارسة عمله الإنتاجى بنجاح وكفاءة .

خامساً — مدى قدرة المرء على التجديد :

فالواقع أن الإنسان كائن مَلُـول . فشأنه فى حياته الإنتاجية وهو راشـد كشأنه تمـاماً أيام كان طفلاً صغيراً . والطفـل يفرح بالدمية الجديدة وبالملابس الجديدة ، ولكنه بعد وقت قصير يحس بالسأم تجاه الشيء نفسه الذى كان يبعث الفرح فى قلبه . كذا الحال بإزاء المحاور الإيجابية . إنها لا تظل إيجابية باستمرار ، بل يعلوها الصدأ النفسى — إذا صح التعبير — ويصير المرء زاهداً فيها ونابياً بقلبه عنها . فإذا لم تتجدد الموضوعات الإنتاجية ووسائل أدائها باستمرار ، فإن العامل المشتغل بها يفقد حماسه لها. وبتعبير آخر فإن المحاور الإيجابية لديه تستحيل إلى محاور سلبية ، فيكره العمل الإنتاجى الذى كان يحبه ويتعشقه . ونذكر التكيف بهذه المناسبة مرة أخرى ، ونخص بالذات التكيف للتطورات التكنولوجية المتدفقة حول المرء فى أى مجال إنتاجى يعمل به ويشتغل فيـه ويساهم فى أدائه . فما لم يقم بمواكبة تلك التطورات الحضارية ، فإنه يحس بالتخلف والتقوقع حول بؤر إنتاجية عفا عليها الزمن وزهدت فيها الحضارة وتخطتها .

□ النضوب الوجدانى والإنتـاج :

نقصـد بالنضوب الوجدانى مجموعة من الحالات التى يمكن أن تعتور حياة المرء وتؤثر بالتالى فى العمليات الإنتاجية التى يضطلع بها . ولعلنا نقدم فيما يلى تلك الحالات :

أولا — فتور الحماس للعمل الإنتاجى :

فالشخص المصاب بالنضوب الوجدانى يجد نفسه زاهداً فى ممارسة العمل الإنتاجى الذى كان يقبل عليه بهمة ونشاط وإقبال قبل إصابته

به . ولقد يكون مرد ذلك النضوب الوجدانى إلى أسباب صحية أو إلى أسباب نفسية ، أو لأن العمل الإنتاجى نفسه قد فقد مصداقيته وصار من ركامات الماضى التى ينبغى التخلص منها وإحلال أنشطة إنتاجية حديثة محلها .

ثانياً — إنفاق الطاقة الوجدانية فى أنشطة غير إنتاجية :

فالواقع أن لدى كل إنسان قدراً من الطاقة لا يتعداه . فإذا هو أنفق الغالبية العظمى من تلك الطاقة فى أنشطة مباينة للنشاط الإنتاجى الذى يحتل المركز الأول بين أنشطته من حيث مدى أهميتها ، فإنه لا يجد لديه ما يكفيه من تلك الطاقة لتوجيهها وإنفاقها فى نشاطه الإنتاجى . خذ مثالاً لذلك بالعالم الذى كان يوجه طاقته الوجدانية إلى المجالات العلمية التى كرس نفسه وجهده لها ، ولكنه وقع أسيراً لحب إحدى النساء ، وبالتالى فإنه صار يوجه معظم طاقته الوجدانية إلى تلك المرأة التى أغرم بها وملأت عليه حياته . إنه وهو على هذه الحال من الغرام لا يجد فى قوامه القدر الكافى من الطاقة الوجدانية التى يمكن أن يوجهها إلى أبحاثه العلمية ، وبالتالى فإنه يكون قد أصيب بالنضوب الوجدانى بإزاء ما يلزمه من طاقة وجدانية تنفق فى بحوثه وتجاربه العلمية .

ثالثاً — الإصابة بالشيخوخة :

على الرغم من أن معظم الناس يحصرون مفهوم الشيخوخة فى المرحلة العمرية الأخيرة ، أعنى التقدم فى السن ، فإن الواقع أن الشيخوخة مرض يمكن أن يصيب المرء فى أى مرحلة عمرية بما فى ذلك مرحلة الطفولة ، ولكن حيث إن التقدم فى معارج العمر يتواكب فى الغالب مع ذلك المرض ، فإن الناس قد ربطوا ربطاً يكاد يصل إلى حد التطابق

بين هذا المرض وبين التقدم فى السن . ولكن الشواهد تؤكد أن التقدم فى السن لا يتواكب دائماً وحتماً مع مرض الشيخوخة ، فثمة أشخاص تجاوزوا سن السبعين ولا يزالون يتمتعون بالطاقة الوجدانية المحتدمة بدخائلهم ، فيستمرون فى النهوض بأنشطتهم الإنتاجية على أتم وجه وبحماس كامل دون أن يصيبهم الفتور أو التقاعس أو الارتماء فى حمأة الكسل وعدم الإنتاج . ولكن الشخص الذى يصاب بالشيخوخة فى أى عمر ، يكون بالتالى ناضباً وجدانياً ، الأمر الذى ينعكس على نشاطه الإنتاجى الذى يَضْمر ولا يستطيع أن يتجاوز مستوى الطاقة الوجدانية الضامرة التى بقيت فى قوامه (انظر كتابنا « رعاية الشيخوخة ») .

رابعاً — عدم تجديد الأهداف :

فالمرء الذى لا يجدد أهدافه الإنتاجية باستمرار ، يكون بالتالى قد حكم على نفسه بالنضوب الوجدانى . ذلك أن عدم تجديد الأهداف يعنى استهلاك الطاقة الوجدانية الموجودة وعدم إحلال طاقة وجدانية جديدة محل الطاقة الوجدانية المستهلكة . ومعنى هذا أن عدم تجديد الأهداف الإنتاجية يعنى فى الوقت نفسه الإصابة بالنضوب الوجدانى .

خامساً — فقدان الثقة بالنفس :

ومن عوامل نضوب الطاقة الوجدانية فقدان المرء لثقته بالنفس . ولعل من أهم عوامل فقدان الثقة بالنفس الفشل فى المساعى الإنتاجية . فالطبيب الذى يفشل فى علاج عدد كبير من المرضى الذين يقوم بعلاجهم ، بل يموتون أو تتدهور حالتهم الصحية برغم تنفيذ أوامره الطبية والالتزام بوسائل العلاج التى يصفها لهم ، فإنه يصاب على الأرجح بالنضوب الوجدانى بإزاء ممارسة مهنة الطب . ذلك أنه يحس بالإفلاس

فى مساعيه الإنتاجية المتمثلة فى الوصول بالمرضى إلى بر الشفاء والعافية . ولكن حيث إنه لا ينجح فى هذا الصدد ، فإنه يصاب بفقدان الثقة بنفسه وبفقدان جانب كبير من طاقته الوجدانية ، أى أنه يصاب بالنضوب الوجدانى .

على أن الكثير من الأشخاص الذين يصابون بالنضوب الوجدانى يستعيدون نشاطهم الإنتاجى من جديد ، وذلك باتخاذهم وسيلة أو أكثر من الوسائل الآتية :

أولاً ــ الاعتكاف والرجوع إلى الذات :

فمن الحقائق النفسية التى يجب ألا تعزب عن البال أن الإنسان السوىّ والمنتج هوذاك الذى يحقق توازياً وتوازناً فيما بين واقعه الخارجى وبين واقعه الداخلى ، أعنى قوامه النفسى . فإذا ما انكب المرء على الواقع الخارجى وفقد اتصاله بعالمه الداخلى ، فإن ذلك الانكباب يعرِّضه بعد وقت يقصر أو يطول للإصابة بالنضوب الوجدانى . فمن عوامل تجديد الطاقة الوجدانية الرجوع إلى الذات بالاعتكاف . فلعل الانقطاع مؤقتاً عن الواقع الخارجى يساعد المرء على استرجاع طاقته المفقودة وعلى تجديدها والمشاركة بنشاط وافر فى الممارسات الإنتاجية (انظر كتابنا المترجَم « الاعتكاف : عودة إلى الذات ») .

ثانياً ــ تغيير وسائل الإنتاج :

فمن عوامل تجديد الطاقة الوجدانية والتخلص من النضوب الوجدانى المسارعة إلى تغيير الوسائل والطرائق التى ينفذ بها المرء عمله الإنتاجى . فالطبيب الذى يحس بالنضوب الوجدانى فى ممارسة عمله ، إذا ما عمد إلى تجديد عيادته واستبدل بالأجهزة الطبية العتيقة أجهزة حديثة ،

مع ما يتطلبه ذلك التجديد من تدرب على استخدام تلك الأجهزة التي تماشي العصر ، فإنه يحس بالنشاط الوجداني يدب في جوانبه ، وقد تخلص مما كان يحس به من نضوب وجداني .

ثالثاً — رعاية المرء لنفسه صحياً ونفسياً :

فلقد يحدث النضوب الوجداني بسبب الأزمات الصحية الجسمية أو النفسية . فإذا ما التفت المرء إلى حالته الصحية وتخلص من عوامل المرض أو الفتور النفسي الذي يكون قد نجم عن أسباب نفسية ، كالقلق والإحساس باليأس أو الاكتئاب ، فإنه يسترجع إذن نشاطه الوجداني ويمتلىء بالحماسة ولا يكون معرّضاً بعد ذلك للإصابة بالنضوب الوجداني .

□ التفجر الوجداني والإنتاج :

نقصد بالتفجر الوجداني مجموعة من المعاني التي نستطيع تقديمها على النحو التالي :

أولاً — امتناع الهَدَفية :

فالواقع أن المسيرة السوية للوجدان تتصف بالخضوع لهدف محدد يترسمه عقل المرء . ولكن إذا لم يخضع الوجدان للعقل ، وبالتالي لا يخضع للهدف أو للأهداف التي يترسّمها المرء بعقله ، عندئذ يكون الوجدان متفجراً لغير ما هدف ، فهو يكون عندئذ كالبركان الذي لا يخضع لمشيئة الإنسان أو لخدمة أهدافه ، بل يكون مستقلاً عن تلك الأهداف ، فيكون تفجره غير هادف على الإطلاق .

ثانياً — عدم التبلور الوجداني :

فالوجدان بمثابة الخامة التي تصنّع منها العواطف المتباينة ، سواء كانت عواطف حب أم عواطف كراهية . فإذا ما لم يتم تبلور الوجدان ،

فإن انبعاثه يكون عبارة عن تفجر وجدانى غير مصنَّع فى هيئة عواطف .

ثالثاً — استهلاك كمية من الوجدان أكثر من المطلوب للنشاط المستهدف :

فمن المعروف أن كل نشاط ينخرط فيه المرء بحاجة إلى كمية معينة من الوجدان يجب ألا يزيد عنها أو ينقص . فإذا كان المستهلَك من الوجدان فى سبيل الاضطلاع بنشاط معين أكثر مما يتطلبه ذلك النشاط ، عندئذ ننعت ما يستهلكه المرء من وجدان بأنه تفجر وجدانى .

رابعاً — ما يتواكب مع المكبوتات اللاشعورية من وجدان :

ففى أثناء الأحلام وأحلام اليقظة وفى حالة سيطرة الهموم على الأفق النفسى للمرء ، فإن كميات كبيرة من الوجدان تستهلك فيما ينغمس فيه المرء من حالات نفسية لا شعورية أو شبه لا شعورية . وما يتم استهلاكه من الوجدان فى تلك الحالة ينعت بأنه تفجر وجدانى .

خامساً — فى حالة الانخراط فى الانفعالات :

فعندما ينخرط المرء فى انفعال ما من الانفعالات المتباينة ، وبخاصة انفعال الغضب وانفعال الخوف وانفعال الشهوة ، فإنه عندئذ يستهلك كمية كبيرة من الوجدان ، ويكون انفعاله منخرطاً فى نطاق التفجر الوجدانى .

وبعد أن قدمنا هذه المعانى الخمسة لما نقصده بالتفجر الوجدانى ، فإن علينا أن نلقى بالضوء على علاقة هذا التفجر الوجدانى بالإنتاج ، فنجد أن تلك العلاقة تتمثل فيما يلى :

أولاً — ضعف التركيز الذهنى :

فطالما أن الوجـدان يسيطر على مقاليد الفكر فى حالة التفجر الوجدانى ، فإن الهدف من الإنتاج أو من الانخراط فى النشاط الإنتاجى يضيع من ذهن المرء ، أو بتعبير آخر فإن المرء يفقد معالم الطريق المفضى إلى الإنتاج السديد .

ثانياً — فتور الهمـة بعد الحماس الزائد :

ففى حالات التفجر الوجدانى ، فإن المرء يستهلك أكبر قدر من طاقته الوجدانية فى المراحل الأولى من العمل ، ثم ما يفتأ أن يخور ويفقد حماسه وإقدامه على بذل الجهد ومداومة النشاط . وهذا ما يتبدى عند كثير من الناس الذين يبتلون بالتفجر الوجدانى ، فتجدهم يتحمسون جداً للعمل أو للتخطيط للأنشطة التى يترجون النهوض بها ، ولكنهم ما يفتأون يفترون وتنهار قدرتهم على الاستمرار فى بذل النشاط .

ثالثاً — التذبذب بين أنشطة متباينة :

ومن أعراض التفجر الوجدانى ما يتبدى لدى المرء من تذبذب بين أنواع متباينة من النشـاط . فهو لا يستمر فى النهوض بالنشاط حتى تتحقق أهدافه ، بل ينتقل من نشاط إلى آخر ، أو قل إنه يقدِّم رِجْـلاً ويرجع بأخرى . والسبب فى ذلك هو أنه يوزع نشاطه على أكثر من جبهة واحدة على التوالى ، فيكون حماسه متقطعاً بالنسبة للنشاط الواحد .

رابعاً — الشعور المبكر بالإرهاق والنَّهْـكة :

فلقد يتأتى عن التفجر الوجـدانى نضوب الطاقة الوجدانية ، فيكون المتبقى منهـا أقل من الواجب توافره حتى يتسنى الاستمرار فى النشاط الإنتاجى على المستوى نفسه . ومن الطبيعى أن يترتب على نضوب

الوجدان إحساس المرء بالإرهاق والتعب الشديد ، على الرغم من أن طبيعة العمل الذى يضطلع به لا تستدعى مثل ذلك الإحساس . ولكن الواقع أن نضوب الوجدان أو انخفاض مستواه عن الحد المعقول هو العامل الذى يؤدى إلى الإحساس بالتعب والخور وعدم القدرة على الاستمرار فى العمل بنشاط وفاعلية .

خامساً — التوقف التام عن الإنتاج :

فى الحالات التى يدأب فيها المشتغل بالإنتاج على التفجر الوجدانى وهو فى حالة لا شعورية أو شبه لا شعورية ، فإنه لا يجد لديه فائضاً من الوجدان لبذله فيما يتسنى له استهدافه من أنشطة . إنه كلما ترسَّم هدفاً إنتاجياً يترجى تحقيقه ، فإنه لا يجد لديه ما يبذله من وجدان . ومن المعلوم أن الوجدان هو الطاقة التى تعتمل فى قوام المرء حتى يتسنى له القيام بالأعمال الإنتاجية المتباينة .

ولعلنا نتساءل فى نهاية المطاف عن العوامل التى تؤدى إلى ذلك التفجر ، فنجيب فى نقاط مختصرة بما يلى :

أولاً — ما تفرضه المرحلة العمرية التى ينخرط فيها المرء من نشاط وجدانى :

فمن المعروف أن لكل مرحلة من مراحل العمر خصائص بيولوجية ونفسية معينة . ففى الطفولة والمراهقة والشباب ، تكون التفجرات الوجدانية كبيرة نسبياً مع اعترافنا بوجود فروق فردية بين الأفراد . ولكن بصفة عامة فإن الطفولة توصف بأنها أكثر تعرضاً للتفجر الوجدانى من المراهقة ، وأن المراهقة أكثر تعرضاً للتفجر الوجدانى من الشباب ، وأن الشباب أكثر تعرضاً للتفجر الوجدانى من الكهولة ، وأن الكهولة أكثر تعرضاً للتفجر الوجدانى من الشيخوخة .

ثانياً — مسئولية الجهاز العصبي والغدد الصماء :

فالواقع أن الجهاز العصبي المكون من المخ والمخيخ والنخاع الشوكى ، وكذا الغدد الصماء وما تقوم بإفرازه من هورمونات فى الدم مباشرة مسئولان عن مدى تمتع المرء بالاتزان الوجدانى وما قد يتعرض له من تفجرات وجدانية فى حالة عدم سوية البنية البيولوجية للجهاز العصبي والغدد الصماء .

ثالثاً — الخبرات المترسّبة فى اللاشعور :

فكلما اشتد ضغط اللاشعور على جدار الشخصية — إذا صح التعبير — فإن المرء يكون أكثر عرضة للتفجر الوجدانى .

□ التذبذب الوجدانى والإنتاج :

نقصد بالتذبذب الوجدانى مجموعة من المعانى التى نستطيع تقديمها على النحو التالى :

أولاً — التقلب فيما بين التدفق الوجدانى والفتور الوجدانى :

فالشخص الذى تجده متحمساً أشد الحماس بإزاء أحد الأنشطة ، ثم ما يفتأ بعد بدئه فى ممارسته ، وقد دب الفتور فى أوصاله ، وصار زاهداً فيه ونابياً عنه ، ونافراً منه ، فإننا نصف شخصاً كهذا بأنه متذبذب وجدانياً . ذلك أنه ما يكاد يعود مرة أخرى إلى ما كان عليه من حماس ، حتى تهبط حماسته مرة أخرى . وهكذا دواليك تجده بين إقبال وإدبار ، أو بين توهج نشاطى وبين انطفاء ذلك النشاط أو ذبوله. فيكون شأنه شأن بندول الساعة الذى يتجه مرة إلى اليمين ثم مرة إلى اليسار ، ويستمر فى التأرجح بين اليمين واليسار إلى غير نهاية .

ثانياً — التذبذب بين نشاطين أو أكثر :

فالشخص الذى يتحمس للنهوض بعملين أو هدفين أو أكثر ،

ولكنه لا يضع خطة منظمة لتحقيقهما ، بل يوجه طاقته الوجدانيـة إلى أحد الهدفين أو إلى أحد الأهداف العديدة التى يترسَّمها ، ثم ما يفتأ يسحب اهتمامه لكى يوجه طاقته الوجدانية إلى هدف آخر ، ثم إلى هدف ثالث فرابع ... إلخ ، أو أنه ما يكاد يبدأ بحماس فى تنفيذ أحد الأهداف بالفعل حتى تفتر همته بإزائه ويزهد فيه ، فيسحب اهتمامه منه ويتوقف عن الاستمرار فى أدائه ويوجـه طاقته الوجدانية إلى هدف ثان فثالث فرابع إلى غير نهاية ، فإن شخصاً كهذا يوصف بأنه متذبذب وجدانياً .

ثالثاً — التقلب بين الحب والكراهية :

فالشخص الذى يحب موضوعاً أو نشاطاً أو شخصاً ما ، ثم يستشعر الكراهية تجاهه ، ثم يعود فيحس بالحب ثم الكراهية لنفس الموضوع أو النشاط أو الشخص ، ويستمر فى التقلب بين الحب والكراهية بإزاء الموضوع الواحد الذى يوجه إليه عاطفته بالحب والكراهية على التوالى ، فإننا نعتبره مصاباً بالتذبذب الوجدانى .

رابعاً — التقلب بين التفاؤل والتشاؤم :

فالشخص الذى يمتلئ شعوراً بالتفاؤل والإقبـال على الحياة وعلى ما ينخرط فيه من أنشطة واهتمامات ، ثم ما يفتأ يحس بالتشاؤم واليأس من الحياة والانسحاب إلى داخليته متقوقعاً ومكتئباً وقد أفعم بتوقع الخيبة والفشل أو ما سوف يجابهه من صعاب غير متوقعة أو من مناحى الفشل المتباينة ، فإننا نصفه بأنه متذبذب وجدانياً .

خامساً — الحساسية الزائدة :

فثمة من الناس من تكون لديهم حساسية زائدة بإزاء كرامتهم أو اعتبـارهم لذواتهم أو بإزاء تقـدير الآخرين لهم . فكلمـة المـديح

أو التشجيع تدفع بهم إلى أعلى عليّين ، بينما تقذف بهم الملاحظة العابرة أو النقد البسيط إلى أسفل سافلين . فبينما يعمل التشجيع على توهج حماستهم ، فإن ما يعتقدون أنه تثبيط لهمتهم يعمل على إطفاء لهيب تدفق إقبالهم على العمل ، فلا يستمرون فى ممارسة ما كانوا متحمسين له من أنشطة . فمثل هؤلاء الناس يوصفون بأنهم متذبذبون وجدانياً .

وبعد أن قدمنا هذه المعانى الخمسة للتذبذب الوجدانى ، فإن علينا أن نلقى الضوء على العلاقة فيما بين التذبذب الوجدانى وبين الإنتاج ، فنجد أن تلك العلاقة يمكن أن تتحدد على النحو التالى :

أولاً — العجز عن إتمام أى عمل حتى نهايته :

فالشخص المصاب بالتذبذب الوجدانى ما يكاد يشرع فى النهوض بأى عمل بعد أن يكون قد ترسَّمه وخطط له ، حتى ينصرف عنه حتى ولو كان قد قطع فى تنفيذه شوطاً طويلاً . فما يسيطر عليه من تذبذب وجدانى لا يسمح له بأن يُكْمل العمل الذى بدأه ، بل ينصرف عنه إلى غيره من أعمال لا يكون حظها أفضل من حظ العمل الذى انصرف عنه إليها .

ثانياً — ترقيع العمل وهلهلته :

فالشخص المصاب بالتذبذب الوجدانى يمكن أن يعود إلى العمل الذى كان قد أهمله قبلاً بسبب تذبذبه الوجدانى ، ولكن عودته إليه لا تكون مكفولة بالاستمرارية التى يتصف بها العمل المتكامل ، بل عمله يكون بمثابة قطع متراصة بعضها إلى جانب بعض لا تسرى فى شرايينها دماء التكامل والحيوية .

ثالثاً — تفكك العلاقات التعاونية بين المرء وبين المشتغلين معه :

فالشخص المصاب بالتذبذب الوجدانى لا يستطيع أن يقيم علاقات

سوية وحميمة مع زملائه أو مرءوسيه أو رؤسائه فى العمل الإنتاجى المشترك بينهم . ذلك أنه فى لحظة ما ، يوجه إليهم الحب الدافق ، بينما يعزف عنهم أو قد يبدى لهم الكراهية فى لحظة أخرى . فتذبذب وجدانه بين التدفق والإحجام لا يشعر المتعاملين معه بالطمأنينة إليه والثقة فى عواطفه نحوهم ، فينصرفون عنه أو يكرهونه ويبدون له الاشمئزاز والنفور من معاملته أو التعاون معه .

رابعاً — تذبذب مستوى الإنتاجية :

فالشخص المصاب بالتذبذب الوجدانى لا يتسنى له تقديم إنتاج فى العمل على مستوى واحد من الجودة ، بل إن إنتاجه — كائناً ما يكون ذلك الإنتاج — يكون متصفاً بالتفاوت الشديد بين الجودة والامتياز وبين الرداءة والهبوط الشديد ، فهو فى أثناء فورته الوجدانية بالحب لعمله يقدم إنتاجاً ممتازاً ، ولكن بعد أن يضمر حبه ويسحب اهتمامه من مجال العمل الذى ينخرط فيه ، فإنه يقدم إنتاجاً رديئاً . أو قد يكون ذلك الإنتاج مشحوناً بالأخطاء العديدة والخطيرة فى الوقت نفسه .

خامساً — إصابة العامل المنتج بالتخلف الإنتاجى وبالعقد النفسية :

أخيراً فإن ما يصاب به المرء من تذبذب وجدانى ، يقابل من جانب المسئولين عن مسيرة العمل من رؤساء ومرءوسين بالنقد العنيف وبتوقيع الجزاءات بالخصم من الراتب أو حجب المكافآت التشجيعية والحوافز عن العامل ، وتكون نتيجة ذلك بالحتم كراهيته للعمل ولجميع ما يتعلق به من أشياء وأشخاص . وحتى إذا استمر فى العمل به ، فإن إنتاجيته تتدهور من سيئ إلى أسوأ باستمرار .

□ **الموت الوجدانى والإنتـاج :**

علينا أن نحاول كشف النقاب عن أثر الموت الوجدانى فى الإنتاج، ولنبدأ نلقى الضوء على مفهوم الموت الوجدانى، فنجد أنه يتضمن المعانى التاليـة :

أولاً — التناقض الوجدانى :

فإذا ما تعارضت الوجدانات بعضها مع بعض وتعاركت ، فإنها تقتل بعضها بعضاً وتُـفْنى بعضها بعضاً . فإذا ما شاع وانتشر العراك بين العواطف المتباينة فى نطاق المرء، وهى النتاجات التى تتأتى عن بَلْـورة الوجدان حول محاور معينة ، فإن النتيجة التى تترتب على ذلك التعارك والتقاتل هى الموت الوجدانى .

ثانياً — نمطية الأداء :

فكلما سيطرت النمطية على أداء المرء لأنشطته ، فإن الوجدان يختنق ويموت . فالعامل الذى يستحيل إلى ما يشبه الآلة الصماء فى أداء جانب من العمل الذى يتكرر هو هو ، فإن أداءه يكون متجرداً من الروح ، وذلك لأن روح الأداء هى الوجدان الحى . وطالما أن الأداء النمطى يكون خالياً من اعتمال الوجـدان ، فإن الوجدان يكون إذن قد مات بالنسبة لذلك النشاط الذى يضطلع به المرء . صحيح إن الوجدان قد يكون فى حياة ذلك الشخص فى جوانب أخرى من حياته، ولكنه بالنسبة لهذا الجانب النمطى من نشاطه ، يكون الوجدان مائتاً .

ثالثاً — بعض الاضطرابات الهورمونية :

فقد تصاب بعض الغدد الصماء بالضمور أو التلف وبخاصة الغدتان فوق الكليتين والغدة النخامية التى تعتبر المايسترو الذى ينظم عمل الغدد

وما تقوم بإفرازه من هورمونات ، فيترتب على ذلك انتشار الاضطرابات الوجدانية ومن بينها الموت الوجدانى . فتجد الشخص المصاب به وقد فقد تذوقه للحياة ، بل إنه يكون بارد الوجدان تماماً . فهو ينظر ببلاهة إلى الواقع من حوله . فلا يفرح ولا يحزن ، ولا يحب ولا يكره . ومن الطبيعى أن ينعكس هذا على أدائه لعمله . فهو لا يجد لديه الدافعية للأداء، بل يكون فى حالة لامبالاة تامة أو سلبية شائعة فى جميع أنحاء حياته .

رابعاً — إصابة بعض مناطق المخ بالعطب :

فإذا كانت الغدد الصماء هى التى تقدم الوقود المتمثل فى الوجدانات وتُشيعها فى الأنشطة التى يضطلع بها المرء ، فإن المخ هو المسئول عن تحريك أو عن إطلاق شعلة الوجدان ، أى أن الجهاز العصبى المتمثل فى المخ هو العلة الأولى أو السبب أو المحرك الأصلى لانبعاث الوجدان ، بينما يمثل الجهاز الغددى العامل المساعد والمقوِّى والمنشِّط لإشعال جذوة الوجدان . وعلى هذا فإن العطب الذى يصيب بعض مناطق المخ قد يؤدى إلى عدم إطلاق الوجدان من عُقَاله ووقفه عن الانبعاث تماماً . وبتعبير آخر فإن ذلك العطب يعنى الموت الوجدانى تماماً ، فينعكس ذلك على ما يضطلع به المرء من أنشطة متباينة .

خامساً — المكبوتات اللاشعورية :

فمن عوامل قتل الوجدان اعتمال بعض المكبوتات اللاشعورية فى قوام المرء . فالشخص الذى تكدست ونشطت لديه تلك المكبوتات اللاشعورية كلما حاول أن يوجه وجدانه بتجاه بعض الأهداف الإيجابية ، فإن تلك المكبوتات النشيطة بداخله تعرقل جهوده وتقتل بعضها بعضاً .

ذلك أن تلك المكبوتات اللاشعورية هى فى الواقع تكتُّلات وجدانية . فهى تقوم بالإغارة على الوجدانات الجديدة التى يستشعرها المرء ويرغب فى توجيهها واستخدامها وتوظيفها فى واقع حياته . ولكن المعركة التى تنشب بينها وبين تلك المكبوتات الوجدانية اللاشعورية تُفْضى إلى قتلها ، وبالتالى فإن مثل ذلك الشخص الذى تنشب المعركة الوجدانية بدخيلته بين مكبوتاته اللاشعورية الوجدانية وبين وجداناته الطافية على سطح الشعور ، يصاب بالموت الوجدانى نتيجة قتل وجداناته المعتملة فى قوام أنشطته المَرْوية التى يدركها ويبغى ممارستها بوعى وتبصر .

وبعد أن قدمنا هذه المعانى التى يتضمنها الموت الوجدانى ، يبقى علينا أن نلقى الضوء على العلاقة بين هذا النوع من الموت وبين الإنتاج ، فنجد أن هذه العلاقة تتضمن الجوانب التالية :

أولاً — التوقف الكامل عن الإنتاج :

فلقد يترتب على الموت الوجدانى عجز المصاب به عن ممارسة أى عمل من أى نوع ، وبالتالى فإن إنتاجيته تكون صفراً على الشمال . فطالما أن الوجدان بمثابة الوقود الذى يُشَكِّل الطاقة التى تسيِّر الأداء ، فإن موت الوجدان هو فى الوقت نفسه إبطال القدرة على الممارسة الإنتاجية .

ثانياً — توقف عمل الذكاء :

فالواقع أن الوجدان هو — كما قلنا — بمثابة الطاقة التى تشعل النشاط . فهو بمثابة عود الثقاب أو الشعلة الأولى التى ينطلق منها كل نشاط . فانعدام تلك الشعلة يعنى التوقف عن ممارسة أى نشاط بما فى ذلك النشاط العقلى المتمثل أساساً فى الذكاء . فالشخص المنتج إذا ما أصيب

بالموت الوجدانى ، فإنه يضحى من الغباء والبلادة العقلية بحيث لا يستطيع أن يقيم علاقات من أى نوع فيما بين مقـومات الموقف المطروح أمامه ، كما أنه لا يستطيع أن يستثمر الإمكانات المتوافرة بين يديه .

ثالثاً — التردى فى أخطـاء خطيرة وتعريض المـرء لنفسه ومن حوله لأخطار وخيمة :

فالشخص الذى يصاب بالموت الوجدانى يكون معرضاً للوقوع فى أخطاء خطيرة قد تترتب عليها كوارث ونوائب وفواجع لا تُحْمد مغبتها . فإذا تخيلنا أن الشخص المسئول عن تسيير إحـدى الآلات وقد مات وجدانه الذى يعتبر بمثابة الوقود الذى يسـيِّر أنشطته الإنتاجية ، فإنه بلا شك يتوقف عن إعمال عقله فى الموقف ، بل يترك نفسه للمصادفات تقذف به كيفما تشاء ، وبالتالى فإنه يتخبط فى العمل ، مما يترتب عليه التردى فى أخطاء وأخطار وخيمة .

* * *

الفصل السادس
الارادة والانتاج

☐ إرادة الهدم والإنتاج :

سبق أن عرضنا بالفصل الأول من هذا الكتاب للمعانى المتباينة التى يتضمنها مفهوم الإنتاج ، ومن بينها ما أطلقنا عليه اسم « المعنى الوقائى ». بيد أن هذا المعنى الذى أدرجنا فى نطاقه مهام الطبيب والضابط وغيرهما، يتسع لأكثر من مفهوم الوقاية ، أى الحيلولة فيما بين الفرد أو الجماعة وبين التعرض للأخطار أو الأضرار ، فيشمل أيضاً مفهوم الهدم ، أعنى القضاء على أسباب الأخطار أو الأضرار . ولعلنا نقوم فيما يلى باستعراض المناحى التى تتضمنها إرادة الهدم التى تصوَّب إلى مصادر الأخطار أو الأضرار على النحو التالى :

أولاً — إرادة الهدم الجرثومية :

فإذا نحن تأملنا عمل مراكز البحوث الطبية وما يمارسه الأطباء بإزاء مرضاهم ، فإننا نجد أن جانباً هاماً من أهدافهم يوجه إلى مهاجمة الميكروبات والفيروسات والقضاء عليها ، سواء بعد أن تصيب جسم المريض ، أم وهى فى النطاق الخارجى ، وذلك حتى لاتهاجم الناس الأصحاء . فالطب الوقائى فى جانب كبير منه يحاول القضاء على الجراثيم والفيروسات ، أو على الأقل تحصين الأصحاء ضد عدوانها عليهم .

ثانياً — إرادة الهدم البيولوجية :

وهذه الإرادة الهدمية تتمثل أيضاً فى عمل الطبيب الذى يمسك

بالمشرط ويبتر عضواً فاسداً بجسم المريض لا أمل فى إصلاحه ويكون استمرار وجوده خطراً عليه ، كما يتمثل أيضاً فى عمله عندما يهاجم الأورام السرطانية بمشرطه أو بأشعة الليزر فيستأصل المناطق التى استشرى فيها المرض . فلكأن هناك حرباً ضروساً بين الطبيب وبين تلك الجيوش العارمة التى وجدت مرتعاً لها فى جسم المريض ، أو قل حرباً ضد تلك الخلايا التى أعلنت الثورة على جسم صاحبها وقد فقدت التكامل والتآزر مع باقى الخلايا . فلا يكون من مناص إذن أمام الطبيب سوى مهاجمتها والقضاء عليها وإبادتها تماماً .

ثالثاً — إرادة الهدم لتوفير الأمن الداخلى :

فمهمة رجال الشرطة الرئيسية تتمثل فى مقاومة الجريمة والمجرمين حتى يتحقق الأمن والأمان للمواطنين ويتأكد الحفاظ على أرواحهم وسلامتهم وممتلكاتهم . فالضرب على أيدى الخارجين على القانون وشن الهجوم على أوكارهم وتسليمهم ليد العدالة ، أو الدخول فى معارك دامية معهم والقضاء عليهم بالقتل والإبادة ، ومصادرة الممنوعا ت التى فى حوزتهم وبخاصة ما يتعلق بالمخدرات والأسلحة غير المرخصة ، تحتل جميعاً مكانة رئيسية فى مهمة رجال الأمن . صحيح أن هناك مهاماً أخرى تقع فى مسئوليتهم ، مثل تنظيم المرور والجوازات وغير ذلك ، ولكن مما لاشك فيه أن رجال الأمن يتسلحون بسلاح هدم أركان الجريمة وأسبابها والعوامل المساعدة على ارتكابها بشتى الوسائل الممكنة ، وقد تذرعوا خلال العقود الأخيرة بالعلم والتكنولوجيا المتقدمة ، حتى يتفوقوا على ما يتذرع به أرباب الإجرام الذين يستعينون هم أيضاً بالعلم والتكنولوجيا فى سبيل تحقيق مراميهم الإجرامية الخسيسة .

رابعاً — إرادة الهدم بإزاء سلامة الوطن :

فبينما يهتم رجال الشرطة بالضرب على أيدى المجرمين بالداخل ، فإن رجال الجيش يدافعون عن أرض الوطن ويحافظون على مداخله براً وبحراً وجواً . فإذا ما تجرأت إحدى الدول بالإغارة على حدود الوطن لاستلاب بقعة منها ، فإن مهمة الجيش تتمثل فى التصدى والمقاتلة بغير هوادة ، طالماً أن الوسائل السياسية لم تُجْدِ نفعاً ، وقد صدرت الأوامر إلى قادته بالدفاع ورفع راية الجهاد المقدسة للحفاظ على سلامة الوطن وحدوده .

خامساً — إرادة الهدم فى أيدى العدالة :

هناك نوعان من المحاكم : نوع مدنى وآخر عسكرى . والمحاكم المدنية تنظر القضايا المتعلقة بالمدنيين ، بينما تنظر المحاكم العسكرية القضايا المتعلقة بالعسكريين . وقد تقضى المحاكم المدنية والمحاكم العسكرية بإقصاء الخارجين على القانون والنظام ، وذلك بالإلقاء بهم فى السجون ، أو قد تحكم عليهم بالإعدام فى ضوء القوانين المنظِّمة للعقوبات . والواقع أن العقوبات بشتى صنوفها ، الخفيف منها والصارم ، إنما يقصد منها جميعاً هدم الجريمة بإرادة الهدم المخوَّلة بالدستور .

ولعلنا نتساءل بعد هذا عن مدى فاعلية إرادة الهدم فى دعم الإنتاج ، فنجيب عن هذا التساؤل بما يأتى :

أولاً — استبعاد عوامل تعويق الإنتاج :

فمن الواضح أن كل إنقاص فى العوامل المؤدية إلى تقليل الإنتاج ، يعتبر فى الوقت نفسه إضافة إليه . وبتعبير آخر فإن كل هدم للعوامل التى تعطِّل عجلة الإنتاج ، يعتبر دعماً له . ونستطيع أن نشبِّه هذا

الموقف بموقف شخص يتقاضى مرتباً شهرياً قدره مائتا جنيه ويدخن سجائر بمبلغ خمسين جنيهاً فى الشهر ، ولكنه قرر الإقلاع عن التدخين . فبدل أن كان صافى دخله عندما كان يدخن مائة وخمسين جنيهاً ، فإنه صار مائتى جنيه بعد إقلاعه عن التدخين . وبتعبير آخر فإن زيادة قدرها خمسون جنيهاً قد أضيفت بطريق غير مباشر إلى دخله . فعلى النحو نفسه نقول إن إرادة الهدم التى عرضنا لأنواعها الخمسة ، تعمل على زيادة الإنتاج بطريق غير مباشر .

ثانياً — توفير المناخ المناسب للإنتاج الإيجابى :

فما لاشك فيه أن توفير المستوى الصحى المرتفع والممتاز للمواطنين يعمل بالتأكيد على زيادة طاقتهم الإنتاجية ، والارتفاع بمستوى ونوعية إنتاجيتهم ، بل إنه يكفل لهم البحث عن الوسائل الأكثر نجوعاً لتقديم نوعيات جديدة من الإنتاج . فالشخص الذى يصاب بالبلهارسيا أو الإنكلستوما ينخفض مستواه الإنتاجى الذى كان يتمتع به قبل إصابته بالمرض . فإذا ما تهيأت له فرصة العلاج ، فإنه يستعيد طاقته الإنتاجية ، بل قد يعمد إلى تعويض ما فاته من فرص الإنتاج التى كان قد فقدها خلال فترة مرضه .

ثالثاً — استعادة الصحة الجسمية والصحة النفسية :

فعن طريق إرادة الهدم فيما يتعلق بالأمراض المختلفة وفيما يتعلق بالأمن الداخلى والخارجى ،فإن المواطنين يحسون بأنهم يتمتعون بمستوى من الصحة والأمان والسلامة ، فيبعد عنهم شبح الموت أو شبح الخوف . وبالتالى فإنهم يحسون بالسعادة تغمرهم وبأنهم خليقون بالتمتع بحياتهم . ومن المعروف أن الموظف أو العامل السعيد والمتفائل ، يكون أكثر

إنتاجية من العامل المبتئس أو الخائف أو خائر القوة أو المبتلى بالأمراض المتباينـة .

□ إرادة البناء والإنتـاج :

إننا عنـدما نعرض لإرادة البنـاء ، فإننا نقصد باستخدامنا لهـذا اللفظ مجموعة من المعانى التى نقدمها على النحو التالى :

أولاً — اتخاذ الموقف الإيجابى :

فبينما تتصف إرادة الهدم بالسلبية فى علاقتها بالإنتاج ، فإننا نجد أن إرادة البنـاء تتصف بالإيجابية ، أى بإضـافة مقومات جديدة إلى المقومات الموجودة بالفعل . ومن الممكن تشبيه الإرادة البنائية الإيجابية بحالة موظف يتقاضى مرتباً قدره مائتا جنيـه فى الشهر ، ثم اجتهد فى البحث عن مصدر رزق إضافى يعمل على زيادة دخله ، فعثر بالفعل على عمل إضافى وأخذ يستثمر جهده فى ممارسته خلال وقت فراغـه فصار يربح مبلغاً إضافياً قدره خمسون جنيهاً كل شهر . وبذا فإن دخله ارتفع من مائتى جنيه إلى مائتين وخمسين جنيهاً . فنشاطه فى وقت فراغه كان تعبيراً عن تلك الإرادة البنائية التى تتصف بالإيجابية .

ثانياً — استثمار الإمكانات الموضوعية :

فصاحب الإرادة البنائية يستفيد من المصادر الخارجية التى يتسنى له السيطرة عليها ويطوّعها لتحقيق أهدافه الجديدة التى تَـدْعم ما سبق أن تحقق بالفعل .

ثالثاً — شق طرق جـديدة :

وصاحب الإرادة البنائية قد لا يكتفى باستثمار الإمكانات التى تتوافر بين يديه فى الواقع الخارجى ، بل قد يَخْـلص بذهنه إلى تصورات

عقلانية جديدة ، ثم يعمد إلى إحالتها من كونها صوراً ذهنية إلى واقع محسوس بالفعل . فإرادة البناء فى هذه الحالة تكون إرادة إبداعية إلى جانب كونها إرادة بنائية .

رابعاً — استخدام وسائل أدائية جديدة :

وصاحب الإرادة البنائية لا يقنع بما هو متوافر بين يديه من وسائل أدائية ، بل يبحث جاهداً عن وسائل جديدة موجودة بالفعل ولكنه لم يكن يستخدمها ويستغلها ، أو يقوم باختراع وسائل جديدة غير مسبوقة ويسخِّرها فى أداء أنشطته البنائية ، وما يقصده صاحب الإرادة البنائية من التجديد فى الوسائل التى يستخدمها ، هو التوصل إلى كم إنتاجى أغزر وأرفع مستوى مع بذل جهد أقل ونفقات أقل أيضاً .

خامساً — التعاون مع الآخرين :

فالواقع أن جميع الأعمال والأنشطة البنائية التى تعتمل فيها إرادة البناء بحاجة إلى التعاون مع الآخرين بشكل أو بآخر وبدرجة أو بأخرى . صحيح أن المرء قد يضطلع بجانب أو بقطاع معين فى العمل البنائى لا يشاركه فيه أحد ، ولكن ما يضطلع به لا يبقى منفصلاً عن جهود الآخرين المشتركين معه فى إخراج العمل ككل . فمهندس المعمار الذى يضطلع وحده فى استقلال عن غيره بتصميم البناء ، لا يظل مستقلاً فيما يقوم بإنجازه ، بل ينخرط تخطيطه فى إطار عمليات بنائية مشتركة ، فيكون التعاون إذن شرطاً ضرورياً حتى يتسنى للعمل أن ينجح .

وبعد أن عرضنا لهذه الخصائص الخمس التى تتصف بها إرادة البناء ، فإن علينا أن نلقى بالضوء على العلاقة القائمة فيما بين هذه الإرادة وبين الإنتاج ، فنجدها على النحو التالى :

أولاً — اطراد كمية الإنتاج بالزيادة وتحسن نوعيته مع ازدياد قوة إرادة البناء :

فكلما كانت إرادة الإنتاج البنائي لدى المرء على مستوى أكبر من القوة ، فإن إنتاجيته تزداد من حيث الكم ، كما أنها تكون على مستوى أرفع وأفضل من حيث الكيف .

ثانياً — التكيف بنجاح مع الجهاز الإنتاجي :

فكلما كانت إرادة البناء لدى المرء أقوى ، فإن قدرته على التواؤم مع المؤسسة الإنتاجية التي يعمل بها تكون أقوى وأفعل . فالعامل المنتج المتمتع بإرادة بناء قوية ، يكون خليقاً بتحقيق مستوى عظيم من الإنسجام مع المتعاملين معه ، بل إنه يحظى بتقديرهم وحبهم وبالتفاف قلوبهم حوله .

ثالثاً — انفتاح باب الترقي أمام المرء واحتلال مكانة رفيعة :

فالشخص المتمتع بمستوى رفيع من إرادة البناء ، يكون محظوظاً بانفتاح باب الترقي أمامه ، فَيُرقى إلى وظيفة مرموقة ، كما تُسند إليه مسئوليات جوهرية في العملية الإنتاجية ، وقد يمسك بزمام العمل ويقوم بإدارته ويصير قائداً لكثير من العاملين في المجال الإنتاجي الذي يعمل فيه .

رابعاً — الإحساس بالسعادة والتقدير الذاتي :

فكلما كانت إرادة الإنتاج لدى العامل على مستوى أكبر ، فإنه يحس بالسعادة تملأ قلبه ، وذلك لأن تلك الإرادة البنائية القوية تؤهله لتقديم إنتاج متقن ووافر ، وبالتالي فإنه يحس بالرضى الذاتي ، بل ويحس بانعكاس تقدير الآخرين له على شخصه .

خامساً — النَّفَس الطويل ومواصلة العمل لمدة طويلة :

فالشخص المتمتع بإرادة بناء قوية ، يكون قميناً بعدم الشعور بالخوَر والتعب فى أداء عمله . ناهيك عن عدم شعوره بالسأم . فهو يقبل على أداء عمله الإنتاجى بنَفَس طويل ومتين ، ولا يتوقف متثائباً أو متباطئاً فى أداء العمليات الإنتاجية التى يضطلع بها .

بيد أن هناك مجموعة من العقبات التى قد تعترض طريق الشخصية المتمتعة بإرادة البناء ، لعلنا نلقى الضوء عليها على النحو التالى :

أولاً — فرض قوالب إنتاجية على صاحب الإرادة البنائية :

فالكثير من أصحاب الإرادة البنائية القوية يحسون بالسَّأم بإزاء العمليات الإنتاجية التى توكل إليهم ، وذلك بسبب النَّمطية التى تفرض عليهم من جهة ، وبسبب مصادرة حريتهم فى الإبداع الإنتاجى من جهة أخرى . فهم مجبرون على أن يصُبُّوا جهودهم الإنتاجية فى قوالب مجهزة لهم من قبل ولا يسمح لهم بالتعديل أو التطوير بإدخال أى تغيرات عليها . وبالتالى فإن إحساسهم هذا يعطِّل قدرتهم الإنتاجية .

ثانياً — التعصب والتحيز والمحسوبية :

فعلى الرغم من أن العامل المنتج قد يكون حائزاً على إرادة بنائية عظيمة ، فإن ما يحس به من اضطهاد وتربُّص من جانب الرؤساء أو الزملاء أو المرءوسين ، وما يشاهده من محسوبية وتحيز بسبب القرابة أو الارتشاء ، يعمل على الفتِّ فى عَضُده ويحمله على التواكل وعدم إعمال إرادته البنائية العظيمة فى الأعمال الإنتاجية التى توكل إليه .

ثالثاً — قصور المرتب على الوفاء بمطالب الحياة ومجابهة الغلاء :

فالعامل الذى لا يتقاضى المرتب الذى يؤهله لسد مطالبه ومطالب

أسرته ، يحمل همومه فى قلبه باستمرار ، فهو فى أثناء ممارسته لعمله الإنتاجى يحس بالغم يملأ قلبه وينعكس ذلك على ممارسته له ، فيقع فى أخطاء ، أو قد يتعرض لأخطار أو أخطاء خطيرة قد تودى بحياته ، أو قد تصيبه بعاهة تقضى على قدرته الإنتاجية خلال البقية الباقية من حياته .

□ إرادة التصييغ والإنتاج :

حَرِيٌّ بنا أن نلقى الضوء على مفهوم « إرادة التصييغ » قبل أن نتفحَّص العلاقة بينها وبين الإنتاج ، فنجد أن هذه الإرادة تتضمن المقومات التالية :

أولاً — تشكيل صور جديدة للواقع الخارجى غير متحققة بالفعل :

فصاحب هذه الإرادة يُعْمل خياله فى الواقع الخارجى ، فيجد أن من الممكن إقامة علاقات جديدة فيما بين مقوماته بحيث يتأتى عن استثمار تلك العلاقات الجديدة المكتشفة أو المبتكرة التوصُّل إلى صيغ جديدة لذلك الواقع الخارجى .

ثانياً — النظرة المستقبلية لما سوف يكون عليه الواقع بعد تصْييغه وما يستتبعه ذلك من نتائج :

فصاحب إرادة التصييغ لا يكتفى بالوقوف على العلاقات التى يمكن استثمارها فى الواقع المحسوس ، بل يتذرع أيضاً بنظرة مستقبلية ، فيقف على ما يمكن أن يتأتى من نتائج بعد استثمار تلك العلاقات وإخراجها من حيز الكمون إلى حيز الواقع ، وما يمكن أن يُسْفر عنه ذلك من قوامات جديدة يستحيل إليها الواقع الخارجى الموجود آنياً .

ثالثاً — وضع الخطة التنفيذية :

وفى هذه الخطوة يقوم المرء بوضع الخطة الكفيلة بإحالة ما تم

تَـصَوُّره من إمكانات إلى واقع فعلى . وتتضمن هذه الخطوة أيضاً مراجعة تلك الخطوة المبدئية وتعديلها إلى أن يتسنى التوصُّـل إلى أفضل خطة يتسنى للمرء تصورها .

رابعاً — تجهيز إمكانات التنفيذ :

وتأتى بعد هذا خطوة التجهيز للتنفيذ . وفى هذه الخطوة تتبدى إرادة التصبيغ فى أقوى صورة لها ، فيعمد المرء إلى تخيُّـر أفضل الوسائل التى تكفل الحصول على أكبر قدر من النتائج وأفضلها بحيث يتم التطابق إلى أكبر درجة ممكنة فيما بين الخطة كما تم تصورها صاحب تلك الإرادة التصبيغية فى ذهنه ، وبين الواقع الذى يسفر عنه التطبيق الفعلى لذلك التصور الذهنى .

خامساً : التنفيذ الفعلى للخطة :

وفى هذه الخطة يتم إخراج ما تم تصوره ذهنياً إلى الواقع المحسوس بالفعل . ولكن ثمـة أيضاً ما يضطلع به المرء من مراجعة تقييمية لمـا تم تنفيذه بالفعـل ، وبالتالى إدخال التحسينات على ما تم تحقيقه ، سواء بالحذف أم بالإضافة ، وسواء بالتقديم أم بالتأخير ، أو بغير ذلك من تعديلات وتحسينات .

وبعد استعراضنا لمفهوم التصبيغ ، يبقى علينا أن نتفحص العلاقة فيما بين إرادة التصبيغ وبين الإنتاج ، فنجد أن هذه العلاقة تتضمن الجوانب التالية :

أولاً — التحسين المستمر للعمليات الإنتاجية :

فالواقع أن هذه الإرادة تعمل على إدخال التحسينات المستمرة على التصورات المتعلقـة بالإنتـاج ، سواء فيما يتعلق بالأهداف الإنتـاجية

المستحدثة ، أم فيما يتعلق بالوسائل التى يتسنى بواسطتها تحقيق تلك الأهداف فى الواقع المحسوس ، أم فيما يتعلق بما يتوقع من نتائج تترتب على هذا التحقيق .

ثانياً — مقارنة الإنتاج السابق بالإنتاج اللاحق :

فإرادة التصييغ تحمل المتسلح بها على أن يعقد مقارنات مستمرة فيما بين الإنتاج الذى تحقق بالفعل فى الواقع المحسوس ، وبين الإنتاج المتوقع بعد تنفيذ الخطط التصييغية . ولا شك أن تلك المقارنات تُفْضى إلى تعديلات وتحسينات مستمرة فى مستوى الإنتاج . فقد يكتشف المرء أن بعض العناصر التى يتضمنها الإنتاج القديم أفضل من العناصر المناظرة لها فى الإنتاج الذى يُزْمع تحقيقه أو الذى حققه بالفعل . ويترتب على تلك المقارنات قيامه بإدخال تعديلات جديدة على الخطة الإنتاجية الموضوعة .

ثالثاً — اكتساب الخبرة التصييغية :

فالواقع أن ممارسة إرادة التصييغ بتواتر ، تعمل على إكساب المرء صاحب الإرادة التصييغية ما يمكن أن نسميه « الخبرة التصييغية » . ذلك أن كل حصيلة خِبْرية جديدة تتأتى عن ممارسة التصييغ ، تتفاعل مع الحصائل الخبرية السابقة، فيتأتى عن ذلك مركَّبات خبرية تستمر فى التراكب أكثر فأكثر . ومن ثَمَّ فإن كل موقف تصييغى تالٍ يستفيد من القوام الخِبْرى الذى تأتَّى للمرء . فهو لا يبدأ من الصفر ، بل يبدأ من آخر مستوى تفاعلى خِبْرى تصييغى توصل إليه فى تعامله مع الموقف التصييغى الجديد .

رابعاً — الامتداد إلى آفاق تصييغية متجددة باستمرار :

فما يتأتى للمرء من مركبات خِبْرية تصييغية مستمرة فى التفاعل

يستتبع الامتداد إلى آفاق تصييغية متجددة باستمرار . وقد تتضمن تلك الآفاق التصييغية التوصل إلى مركّبات خِبْرية تصييغية فى غاية الأهمية . فما التكنولوجيا المتدفقة على المستوى العالمى سوى ثمار للامتداد إلى آفاق متجددة باستمرار وإلى استخدامات مبتكرة وإلى سد حاجات حضارية جديدة .

خامساً — بناء إيديولوجيات جديدة وهدم إيديولوجيات قديمة :

فثمة نتائج خطيرة تترتب على إرادة التصييغ تتمثل أكثر ما تتمثل فيما يمكن أن ينهـدم من إيديولوجيات سبق أن شُيِّدت ، وبناء إيديولوجيات جديدة تزيحها وتحل محلها . من ذلك تلك الإيديولوجيات التربوية التى أخذت بها الأجيال السابقة ، ثم بزوغ إيديولوجيات تربوية جديدة عملت على إزاحة تلك الإيديولوجيات القديمة وحلولها محلها . ومن الطبيعى أن ينعى بعض الناس الذين آمنوا بتلك الإيديولوجيات القديمة وتلفحوا بها ، معتقدين أنها خليقة بالبقاء دوماً دون أن يزحزحها أى انبثاق لأية إيديولوجية جديدة من الإيديولوجيات الجديدة ، وفى المقابل فإن هناك المناصرين للجديد المنبثق المتمثل فى تلك الإيديولوجيات الجديدة ، وهم الذين يرغبون فى الوقت نفسه فى القضاء على الإيديولوجيات القديمة وهدمها والقضاء عليها قضاءً مبرماً .

وهناك مجموعة من العقبات التى تعترض طريق إرادة التصييغ ، لعلنا نقوم بتقديمها على النحو التالى :

أولاً — ضعف الخلْفية الثقافية :

فإذا لم يكن المرء حاصلاً على خلفية ثقافية عريضة وعميقة فيما يتعلق بالمجال الذى يوجه إليه إرادته التصييغية ، فإن تلك الإرادة لا تُفْضى إلى

نتائج ذات بال ، بل إن ما يقوم به من تصـيغات يكون واهناً أو قد يكون ضاراً ومعطلاً لمسيرة التقدم .

ثانياً — ضعف إرادة التصييغ :

ومن العوائق التصييغية ما كان متعلقاً بقوة إرادة التصييغ ذاتها . فهذه الإرادة قد تكون ضعيفة بحيث لا يستطيع صاحبها أن يضطلع بالعمليات التصييغية المناسبة للأعمال والمهام التى يَبْغى تحقيقها بتصييغاته المتباينة .

ثالثاً — التقطـع وعدم الاستمرارية :

فقد تكون إرادة التصييغ متقطِّعة أو متذبذبة أو غير مستمرة . وبذا فإن التصييغ لا يكتمل ، بل يكون مهلهلاً أو مبتوراً .

□ إرادة التركيب والإنتـاج :

علينا أن نبدأ بإلقاء الضوء على مفهوم « إرادة التركيب» كما فعلنا بإزاء الإرادات الثلاث السابقة ، أعنى « إرادة الهدم » و« إرادة البناء » و « إرادة التصييغ » ، وذلك حتى يتسنى لنا بعد ذلك إيضاح العلاقة بين « إرادة التركيب » وبين الإنتاج . فهذا المفهوم يتضمن ما يأتى :

أولاً — الوقوف على مقومات الموقف :

فلكى يتسنى اعتمال هذه الإرادة التركيبية ، لابد أن يبدأ المرء بفحص مقومات الموقف وتَـبيُّـن جزئياته التى سوف يُدْخلها فى عملية التركيب . فالأمر يتطلب بالضرورة وجود مقومات يمكن استخدامها فى عملية التركيب . فلا تركيب بغير وجـود تلك المقوِّمات التى يتسنى استخدامها فى البناء والاضطلاع به .

ثانياً – إنشاء صور ذهنية تتعلق بالصورة التى سوف يكون عليها المركَّب :

وبعد إدراك مقومات الموقف ، فإن صاحب إرادة التركيب يقوم بإنشاء صور ذهنية متباينة لما يمكن أن يكون عليه المركَّب الذى يتسنى إنشاؤه . فتلك الصور الذهنية المتباينة بمثابة خِيَارات يستطيع المرء أن ينتقى من بينها تلك الصورة الأكثر ملاءمة ، والأكثر اكتمالاً ، والأكثر فاعلية أو إنتاجية ، والأكثر جمالاً ورونقاً .

ثالثاً – الوقوع على الخيار الأفضل من بين الخيارات المطروحة أمام ذهن المرء :

وبعد تأمل الخيارات الممكنة وتقييمها ، فإن صاحب الإرادة التركيبية يقع على خيار من بينها يعتبره أفضل خيار ممكن ، فيعتزم توظيفه فى عملية التركيب .

رابعاً – تجهيز الوسائل التى سوف يستعين بها المـرء فى عملية التركيب :

وفى هذه الخطوة يقوم المرء باستبانة الوسائل ، سواء كانت خامات أم أدوات أم آلات أم علاقات اجتماعيـة أم غير ذلك ، ثم يعمِد بالفعل إلى تجهيزها وتوفيرها بين يديه قبل البدء فى عملية التركيب . وقد يفاضل فى هذه الخطوة فيما بين الوسائل التى جهَّزها وبين وسائل أخرى تخطر على باله ، فيقارن بين البدائل الممكنة ، إلى أن يستقر فى نهاية الأمر على الوسائل التى سوف يستعين بها فى التنفيذ .

خامساً – التنفيذ الفعلى لعملية أو عمليات التركيب :

وفى هذه الخطوة يقوم صاحب إرادة التركيب بإخراج الخطة التى

وضعها من حيز الكمون إلى حيز الواقع المنَفَّذ بالفعل . ولكنه يقوم فى أثناء التنفيذ بعملية تقييم لكل خطوة يضطلع بها ، وأيضاً تقييم العلاقات التى تقوم فيما بين الخطوات المتباينة بعضها وبعض حتى لايكون التنفيذ مشوباً ببعض النقائص ، وحتى لايكون التركيب المتأتى على غير ما يجب أن يكون عليه . وقد يعمِد المرء إلى فك بعض الأجزاء التى لا يرضى عن تركيبها واستبدال غيرها بها حتى يطمئن إلى أن المركَّب الذى انتهى إليه مطابق أو قريب جداً من التصورات الذهنية التى سبق أن ترسَّمها فى ذهنه .

وبعد أن قمنا بإيضاح مفهوم إرادة التركيب فى البنود الخمسة السابقة ، فإن علينا أن نقوم بإلقاء الضوء على علاقة هذه الإرادة التركيبة بالإنتاج على النحو التالى :

أولاً — التركيب النَّمَطى والتركيب الإبداعى :

فثمة نوعان من المنتجين : نوع نمطى ، ونوع آخر إبداعى . فالمنتج النمطى فى تصوره للصور الذهنية ، يكون مقتبساً اقتباساً مما هو شائع حوله ، أو مما تلقاه وعلَّمه له غيره ، ثم يمر بعد ذلك فى الخطوات التالية — التى ذكرناها قبلاً — التى تتلو تكوين الصور الذهنية . أما بالنسبة للمنتج المبدع ، فإنه فى ترسُّمه للصور الذهنية التى يبغى إحالتها إلى النطاق التركيبى الإنتاجى ، حتى وإن كان يستفيد مما سبق له كَسْبه نتيجة احتكاكه أو تعلُّمه من الكتب وغيرها ، فإنه يتخذ مما سبق أن تعلمه خامة ذهنية يقوم بتصنيعها وإحالتها إلى صور ذهنية جديدة خاصة به . فهو يبدع صوراً ذهنية مبتكرة انطلاقاً من خبرته السابقة ، ثم يمر فى الخطوات التالية التى ذكرناها قبلاً .

ثانياً — الضغط الخارجى والانبعاث الداخلى :

وكما أن هناك نوعين من المنتجين : نوع نمطى ، وآخر إبداعى ، كذا فإن هناك منتجين يساقون من الخارج و يُجْبرون على تقديم منتجات محددة من قبل ، بينما هناك نوع آخر من المنتجين يقدمون إنتاجاً غير مَسْبُوق نتيجة ما يتفجر فى قوامهم الداخلى من طاقات إبداعية . فالنوع الأول من المنتجين يكون إنتاجهم مصطبغاً بالصبغة الاجتماعية ، بينما يكون النوع الثانى مصطبغاً بالصبغة الفردية . بيد أن الإنتاج الفردى يستحيل بالانتشار والتعميم إلى إنتاج جمعى .

ثالثاً — التوافيق والتباديل :

فصاحب إرادة التركيب من النوع المبدع الذى ينبعث من دخيلته مستفيداً و مُطَوِّعاً للإمكانات الخارجية التى استفادها من المجتمع المحيط به ، يعمد إلى إقامة علاقات كثيرة ومتباينة بين مقومات الموقف وينتقى من بينها . فأمامه مجال متسع للغاية للاختيار بفضل قدرته على عمل توافيق وتباديل فيما بين مقومات الموقف الذى يعتمل فيه ذهنه . فهو يدأب على عمل تلك التوافيق والتباديل . فكلما انتهى من تنفيذ إحدى الخطوات الإنتاجية ، فإنه يقوم بعمل توافيق وتباديل جديدة . ولقد يستعين فى ذلك بالكومبيوتر الذى يقدِّم إليه العديد من تلك التوافيق والتباديل . وقد يشترك الكثير من المخططين فى الإفادة من تلك التوافيق والتباديل التى يقدمها الكومبيوتر . وبذا فإن الإنتاج يتسم بالخصوبة والتنوع والكثرة والتدفق المستمر .

رابعاً — المبدأ الاقتصادى فى الإنتاج :

فصاحب الإرادة التركيبية يستهدى بالمبدأ الاقتصادى فى عملياته

التركيبية الذهنية وفيما يقوم بإنشائه من صور ذهنية لما يبغى تركيبه بالفعل. ذلك المبدأ هو المبدأ الاقتصادى ، أعنى تحرِّى الاقتصاد فى التكاليف وجودة الإنتاج وكثرته وتوفير الفرص أمام إمكان انتشاره وتسويقه على أوسع نطاق ممكن . إذن فصاحب الإرادة التركيبية لايستقل تماماً عن الواقع الخارجى ، ولايضرب صفحاً عن إمكاناته ورغباته وحاجاته ، بل يأخذ ذلك الواقع الخارجى فى اعتباره ولا يغض عنه ولا يقلل من شأنه .

خامساً — التنافس والتعاون :

فأصحاب الإرادة التركيبية فى اشتغالهم بالإنتاج يتذرعون بآليتين هما : آلية التنافس من جهة ، وآلية التعاون من جهة أخرى . فبينما يتعاون كل منهم مع غيره من زملاء فى أداء عمل مشترك بينهم ، فإنه يتنافس مع أشخاص آخرين بإزاء ذلك العمل نفسه . ولقد يتم التعاون فى عمليات بنائية بين مجموعة من الأشخاص من أصحاب الإرادة التركيبية ، بينما ينشأ التنافس بين مجموعتهم ومجموعة أو مجموعات أخرى بإزاء تلك العمليات البنائية ذاتها . ومما لاشك فيه أن التعاون والتنافس إذا ما احتدما فى الموقف الإنتاجى ، فإن النتيجة تكون لصالح الإنتاج ، إذ يزداد كماً ويرتفع مستواه كيفاً .

□ إرادة التوظيف والإنتاج :

علينا أن ننحو المنحى نفسه الذى انتحينا إليه فى الموضوعات الأربعة السابقة التى تنخرط جميعاً تحت عنوان «الإرادة والإنتاج» وذلك بالتعريف بما نقصده من استخدامنا للفظ « إرادة التوظيف » قبل أن نشرع فى إيضاح العلاقة بين هذه الإرادة وبين الإنتاج ، فيتضح لنا أن مفهوم « إرادة التوظيف » يتضمن المقومات التالية :

أولاً — ترجمة الرغبات والحاجات إلى صور ذهنية معقولة :

فالواقع أن المرء يحس بما يعتمل بين أضلعه من رغبات وحاجات قبل أن يتسنى له إدراكها ذهنياً . والرغبة تختلف عن الحاجة ، وقد تتعارض معها فى بعض الأحيان . فالطعام قد يكون موضوعاً للرغبة والحاجة معاً ، إذ يكون مفيداً للمرء الذى يتناوله ، ولكن فى بعض الحالات تكون لدى المرء رغبة فى تناول نوع معين من الطعـــام ، تعارض تناوله مع حاجته ويضر صحته . وكذا فإن الدواء المـُـرّ قد يتنافى مع الرغبة فى تناوله ، ولكن حاجة المرء إلى تعاطيه تحتم ذلك . والواقع أن الإحساس بالرغبة أو بالحاجة قد يكون متوافراً لدى المرء ، ولكنه لا يستطيع إحالة ما يحس به وجدانياً إلى مدركات عقلية واضحة المعالم . فقد يحس شخص ما بالجوع ، ولكن بسبب انهماكه فى المشاغل المتباينة لايدرك عقلياً أنه جائع أو لا تتوافر فى ذهنه المدركات الذهنيـة المتعلقة بالطعام . فلابد من إحالة المشاعر الوجدانية المتعلقة بالرغبات والحاجات إلى تصورات ذهنية محددة .

ثانياً — وضع الخطة العملية لإحالة الصور الذهنية إلى ممارسات عملية :

وبعد بَلْـورة الرغبات والحاجات إلى صور ذهنية محددة المعالم ، يكون على المـرء أن يضع الخطط الموضوعية التى يتسنى له بواسطتها إحالة تلك التصورات الذهنية إلى خطط عملية يمكن أن تقوم بترجمة تلك التصورات الذهنية إلى واقع بالفعل . ولكن من الواجب أن يتحرز المرء من الإفراط ومن التفريط فى وضع تلك الخطة العملية . فعليه ألا يضـع خطة طموحة مبالغاً فيها ، كما يجب أن لا يضع خطة تقْـصُر عن الوفاء بترجمة التصورات الذهنية إلى خطط عملية .

ثالثاً — عقد المقارنات بين الخطة التي تم وضعها وبين الفوائد التي يمكن أن تترتب عليها :

وبعد هذا يقوم المرء بعقد المقارنات فيما بين تلك الخطة التي قام بوضعها وبين ما يمكن أن يترتب على تنفيذها من نتائج . فهو يسائل نفسه : هل ما يتأتى عن تنفيذها من فوائد ونتائج يتوازى ويساوى الجهد والنفقات المبذولة فى التنفيذ ؟ وبتعبير آخر فإن المرء يستعين بالمحك الاقتصادى لتقييم الخطة التي يعتزم تنفيذها قبل الشروع فى تنفيذها بالفعل. ومن الطبيعى أن تتضمن هذه الخطوة الحذف والإضافة ، والتقديم والتأخير ، والتمييز بين الأهم والمهم . وفى الوقت نفسه فإنه ينظر إلى الخطة التي وضعها بنظرة كلية شاملة ، أعنى بنظرة جشطلتية ، حتى يتسنى له الوقوف على النتائج التي سوف تتأتى عن تنفيذها باعتبارها الكلى الشامل .

رابعاً — توفير إمكانات التنفيذ :

وتأتى هذه الخطوة بعد أن يكون المرء قد اقتنع تماماً بأن خطته التي سوف يضطلع بتنفيذها ترضيه تماماً . فهو يبدأ فى توفير طاقتين : الطاقة المادية المتمثلة فى الإمكانات المادية ، والطاقة الحيوية المتعلقة بالجهد البيولوجى والسيكولوجى الذى يجب أن يتوافر لديه حتى يتسنى له الاستمرار فى تنفيذ خطته حتى نهايتها . ولا شك أن الطاقة النفسية التي يُعِدها المرء لتنفيذ خطته لا تقل فى أهميتها عن أهمية الطاقة المادية ، أعنى إمكانات التنفيذ العملية . ذلك أن هناك تفاعلاً ديناميكياً فيما بين تلك الإمكانات أو الطاقة المادية وبين الطاقة البيولوجية السيكولوجية المتمثلة فى شخصية المرء المنفِّذ للخطة ، وهى ما أطلقنا عليه اسم « إرادة التوظيف » .

خامساً — التوظيف المباشر والتوظيفات غير المباشرة :

ونأتى أخيراً إلى ما بعد تنفيذ الخطة ، أعنى الممارسة العملية الأدائية . وفى هذه المرحلة يقوم المرء بتقييم ما تم تنفيذه ، فيسائل نفسه عن مدى رضاه عما قام بتنفيذه وتوظيفه. فهل ما تم تنفيذه قد وُظِّف التوظيف المناسب والمُرْضى ، أم أنه لم يحقق الأهداف المرجوّة منه؟ ومن الطبيعى أن يتبع النتائج التى تترتب على ذلك التقييم ممارسات مستمرة تعمل على التقدم بالعمليات المؤداة إلى الأمام .

وبعد أن قمنا بإلقاء الضوء على مفهوم « إرادة التوظيف » ، فإن علينا أن نحاول كشف النقاب عن العلاقة القائمة فيما بين « إرادة التوظيف » وبين الإنتاج ، فنجد أن هذه العلاقة تتبدى على النحو التالى :

أولاً — التسلح بفلسفة برجماتية فى الإنتاج :

فصاحب « إرادة التوظيف » ينصرف بذهنه عن الشكليات ، ولا يجعل من الروتين سوى أداة مِطْواعة لاسيدة عليه تكبِّله بالشكائم التى تحول بينه وبين الأداء العملى . فالواقع أن النظرة البرجماتية تعتمد على تحرِّى النتائج المفيدة — بالمعنى الواسع للكلمة — وصرف النظر عن الشكليات التى لا تُفْضى إلى أية نتائج . خذ مثالاً لذلك بشكلية الالتزام بمواعيد الحضور والانصراف ، بغض النظر عما يقوم الموظف أو العامل بإنتاجه من عمل . فالنظرة البرجماتية يهمها ما يضطلع الموظف أو العامل به بالفعل وما ينتجه .

ثانياً — تطوير الوسائل المستخدمة :

وإرادة التوظيف لا تهتم بالمضمون الإنتاجى فحسب ، بل تهتم أيضاً بالوسائل التى تستخدم فى الإنتاج . فهذه الإرادة التوظيفية هى إرادة تطويرية أيضاً . ذلك أنها تدأب على التشوُّف باستمرار إلى وسائل إنتاج

تقـدم إنتاجاً أغزر فى وقت أقـل وبتكلفة اقتصادية معقولة وبمستوى إنتاجى أفضل . فكلما اعتملت هذه الإرادة التوظيفية فى تطـوير الوسائل المستخدمة ، فإنها تتقدم بمستوى هذه الوسائل وتعمل على تطويرها ، بل إنها قد تكتشف وسائل غير مسبوقة أكثر نجوعاً فتحلها محل الوسائل المستخدمة بالفعل .

ثالثاً — تطوير معلومات ومهارات المرء والعمل على تفاعل المعلومات والمهارات الجديدة مع المعلومات والمهارات السابقة :

فكلما اعتملت إرادة التوظيف فى المجـال الإنتاجى وفى وسائله المستخدمة، فإن المرء يعمِـد إلى زيادة معلوماته ومهاراته باستمرار . ذلك أنه يحس بالحاجة إلى تجديد وتطوير وتحديث معلوماته ومهاراته حتى يستمر التطور الإنتاجى فى تقدم مطَّـرد .

رابعاً — الإفادة من معلومات وخبرات الآخرين :

وحتى يتسنى للمرء أن يتطور بمعلوماته ومهاراته ، فلا بد أن يدأب باستمرار على أن يستفيد من معلومات ومهارات الآخرين من حوله ، بل عليه أن يرجع أيضاً إلى المصادر المعرفية المكتوبة والمسموعة والمرئية حتى يستمر فى تطوير فكره وأدائه بغير توقف .

خامساً — التقييم المستمر لمـا يتم إنتاجه وعقد مقارنة بين الماضى والحاضر والمستقبل :

فلا يكفى أن يتطور المرء بإنتاجيته كماً وكيفاً ، بل لا بد أن يضطلع بعملية تقييم مستمرة ، فيقارن بين ما تم إنتاجه فى المـاضى ، وما يتم إنتاجه حالياً ، وما سـوف يتم إنتاجه فى المستقبل . فالتقييم يستهدف التوظيف المستقبلى الذى لا يتسنى تحقيقه إلا بمقـارنة ماضى الإنتـاج بحاضره تحسُّباً لما سوف يكون عليه فى المستقبل .

* * *

الفصل السابع
الخبرة والانتاج

□ الخبرة الأدائية والإنتاج :

علينا قبل إلقاء الضوء على علاقة الخبرة بمعانيها المتباينة بالإنتاج – وهى المعانى التى سوف نعرض لها فى هذا الفصل – أن نقدم تعريفاً للخبرة التى يكتسبها المرء نتيجة تعامله واحتكاكه بالبيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية ، فنجد أن مفهوم الخبرة يتضمن الجوانب التالية :

أولا – الاستقبال التأثرى :

فالأساس الأول فى اكتساب الخبرة هو قدرة المرء على استقبال المؤثرات البيئية ، سواء تلك المؤثرات التى يتلقاها من البيئية الطبيعية والاجتماعية المباشِرة ، أم تلك المؤثرات الرمزية غير المباشرة ، أعنى الكلام المقروء والصور الثابتة والمتحركة على شاشات التليفزيون أو السينما . فما لم يكن المرء مستعداً وقابلاً لتلقى تلك المؤثرات التى تصدر إليه من خارجيته ، ماكان له إذن أن يكتسب الخبرة .

ثانياً – تفاعل المؤثرات السابقة مع المؤثرات الجديدة :

ومن الشروط الواجب توافرها حتى يتسنى اكتساب الخبرة ، حدوث تفاعلات ديناميَّة فيما بين الحصيلة الخِبْرية التى سبق أن اكتسبها المرء وبين المؤثرات البيئية الجديدة . وهذا التفاعل يتم بطريقة لاشعورية أعنى أن المرء لا يتدخل بوعيه وإرادته فى سَوْق وصياغة تلك التفاعلات .

ثالثاً – الفروق الفردية :

فالواقع أن التفاعلات الخِبْرية التى تنشأ بين ما يتلقاه الأفـراد المتباينون من مؤثرات خـارجية تتباين كماً وكيفاً من شخص لآخر . وأكثر من هذا فإن تلك التفاعلات الخِبْرية تختلف لدى الشخص الواحد من سن إلى سن أخرى ، ومن مستوى ثقافى يحصل عليه إلى مستوى ثقافى تالٍ يرقى إليه . وهناك عوامل وراثية وتربوية تتحكم فى تحديد تلك الفروق الفردية ، منها مستوى ذكاء الفرد ومواهبه الخاصة واستعداداته وميوله ورغباته وحبه أو كراهيته للمجال الخبرى الذى ينخرط فى إطاره وما اكتسبه من اتجاهات وعُقَد نفسية قد تَحُول بينه وبين الإقبال على اكتساب خبرات من نوع معين أو خبرات تتعلق بمجالات معينة .

رابعاً – توظيف المكتَسبات الخِبْرية :

فلكى تكتسب الخبرة على النحو المكين وبطريقة تكاملية ، لا بد أن يتم توظيفها فى مواقف مختلفة . وبتعبير آخـر فإن الخبرة المتكاملة تتخذ اتجاهين : أحدهما الاتجاه الاستقبالى ، والثانى الاتجاه التصديرى . فالخبرة التى لا يتم توظيفها فى الواقع العملى ، تكون خبرة شائهة خَرْساء ، أو تكون خبرة مُجْهَضة لا تتسم بالحياة والحيوية .

خامساً – الدعم الخِبْرى :

فالخِبْرة شأنها شأن الكائن الحى الذى لا يُكْفل له الاستمرار على قيد الحياة إلا إذا استمر فى التغذى بالمقومات الغذائية المناسبة له . فلابد من الاستمرار فى دعم الخبرة المكتسبة بالمقومات الغذائية المناسبة لها ، فتضمن بذلك استمرار البقاء والتقدم المطَّرد والانتعاش المستمر والحيوية الدائبة . ومعنى هذا أن الشخص الذى يتوقف عن تلَقِّى ما يدعم الخبرات

التى سبق له اكتسابها، لا بد أن ينكمش خِبْرياً، أو بالأحرى فإن خبراته التى سبق له اكتسابها تَـضْمُـر وتفقد حيويتها وتموت فى نهاية الأمر .

وبعد أن قدمنا هذه الشروط الخمسة التى تتضمن التعريف بمفهوم الخبرة بشكل عام، فإن علينا أن نلقى الضوء على مفهوم الخبرة الأدائية، فنجد أن هذا النوع من الخبرة يتضمن المقوِّمات التالية :

أولاً — اكتساب مهارات أدائية معينة :

فالخبرة الأدائية تعتمد على ماسبق للمرء صاحب تلك الخبرة الأدائية اكتسابه من مهارات أدائية يمارسها بطريقة شبه لا شعورية ، أو بتعبير آخـر فإنها تكون عبارة عن عادات حركية مهارية سبق أن اكتسبها المرء بالتقليد والتكرار والتوظيف فى مواقف أدائية متباينة .

ثانياً — وجود نموذج أدائى يجب تحقيقه :

فالخبرة الأدائية تستلزم وجود نموذج أدائى يضعه المرء نصب عينيه ويحاول تحقيقه بالممارسة العملية . وسواء كان ذلك النموذج مفروضاً عليه من الآخرين ، أم كان من إبداعه شخصياً ، فلابد من توافره أمام ذهنه فيدركه إدراكاً عقلياً واضحاً من جهة، ويرغب فى تحقيقه من جهة ثانية ، ويُجَنِّد له الطاقة الحيوية اللازمة لتحقيقه بالفعل من جهة ثالثة .

ثالثاً — التعاون مع الآخرين :

فلكى تتحقق الخبرة الأدائية على خير وجه ، فلا بد أن تتضمن التعاون مع الآخـرين . بيد أن التعاون فى الخبرة الأدائية قد يكون تعاوناً مباشراً ، كما أنه قد يكون تعاوناً غير مباشر . خذ مثالاً للتعاون المباشر بالعامل الذى يشترك مع عامل آخر أو أكثر فى أداء مهمة عملية مشتركة

فيما بينهما . أما بالنسبة للتعاون غير المباشر فمن أمثلته ما أقـوم به حالياً من تأليف هذا الكتاب . فعلى الرغم من أنى أستقل فى تأليفه ولا يشترك معى أحد فى كتابة سطوره ، فإن ثمة أشخاصاً كثيرين سوف يتعاونون معى فى إخراجه فى شكل كتاب مطبوع . فعلى الرغم من أنه لا توجد صلة مباشرة بينى وبين من سوف يُسْهمون فى إخراجه النهائى ، فإن هذا لا ينفى عن ممارستى للتأليف صفة التعاون المشترك بينى وبين أولئك الأشخاص الذين لا أتعاون معهم بطريقة مباشرة ، بل بطريقة غير مباشرة .

رابعاً — المحاولة والخطأ :

فالواقع أن الخبرة الأدائية لا تُكتسب بانتهـاج طريق الصواب مباشرة ، بل يتم اكتسابها عن طريق المحاولة والخطأ . وبتعبير آخر فإن الخطأ فى الأداء يقل ويتقلص شيئاً فشيئاً إلى أن تصـل الخبرة فى مستواها إلى ما يقرب من الكمال النسبى .

خامساً — التدفق التكنولوجى واستمرار الخبرة الأدائية :

فكلما تقدمت الحضارة ، تقدمت معها التكنولوجيا ، وبالتالى فإن كل تكنولوجيا جديدة تتطلب اكتساب مهارات خِبْرية أدائية جديدة . ومعنى هذا أن الخبرة الأدائية متطوِّرة باستمرار ، ولا يمكن حصرها فى قوالب جامدة لا تتغير أو تتعدل . فمفهوم هذه الخبرة الأدائية يجب أن يكون مفهوماً ديناميأ فى الأذهان وليس مفهوماً استاتيكياً .

وعلينا بعد أن قمنا بإلقاء الضوء على الخبرة الأدائية أن نحاول كشف النقاب عن علاقة هذا النوع من الخبرة بالإنتاج ، فنجد أن هـذه العلاقة يمكن أن تتحدد على النحو التالى :

أولاً – تقدم الإنتاج مع تقـدم الخبرة الأدائية :

فكلما تقدمت الخبرة الأدائية وغَـزُرت كماً وتحسنت كيفاً ، فإن فرص الإنتاج تكون أكثر اتساعاً وإيجابية .

ثانياً – صراع الخبرات الأدائية فى العمليات الإنتاجية :

فالواقع أن الخبرات الأدائيـة المتباينة لا يُكْـفل لها البقاء بشكل مؤبَّـد ، بل يُحـْكم على بعض منهـا بالفناء والموت ، وذلك بعد أن تَـصْرعه خبرات أدائية جديدة تتفوق عليها وتثبت جـدارتها فى النهوض بالعمليات الإنتاجية ، سواء من حيث زيادة الكم ، أم من حيث الارتفاع بمستوى الكيف الإنتاجى . فالخبرة الأدائية التى كانت منوطة باستخدام النول اليدوى مثلاً ، قد ماتت مع ظهور وانتشار النول الآلى . وقس على هذا جميع الخبرات الأدائية التى تتلاشى وتموت لتحل محلها خبرات أدائية جديدة أفضل منها . فلكأن هناك صراعاً بين الخبرات الأدائية على البقاء كما هو حادث بالنسبة للكائنات الحية فى معركة البقاء .

ثالثاً – المعرفة تسبق الخبرة الأدائية الإنتاجية :

فبعد أن كان اكتساب الخبرات الأدائية قديماً يتم عن طريق التقايد المباشر ، فإن التقدم العلمى والتكنولوجى ، استلزم قيام المرء باكتساب قاعدة معرفية علمية عريضة قبل أن يبدأ فى تعلم الخبرة الأدائية الجديدة . فقبل أن يبدأ العامل فى التمرن على الخبرة الأدائية المتعلقة بإحدى الآلات الدقيقة ، فإن عليه أن يكتسب أولاً معرفة علمية عريضة تعتمد عليها تلك الخبرة الأدائية حتى يتسنى له البدء فى التمرس بالمهارات الأدائية المتعلقة بتشغيل تلك الآلة . فالإنتاج الذى يقدمه مثل ذلك العامل يكون مَسْبوقاً بتلك المعرفة العلمية التى تسبق تدرُّبه على استخدامها .

□ الخبرة العلائقية والإنتاج :

بدأنا فى الموضوع السابق بتعريف « الخبرة » بشكل عام ، ثم قمنا بعد ذلك بتقديم ما يتضمنه مفهوم « الخبرة الأدائية » من مقومات . وفى هذا المقام علينا أن نبدأ بتقديم المقوِّمات التى يتضمنها مفهوم « الخبرة العلائقية » حتى يتسنى لنا بعد ذلك أن نلقى الضوء على العلاقة بين هذا المفهوم وبين الإنتاج ، فنجد أن مفهوم « الخبرة العلائقية » يمكن أن يتحدد على النحو التالى :

أولاً — الاستعداد العلائقى :

فلدى الإنسان — كائناً من يكون — استعداد غريزى فطرى لأن ينشئ علاقات اجتماعية مع الأفـراد والجماعات . صحيح أن الجِبلّـة البشرية تتضمن نوعـين من الاستعدادات : استعداد علائقى ينحو به إلى إقامة علاقات بالآخرين ، واستعداد فردى ينحو به إلى الانكفاء على ذاته فيعتكف وحده . وكلما حقق المـرء توازناً فيما بين هذين النوعين من الاستعدادات ، فإنه يكون بالتالى أكثر تمتعاً بالصحة النفسية الجيدة ، بل ويكون خليقاً بتحقيق التواؤم مع المجتمع من جهة ، ومع ذاته من جهة أخرى .

ثانياً — تفاعلية المؤثرات العلائقية :

فما يتلقاه المرء من انطباعات نتيجة اتصالاته بالآخرين وتأثيرهم فى قوام شخصيته ، لا يتراكم بعضه فوق بعض ، بل يتفاعل بعضه مع بعض . بيد أن بعض الانطباعات العلائقية لا يخضع للتفاعل ، بل يظل بمثابة قطع مستقلة ، قد يتأجل انخراطها فى نطاق العمليات التفاعلية ، كما قد تظل غير قابلة للانخراط فى نطاق تلك العمليات التفاعلية . ولكن

بصفة عامة فإن الانطباعات التى يتلقاها المرء نتيجة علاقاته بالآخرين تنخرط فى العمليات التفاعلية ، فيتأتى عن ذلك مركبات خِبْرية علائقية.

ثالثاً — الدور الذى يلعبه اللاشعور :

الواقع أن العمليات التفاعلية لا تتم على المستوى الشعورى ، بل تتم على المستوى اللاشعورى . وبتعبير آخر فإن تلك العمليات لا تتم بطريقة ميكانيكية ، بل تتم بطريقة ديناميكية ، أى أنها تعتمل فى دخيلة المرء ولا تكون مفروضة عليه فرضاً من خارج نطاقه . فما يتلقاه من انطباعات خارجية يمر فى مرحلتين : مرحلة شعورية يكون واعياً خلالها بما يتلقاه من خارجيته ، ومرحلة لا شعورية تكون خارج نطاقه الشعورى وبعيداً عن مجال إدراكه ووعيه .

رابعاً — استمرارية التفاعلات الخبرية العلائقية :

فعلى الرغم من أن المرء ينقطع خلال فترات اعتكافه وخُلْوته عن المؤثرات العلائقية الاجتماعية الخارجية ويتخلص من الضغوط التى يفرضها المجتمع عليه ، فإنه يدأب على الانخراط فى نطاق تلك التفاعلات العلائقية . فالشأن هنا كالشأن بإزاء استمرار العمليات الهضمية فى عملها خلال الوقت الواقع بين الوجبات وما يتأتى عنها من أنشطة حيوية متباينة .

خامساً — التأثر والتأثير :

فلكى تكتمل « الخبرة العلائقية » لا بد من أن يتخذ المرء موقفاً إيجابياً تصديرياً إلى جانب اتخاذه موقفاً سلبياً استقبالياً . فالخبرة العلائقية تشبه التيار الكهربائى الذى لا ينساب إلا بوجود سلك سالب وسلك آخر موجب . فهذه الخبرة العلائقية لا تتوافر للمرء إلا عن طريق الأخذ والعطاء ، أو التأثر والتأثير ، أو الانطباع بالخبرات الاجتماعية الخارجية

وتصدير ما يعبّر عن التفاعلات الخبرية التى تخضع لها تلك الانطباعات الخِبْرية التى تلقاها المرء من خارجيته .

وعلينا بعد تعريفنا بالخبرة العلائقية أن نلقى الضوء على علاقة هذه الخبرة بالإنتاج ، فنجد أن هذه العلاقة يمكن أن تتحدد على النحو التالى :

أولاً — الطابع الاجتماعى الشخصى فى الإنتاج :

فالخبرة العلائقية تجمع فى نطاقها المِسْحة الاجتماعية الخاصة بالمجتمع الذى يتعامل معه المرء والمِسْحة الذاتية الخاصة به شخصياً . فهى تشبه الماء باعتباره مركباً من غازين هما الأيدروجين والأكسجين . فالخبرة العلائقية مركّبة من الطابع الاجتماعى والطابع الشخصى فى الوقت نفسه . وإذا نحن نظرنا إلى مجموعة من المشتغلين فى نشاط إنتاجى معين ، واعتبرنا تلك المجموعة بمثابة شخصية واحدة ، فإننا نجد أن الخبرات التى تتلقاها تلك المجموعة من خارج نطاقها لا تظل على حالها كما استوردتها من الخارج ، بل تصطبغ بصبغتها الجمعية الفردية الخاصة بها ؛ وقد استحالت لديها إلى عصارة مركّبة ذاتياً . وبذا فإن إنتاجها يتميز من نتاجات سواها من مجموعات تعمل فى المجال الإنتاجى ذاته .

ثانياً — تَحَسُّن الإنتاجية باستمرار :

فكلما انخرط المرء أو انخرطت المجموعة المُنتجة فى تفاعلات علائقية أكثر كماً وأعلى مستوى ، فإن ما تقوم بإنتاجه يزداد كماً باستمرار ويتحسن باطّراد. فالتقدم الذى يحرزه المرء أو تحرزه المجموعة الإنتاجية مَرَدُّه إلى تلك التفاعلات العلائقية التى تُفْضى إلى الارتفاع بمستوى الخبرة العلائقية التى بحوزتها .

ثالثاً — تدهور الإنتاج مع تدهور الخِبْرة العلائقية :

فعندما يتوقف الشخص المنتج عن الانخراط فى التفاعلات الخِبْرية

العلائقية ، فإن مستواه الإنتاجى يهبط إلى الحضيض . أو على الأقل فإن إنتاجيته تتصف بالجمود والتوقف عن التقدم والتحسُّن . وهذا مانلاحظه فى مراحل العمر المتأخرة بالنسبة لمن ينخرطون فى الشيخوخة من المنتجين . وكذا الحال بإزاء المنتجين الذين يصابون بالأمراض الجسمية والنفسية أياً كان المجال الإنتاجى الذى يعملون فيه .

□ الخِبرة الإبداعية والإنتاج :

علينا أن نبدأ بإلقاء الضوء على مفهوم « الخِبْرة الإبداعية » قبل أن نقوم بتبيان العلاقة بينها وبين الإنتاج ، فنجد أن هذا المفهوم يتضمن المقوِّمات التالية :

أولاً ــ مستوى التفاعلات الخبرية :

فالواقع أن التفاعلات الخِبْرية وإن كانت تعتبر شرطاً أساسياً فى اكتساب أى خبرة ــ كائنة ما تكون ــ فإنها بالنسبة للخِبْرة الإبداعية تتَّسم بأنها على مستوى كبير من الدقة والعمق والخصوبة . فليست جميع نتاجات التفاعلات الخِبْرية على المستوى نفسه من الدقة والعمق والجِدَّة . فتلك التفاعلات الخِبْرية فى حالة الخِبْرة الإبداعية تتَّسم بالأصالة ، بل وبالنُّدْرة . فكما أن التفاعلات الكيميائية التى تؤدى إلى تكوين مركَّبات نادرة كالجواهر الثمينة ليست شائعة فى مجال التفاعلات الكيميائية ، كذا فإن التفاعلات الخِبْرية التى تسبق تكوين الخِبْرة الإبداعية تكون نادرة وغير شائعة لدى كثير من الناس ، بل تختص بها قلة قليلة منهم .

ثانياً ــ مستوى المهارات التعبيرية :

فثمة فى محازاة المضمون النفيس الذى تتسم به التفاعلات الخِبْرية

فى حالة الخبرة الإبداعية ، توجد المهارات التعبيرية التى تتكافأ مع القيمة العظيمة التى تَتَّسم بها تلك التفاعلات الخبرية النادرة . فالمبدع يَكْلف كل الكَلَف بالوسائل التى يُعَبِّر بها عن حصيلته الخبرية الإبداعية . ولقد نقول إن المضمون الخِبْرى الإبداعى والطرائق التى يعبر بها المبدع عنه يعتبران وجهين لعُمْلة واحدة ، بمعنى أننا لا نستطيع أن نفرِّق بينهما أو أن نرجِّح كفة من كفتيهما على الكفة الأخرى . فالمضمون ووسيلة التعبير يتكاملان ، بل ويُكْمل كل منهما الآخر ويقعان على المستوى نفسه من الأهمية والخطورة .

ثالثاً — النمو المتآزر بين المضمون والوسيلة :

فمنذ طفولة المرء المفعم بالاستعدادات الإبداعية وهو يُدَرِّب نفسه على اكتساب المضمون الخِبْرى من جهة ، وعلى اكتساب وسائل التعبير عن ذلك المضمون من جهة أخرى . فهو لا يتوقف عن التحصيل الخِبْرى ، ولا عن التدرب على وسائل التعبير الناجعة عن ذلك المضمون . فنموه التحصيلى ، أو قل بتعبير أدق نموه الناجم عن التفاعلات الخِبْرية التى تتعلق بالمضمون الخِبْرى تُمَاشى ولا تَنْقص أو تزيد عن نموه فيما يتعلق بوسائل الإبانة عن ذلك المضمون . ومعنى هذا فى الواقع أن الشخص المبدع يبدأ فى الإبانة الإبداعية منذ طفولته ، فيكون مستقبلاً ومتفاعلاً مع ما يستقبله من مقومات خبرية ، كما يكون مُرْسِلاً ومصدِّراً لما يعبر به عن تلك المركبات الخِبْرية التى تأتت له نتيجة إحرازه لتلك التفاعلات الخِبْرية الدقيقة والعظيمة والفريدة فى الوقت نفسه .

رابعاً — سَبْر آفاق المجهول :

بيد أن المبدع منذ طفولته يكون كَلِفاً بالجديد غير المسبوق . فهو

يهتم أكثر ما يهتم بتحصيل الخِبْرات التي تتسم بالجِدّة وعدم الشيوع . صحيح أنه يكتسب أيضاً الخبرات الشائعة ، ولكن كَلَفه بالخبرات غير الشائعة بل والنادرة ، يفوق كَلَفه بالخبرات الشائعة . فهو يعمد إلى انتقاء المؤثرات الخِبْرية النادرة لكي تنخرط في عملياته التفاعلية الخِبْرية فيتأتى عن تلك التفاعلات مركّبات خِبْرية نادرة وغير شائعة .

خامساً — المحاولة والخطأ :

والشخص المبدع يتسم بالمغامرة والجرأة وعدم تهيب الانخراط في آفاق جديدة أو الاستعانة بوسائل غير مسبوقة من الأداء والتعبير عما تم له إحرازه من مركّبات خِبْرية تتسم بالإبداع وعدم الشيوع . وهو في هذا لا يخشى الوقوع في الأخطاء كما لا يخشى من نقد النقاد له . وحتى وهو في طفولته فإنه يكون عنيداً بإزاء ما يوجهه له الكبار من نقد وتعنيف أو بإزاء ما يُوقعونه عليه من عقوبات . فهو يؤمن بالجديد المبتكر أكثر بكثير من إيمانه بالنّمَطي المتكرر الذي يحاول الكبار والمعلمون إجباره على الالتزام به وعدم الحَيْدة عنه . ولكن المُبدع يحاول في الوقت نفسه نقد نفسه حتى يتخلص من نقاط الضعف ،وحتى يتخفف من الأخطاء التي يتردّى فيها . سواء من حيث المضمون الخِبْري ، أم من حيث وسائل التعبير عن ذلك المضمون . ومعنى هذا أن المبدع يدأب على مراجعة ما تم التوصل إليه من أعمال إبداعية ، فيكرر عمليات التصحيح والتنقيح إلى أن يحس بالرضا عما تم له إنجازه من مبتكرات إبداعية .

وبعد أن قمنا بتقديم السِّمات التي تتصف بها الخبرة الإبداعية ،

فإن علينا أن نلقى الضوء على العلاقة بين هذه الخبرة وبين الإنتاج ، فنجد أن تلك العلاقة تتمثل فيما يأتى :

أولاً — التقدم بالحضارة البشرية :

فلولا المبدعين فى شتى العصـــور منذ أن بزغت الحضارة على الأرض ، ما كان للبشرية أن تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام . فبفضل الخِـبْرة الإبداعية التى ظلت تتأتى للمبدعين عبر العصور المتعاقبة ، نشأت الآداب والفنون والفلسفات والعلوم والتكنولوجيات المتباينة وجميع الإبداعات البشرية .

ثانياً — التغلب على الصِّعاب والمشكلات والتخلص من الأمراض ومن أسباب الكوارث :

فالواقـــع أن للمبدعين الفضل فى مجابهـة المشكلات والصعاب والكوارث والأمراض الفتَّـاكة وكل ما من شأنه القضاء على البهجة من الحياة . فبفضل المبدعين اختُـرِعت وسائل الترفيه التى تُـشيع السعادة فى قلوب الصغار والكبار على السواء . فجميع مظاهر الرفاهية التى تتصف بها الحضارة يرجع الفضل فى وجودها وازدهارها إلى ما اعتمل فى عقول العباقرة من مركَّـبات خِـبْرية إبداعية . صحيح أن بعضاً من المركَّـبات الخبرية الإبداعية قد أفْـضَى إلى اختراع أسلحـة الدمار ، وإلى تصحر الأراضى الزراعية ، وإلى انتشار بعض الأمراض الفتاكة بسبب تخليق فيروسات لم تكن موجودة بالطبيعة ، ولكن هذا لايجعلنا نَـغْـمِـطَ حق المبدعين بوجه عام حقهم فى التقدير والامتنان .

ثالثاً — ترسُّم مستقبل أفضل :

فبفضل ما يُتَـوقع بزوغـــه إلى أرض الواقع من إبداعات مستقبلية

نتيجة تلك التفاعلات الخبرية الإبداعية لدى العباقرة ، فإن البشرية تتوقع مستقبلاً أفضل من الحاضر . فبين ظَهْرانينا من تتفتق عقولهم المبدعة عن فلسفات اجتماعية جديدة تنحو إلى نشر السلام والمحبة والوئام بين الشعوب ، فتتوقف الحروب الطاحنة ويحل التعاون والتسامح محل التناحر والتعصُّب . فالمبدعون لاينزعون جميعاً إلى إبداع وسائل مادية أو عدوانيـة ، بل ينزع البعض منهم أو حتى الكثير منهم إلى إبداع وسائل سامية غـير مسبوقة تتعلق بالعلاقات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات ، ويتناولون تلك العلاقات من منظور جديد يتسم بالتسامح والرقى الحضارى والتقدم بالبشرية إلى مَرَاقٍ عظيمة .

□ الخبرة الاقتصادية والإنتـاج :

علينـا أن نلقى الضـوء على مفهوم « الخبرة الاقتصادية » لنتبين جوانبها ومقوّماتها قبل أن نتفهم العلاقة بينها وبين الإنتاج ، فنجد أن هذه الخبرة تتضمن الجوانب أو المقومات التالية :

أولاً ـ استكشاف المواهب والإمكانات الشخصية :

فثمة مواهب وإمكانات كثيرة ومتباينة يكون لدى كل إنسان حظ كبير أو حظ ضئيل منها ، بضمنها تلك المواهب والإمكانات الخاصة بالكسب الاقتصادى ، وبضمنها أيضاً تلك المواهب والإمكانات التى لاتتعلق بذلك الكسب من قريب أو من بعيد . فلقد تجد فيلسوفاً أو عالماً أو أديباً يتمتع بمواهب وإمكانات إبداعية لا ترتبط على الإطلاق بالمسائل الاقتصادية . فهو يرنو إلى سَبْر أغوار المجال الثقافى الذى يهتم به ويكرِّس حياته له ، ولكنه يكون فى الوقت نفسه خالى الوفاض من تلك المواهب التى يتسنى عن طريقها إحراز المال أو الوقوف على الطرق التى يتسنى

بواسطتها اجتلاب المنافع الاقتصادية الضخمة . فثمة الكثير من العباقرة نبغوا فى المجالات التى انكبوا عليها ، ولكنهم عاشوا وماتوا فقراء ، لأنهم لم يكونوا حائزين على تلك المواهب والإمكانات الاقتصادية التى يتسنى عن طريقها إحراز الثروة من مصادرها التى لا يستطيع الكشف عن خباياها إلا أولئك الذين وهبوا تلك المواهب والإمكانات الاقتصادية.

ثانياً — الوقوف على الإمكانات الاقتصادية المتاحة بالمجتمع :

ولا يكفى بالطبع أن يكتشف المرء ما فى قوامه من استعدادات ومواهب وإمكانات ، بل عليه أن يكتشف أيضاً ما تزخر به البيئة من حوله من إمكانات اقتصادية يمكن استثمارها والكسب من وراء السعى بتجاهها وبذل الجهد فى سبيل الحصول على الخيرات نتيجة ذلك الاستثمار . والواقع أن الحضارة البشرية زاخرة بالتغيُّرات المستمرة والسريعة . وبتعبير آخر فإن آليات السوق متغيرة باستمرار . فإذا لم يستمر المرء فى ملاحقة حركة تلك الآليات بحيث لاتتركه وراءها وقد حكم عليه بالتخلف عما بلغته الحضارة من تغيُّرات اقتصادية ، فإنه لا يستطيع إذن أن ينخرط فى زُمْرَة الناجحين المتوافقين مع تلك التطورات الاقتصادية المتلاحقة بغير توقف أو تمهل .

ثالثاً — تحقيق التوازن المستمر بين الدخل والمنصرف :

فصاحب الخبرة الاقتصادية يتمتع بالقدرة على تحقيق التوازن بين ما يحصل عليه من دخل وبين ما ينفقه منه . فإذا ما اختل التوازن بين هاتين الكفتين بترجيح كفة المنصرف على كفة الدخل ، فإن النتيجة تكون وخيمة ويتعرض المرء بالتالى للفاقة والعَوَز . ولكن إذا رَجَحت كفة الدخل على كفة المنصرف ، فإن ذلك الرُّجْحان يكون لصالح

لمرء ، ولكن بشرط ألا يكون مصاباً بالبخل فيحرم نفسه وأسرته من المستوى المعيشى المناسب لدخله ، وألا يكون أنانياً فلا يمد يد العون لغيره من المحتاجين إلى مساعدته وتعضيدهم فى مجابهة مشكلاتهم الاقتصادية .

رابعاً — التوقعات المستقبلية :

وصاحب الخبرة الاقتصادية يكون فى الوقت نفسه صاحب نظرة توقُّعية تتعلق بما سوف يحمله المستقبل من تغيُّرات وتطورات . والواقع أن الأذكياء اقتصادياً لا يعتمدون على المصادفات السعيدة ، بل يتمتعون بقدرة هائلة على الربط فيما بين الماضى والحاضر والمستقبل وما تسير وَفْقه عجلة الاقتصاد والمناحى التى سوف تتجه إليها . فهم يشاهدون المستقبل بتوقعاته بوضوح تام كما لو أنه يحدث أمامهم لحظياً . وبالتالى فإنهم يَحْسبون له كل الحساب ، ويُعِدُّون له العدة المناسبة ، ولا يفاجأون بما يحمله من متغيرات أو من تطورات لايتسنى لغير الأذكياء اقتصادياً توقُّعها .

خامساً — الوقوف على الحلول الناجعة للمشكلات الاقتصادية :

وعلى الرغم من أن صاحب الخبرة الاقتصادية يقف على المستقبل بما سوف يحمله معه من تطورات ومتغيرات ، فإن ذلك لايحميه من مجابهة المشكلات المفاجئة التى يمكن أن تستجد على الساحة الاقتصادية . ولكن صاحب هذه الخبرة يكون خليقاً بالتوصل إلى الحلول المناسبة والحاسمة لتلك المشكلات التى تعترض طريقه . فهو يستعرض جميع الخيارات المتاحة أمامه فى كل موقف ، ثم يختار من بينها أفضلها وأنجعها بغير تواكُل أو تردد . فصاحب هذه الخبرة الاقتصادية يكون صاحب

نظرة ثاقبة بحيث يتسنى له الوقوف على الفروق الدقيقة بين الحلول المتاحة والممكنة، فيقف على أفضلها وأنجعها لحل المشكلات الاقتصادية التي تجابهه، وبالتالى فإنه يتخطى الصعاب بالاستعانة بذكائه الاقتصادى .

وبعد استعراضنا لهـذه المقومات الخمسة التى تتضمنها الخبرة الاقتصادية ، يبقى علينا أن نلقى الضوء على العلاقة القائمة فيما بين هـذه الخبرة وبين الإنتاج ، فنجد أن هذه العلاقة تتمثل فيما يلى :

أولاً — غزارة الإنتاج وجودته :

فمما لاشك فيه أن صاحب الخبرة الاقتصادية الذى عرضنا لمقومات موهبته الخِبْرية فى المجـال الاقتصادى ، يكون بالتأكيد صاحب إنتاجية غزيرة كماً ومرتفعة المستوى كيفاً بغير منازع . فهو لا يكون خاضعاً لمنطق المصادفات السعيدة أو الحظ الحسن ، بل يكون واقفاً على أرض صُلْبة لاتَمِيد من تحت قدميه ، كما يكون مستبيناً طريقه وواقفاً على الوسائل الاقتصادية التى يستعين بها بغير تخبُّط أو تردد أو تَوَجُّس .

ثانياً — تطويع المستقبل لأهدافه الاقتصادية :

وصاحب الخبرة الاقتصادية يكون مسيطراً على المستقبل كسيطرته على الحاضر . فهو يعرف بأكبر قدر من الترجيح ما عسى أن يحمله المستقبل من أحداث ووقائع بل ومفاجآت . ولكنها مفاجآت محسوبة فى الغالب بما وُهِبه من حس نتيجة اكتسابه لتلك الخبرة الاقتصادية . فهو يُعِد الوسائل المناسبة لملاقاة تلك المفاجآت ، بل ولما يمكن أن يبزغ من مفاجآت غير متوقعة . وبتعبير آخـر فإن صاحب الخبرة الاقتصادية يكون سيداً مهيمناً على الأحداث لاعبداً لها وخاضعاً لمنطقها .

ذلك أن منطقه وذكاءه يفوقان منطق وذكاء الأحداث والوقائع إذا كان للأحداث والوقائع ذكاء .

ثالثاً — التمتع بالاستقلال الاقتصادى :

وصاحب الخبرة الاقتصادية — سواء كان من الأثرياء أم من متوسطى الدخل — يكون خليقاً بالاستغناء عن عون الآخرين له ومد يد المساعدة إليه . فهو يكون مكتفياً بما بين يديه فلا يستدين أو يستجدى غيره . صحيح أن صاحب الخبرة الاقتصادية قد يحصل على بعض القروض من البنوك ، ولكن تلك القروض التى يقترضها تكون للاستثمار لا لسد نفقاته ونفقات أسرته . ذلك أن صاحب الخبرة الاقتصادية يضع نصب عينيه الاكتفاء بدخله مهما كان ضئيلاً ؛ فلا يلجأ إلى المساعدات يطلبها من المؤسسات الخَيْرية ، بل يكون متمتعاً بالتعفف وارتفاع الهامة عن مد اليد طلباً للمساعدة .

□ الخبرة السياسية والإنتاج :

علينا أن نفعل الشيء نفسه الذى فعلناه بصدد المعانى الأربعة السابقة للخبرة ، أعنى « الخبرة الأدائية » و « الخبرة العلائقية » و « الخبرة الإبداعية » و « الخبرة الاقتصادية » ، وذلك بإلقاء الضوء على معنى هذه الخبرة التى نحن بصددها الآن ؛ أعنى « الخبرة السياسية » ، فنجد أنها تتضمن المقومات التالية :

أولاً — الفهم الجيِّد لديناميات الجماعة :

فالواقع أن الخبرة السياسية تعتمد بصفة رئيسية على الوعى بالاتجاهات العامة التى تعتمل فى قوام الجماعة باعتبارها الكلى ، ثم الوعى بالاتجاهات التى تختص بها كل جماعة فرعية تنخرط فى إطارها .

بيد أن هذه النظرة المعرفية لا تقتصر على الاتجاهات الراهنة التي تُمسك بزمام المجتمع ككل وبزمام المجتمعات الفرعية المنبثقة منه ، بل تشتمل أيضاً على الاتجاهات التي كانت شائعة به في الماضي والاتجاهات المستقبلية على السواء . وبتعبير آخر فإن هذه النظرة المعرفية تأخذ في اعتبارها الأضلاع الثلاثة للزمان . فهي لا تقتصر على الواقع الراهن آنياً ، بل تنظر إلى الاتجاهات التي تشيع بالمجتمع والجماعات المنضوية تحت لوائه بمنظور شمولي يتضمن الماضي والحاضر والمستقبل ، وذلك لأن الاجتزاء بضلع واحد من هذه الأضلاع الثلاثة أو بضلعين فقط منها ، لا يضمن الوقوف على الديناميات التي تعتمل في قوام المجتمع أو في قوام الجماعات المنضوية تحت لوائه . فالتسلح بهذه النظرة التي تضم الماضي والحاضر والمستقبل ، تعني أن المرء يؤمن بالتطور المستمر للاتجاهات : وأنها تتخذ طريقاً ديناميكياً ولا تتصف بالاستاتيكية ، أعنى الجمود والتوقف عن التغير والتطور المستمرين . فواقع الأمر أن المجتمع والجماعات التي يتضمنها مستمرة في تعديل اتجاهاتها ومواقفها . فسُنَّة الحياة في جميع أنحائها هي سُنَّة التطور المستمر وعدم الجمود عند نقطة معينة لا يحدث تطور بعدها .

ثانياً — ترسُّم الأهداف الجديدة :

فالواقع أن الوقوف على الاتجاهات السابقة والآنية والمستقبلية التي تعتمل في قوام المجتمع ككل وفي قوام الجماعات الفرعية التي تنضوي في كَنَفه ، ليس سوى نقطة انطلاق في الخبرة السياسية . فمن هذا المنطلق ، يقوم رجل السياسة المحنَّك بترسُّم أهداف جديدة للمجتمع ككل وللجماعات الفرعية التي تنخرط في إطاره . بيد أن الأهداف التي يترسَّمها لابد أن تكون متمشية ومنسجمة مع الصبغة العامة التي تسم

بها تلك الأهداف السابقة والأهداف الراهنة والأهداف المستقبلية التى تعتمل فى قوام المجتمع ككل وفى قوام الجماعات الفرعية . وبتعبير آخر فإن الأهداف التى يترسَّمها رجل السياسة لاتعدو أن تكون ترجمة وتعبيراً عن تلك الأهداف المعتملة بالفعل فى أوصال المجتمع والجماعات الفرعية . فهو لايخلق أهدافاً من العدم دون أن تكون لها جذور موجودة بالفعل فى قوام المجتمع والجماعات الفرعية ، بل إنه يترسَّم تلك الأهداف بناء على الموجود بالفعل ؛ ولا يكون عليه سوى الترجمة عن الأهداف الموجودة والتعبير عنها . بيد أن هذا لا يعنى أننا نلغى أصالة ما يقدمه صاحب الخبرة السياسية من أهداف ، ذلك أننا نعترف بأن الصبغة السائدة بتلك الأهداف التى يترسَّمها تكون صبغته الشخصية الخاصة به . فهو وإن استمد الأهداف من الاتجاهات السائدة بالمجتمع والجماعات الفرعية ، فإنه يُعتبر صاحب تلك الأهداف والمحدِّد لملامحها والمشكِّل لقوامها . ولعلنا نشبه صاحب الخبرة السياسية بالتكنولوجى ، بينما نشبه الاتجاهات بالنظرية العلمية . فالتكنولوجى الذى يقدم تكنولوجيا جديدة برغم إفادته من النظرية العلمية التى يعبر من خلالها عن تكنولوجيته ، فإن إفادته من تلك النظرية العلمية لا يَغْمطه حقه فى نسب التكنولوجيا إليه :

ثالثاً — توفير الأسباب التى تُفْضى إلى تحقيق الأهداف :

والخبرة السياسية تتضمن أيضاً توفير العوامل التى يمكن أن تفضى إلى تحقيق النتائج المرجوة أو تجسيد الأهداف فى الواقع . فصاحب هذه الخبرة لايقتصر على نطاقه الفردى بأن يَعْرِف أو يَعِى الاتجاهات العامة التى تعتمل فى أوصال المجتمع ككل والأهداف الخاصة التى تعتمل فى

أوصال الجماعات الفرعية ، كما أنه لا يقتصر على تَرَسُّم الأهداف فى ذهنه أو على الورق ، بل يتعدى هذين النطاقين إلى الممارسة العملية ، وذلك بتوفير العوامل التى تخرج بما يترسَّمه من أهداف إلى الواقع الفعلى . فهو يكون قادراً على إنشاء علاقات جديدة ، وعلى تقوية أو إضعاف أو تطوير علاقات موجودة بالفعل .

رابعاً — الإفادة من خبرات الآخرين :

فصاحب الخبرة السياسية يتمتع بالقدرة على الإفادة من خبرات الآخرين . بيد أنه لا ينقل عنهم كل ما يتسنى له نقله ، بل يتمتع بالقدرة على الاختيار الدقيق من بين البدائل العديدة من الخبرات التى يتسنى للآخرين تقديمها . فهو يكون ثاقب الذهن فى عمليات التقييم . فيقدِّر كل خبرة يتاح له الوقوف عليها بحيث ينتقى من الخبرات العديدة المناسب للإفادة منه . بيد أنه لا ينقل تلك الخبرات التى يقف على قيمتها العظيمة نقلاً كما هى ، بل يقوم بصهرها فى بوتقته الخِبْرية بحيث يحيلها إلى قوام مناسب للتطبيق أو للممارسة فى مجتمعه أو فى المجتمعات الفرعية التى يضمها مجتمعه .

خامساً — التخلص المستمر من الأخطاء ومن أسباب التخلف :

فصاحب الخبرة السياسية يكون بالإضافة إلى مواقفه الإيجابية التى ذكرناها ، صاحب قدرة تصحيحية وتنقيحية وعلاجية لما يجد أنه قد شاب التطويرات التى ارتآها وقام باستحداثها من أخطاء أو عيوب . ناهيك عن الانحرافات أو الأخطاء التى نجمت عن تصرفات الآخرين عن قصد أو عن غير قصد . فهو يشبه الفلاح الذى يدأب على اقتلاع الحشائش الضارة بالزرع إلى جانب اهتمامه برعاية زراعته وتوفير جميع الظروف الملائمة لنموها النمو السليم .

وبعد أن قمنا بتقديم هذه المقومات الخمسة التى تتضمنها الخبرة السياسية ، يبقى علينا أن نستبين علاقة هذه الخبرة بالإنتاج ، فنجد أن هذه العلاقة يمكن أن تتحدد على النحو التالى :

أولاً — وضوح الرؤية واجتناب التخبط والمصادفات السعيدة :

فالواقع أن التذرع بالخبرة السياسية ، يكفل لصاحبها مشاهدة وسائل الرقى والتقدم لمجتمعه وللجماعات الفرعية التى يتضمنها بوضوح . فشأنه شأن قائد السيارة المتمكن من فن القيادة ، فيرى الطريق أمامه بوضوح تام ، كما يكون خليقاً بتجنب أخطار الحوادث بمهارة وحذق. وبتعبير آخر فإن صاحب الخبرة السياسية يحصل على أفضل النتائج بما يحوزه من معرفة ، وبما يتذرع به من بصيرة ومِرانة . فهو يحرز أكبر قدر من النتائج الطيبة فى أقصر وقت وبأقل جهد وبغير أن يبدد الثروة والوقت هباءً .

ثانياً — تخليص المجتمع الذى يسوسه من عوامل التخلف :

فصاحب الخبرة السياسية المكينة يكون خليقاً باقتلاع جذور التخلف وعوامل الفساد بما يحوزه من أفكار متطورة باستمرار ، وبما يتمتع به من إرادة قوية ومن قدرة على إقامة العلاقات المناسبة لتحقيق التقدم للمجتمع والجماعات الفرعية المنبثقة منه ، فهو يقتلع عوامل الرجعية والتشبث بالقديم الذى عفا عليه الزمن ولم يعد صالحاً للوقت الحاضر برغم أنه كان صالحاً للتطبيق فى عصور سابقة .

ثالثاً — استنهاض الهمم والإفادة من الإمكانات البشرية والمواهب المختلفة :

فصاحب الخبرة السياسية يكون قميناً باكتشاف المواهب والإمكانات

البشرية . فهو لا يكون شخصية أنانية تلتف حول ذاتها أو حول مجموعة غير متجددة من الأفراد لأسباب عاطفية تسيطر على قلبه ، بل يدأب على البحث عن أصحاب المواهب المتباينة : فيوظِّفها ويفيد منها ويستثمرها لصالح المجتمع والجماعات الفرعية ، ولا ينحاز أو يتعصب فيغمض عينيه عن أصحاب المواهب والاستعدادات التى يجب استثمارها والإفادة منها .



الفصل الثامن
النظرة المستقبلية والانتاج

□ ترسُّم الحاجات الإنتاجية المستقبلية :

حيث إن المجتمع – سواء كان مجتمعاً محلياً ، أم مجتمعاً إقليمياً ، أم مجتمعاً عالمياً – فى تطور مستمر ولا يتوقف عند نقطة معينة ، لذا فإن حاجاته تدأب على التطور والتغير ولاتثبت أو تتوقف عند مرحلة تطورية معينة لا تتعداها . فطالما أن هناك حياة على الأرض ، فإن التطور يستمر فى قوام المجتمعات المتباينة ، وبالتالى فإن حاجاتها تتطور وتتغير ، وما يكون مُشْبِعاً لحاجاتها فى إحدى المراحل التطورية لا يُشْبعها ويرضيها فى مرحلة تطورية تالية .

من هنا فإن الممسكين بأزِمَّة الإنتاج والمخططين له يتذرعون بالنظرة المستقبلية ، ويتشَوَّفون ما سوف يكون عليه حال المجتمع الذى يخططون لمناحى إنتاجه المتباينة . ذلك أنهم إذا لم يستعينوا بتلك النظرة المستقبلية وظلـوا مركِّـزين ذهنهم فيما هو شائع من حاجات راهنة ، فإن المستقبل سوف يُخيِّب ظنهم . فما يقومون بإنتاجه يكون بعيداً كل البعد عن أذواق وحاجات الناس بعد وقت يقْصُر أو يَطُول .

فثمة إذن شروط أو معايير يتـذرَّع بها المخططون للإنتاج المستقبلى فى سياق ترسُّمهم للحاجات الإنتاجية المستقبلية ، لعلنا نقوم بتقديمها على النحو التالى :

أولاً — تتبُّع السياق الزمانى :

فلعل المعيار الأول الذى يستهدى به المخطط فى الإنتاج المستقبلى هو الوقوف على التسلسل الزمانى بدءاً من الماضى إلى الحاضر واتجاهاً إلى ما سوف يكون عليه المستقبل . فمن الحقائق المؤكدة أن المستقبل هو انبثاق من الماضى والحاضر معاً ، كما أن الحاضر هو انبثاق من الماضى . فمن يُغْمض عينيه عن تلك الحركة الانبثاقية التى يتَّصِف بها الزمان ، فإنه يكون عاجزاً بالتالى عن الوقوف على ما سوف يُسْفر عنه المستقبل من تباينات عما عليه الواقع الراهن أو الماضى المنصرم .

ثانياً — الوقوف على سيكولوجية المجتمع :

لقد بدأ الإنسان بمدارسة الواقع المادى قبل أن يقف على حقيقته الذاتية . ولقد كانت دعوة سقراط التى كان يلح فيها على المرء بأن يعرف نفسه بنفسه ، هى الدعوة إلى ترجيح كفَّة مدارسة الطبيعة البشرية على كفة مدارسة الطبيعة المادية . ولكن على الرغم من دعوة سقراط هذه ، فإن الدراسة السيكولوجية العلمية لدخيلة الإنسان لم تبدأ إلا فى العصور الحديثة . وهكذا صار موضوع الدراسة السيكولوجية الوضعية للإنسان حقيقة واقعية ، ولم تَعُد مجرد فَرَاسة أو اعتمال لمواهب غيبية يتمتع بها بعض ذوى البصائر ، بل صار لتلك الدراسة السيكولوجية قوانينها وتقنياتها ، فصار من الممكن التنبؤ سيكولوجياً بما سوف تكون عليه الخصائص النفسية للفرد أو المجتمع الذى يقوم علماء علم النفس الاجتماعى بدراسته علمياً بالوسائل والتقنيات السيكولوجية . وعلى هذا فقد صار من الممكن الوقوف على ما سوف تكون عليه الحاجات والاتجاهات النفسية ، سواء بإزاء الأفراد أم بإزاء الجماعات ، طالما أُجريت

عليهم الفحوص والدراسات السيكولوجية العلمية ، وبالتالى فإن المسئولين عن التخطيط لما سوف تكون عليه اتجاهات المجتمع فى المستقبل القريب والمستقبل البعيد ، يَكْلفون بتلك الدراسات السيكولوجية المستقبلية على النحو الذى يَكْلف به علماء الفلك بما سوف تكون عليه الأحداث الكونية فى المستقبل القريب والمستقبل البعيد .

ثالثاً — التدخل التأثيرى :

فالواقع أن المترسِّمين للحاجات الإنتاجية المستقبلية لايكونون مجرد راصدين لتلك الحاجات باعتبار أنها قَدَر مكتوب على المجتمع ، بل إنهم يتخذون أيضاً موقفاً إيجابياً تأثيرياً بإزائها . فهم بعد الإلمام المستقبلى بما يمكن أن يكون عليه حال الحاجات الإنتاجية فى المستقبل ، فإنهم يتدخلون بما لديهم من فنيَّات للتأثير فى تلك الحاجات قبل أن تبزغ على سطح الواقع . ذلك أن التأثير فى الواقع النفسى الراهن للمجتمع ، يُفْضى بالتالى وبالتأكيد إلى ما سوف يحمله المستقبل من ملامح تتعلق بالحاجات التى سوف تحس بها الأجيال التالية ، وبتعبير آخر فإن استخدام الوسائل التربوية بنجوع ومهارة ، يعمل على التوصل إلى تعديلات عميقة ورئيسية فى الحاجات التى سوف تبزغ فى المستقبل فى نطاق المجتمع الذى يهتم به المخططون السيكولوجيون .

رابعاً — تهيئة الإمكانات لإشباع الحاجات المستقبلية :

فمن الشروط التى يجب أن تتوافر لدى المخططين للإنتاج المستقبلى ، توافر الإمكانات التى يتسنى بواسطتها إشباع الحاجات التى سوف تبزغ وتشيع فى المستقبل القريب وفى المستقبل البعيد . فالمخططون المستقبليون يجب أن يتمتعوا إلى جانب القدرة على ترسُّم تلك الإمكانات وتحديد

معالمها بدقة ، العمل على توفير الإمكانات التى يتسنى بواسطتها إشباعها ومجابهتها بنجاح .

خامساً — تطوير التخطيط المستقبلى أولاً بأول :

ذلك أن من الخطأ الاعتقاد فى الصحة الإطلاقية لما تم تشوُّفه بإزاء الحاجات المستقبلية والتوقف عن إدخال التعديلات عليه بحجة أن الباطل لا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه ، فواقع الأمر أن التخطيط المستقبلى وترسُّم الحاجات المستقبلية يجب أن يتعدل أولاً فأولاً باستمرار. فكما أن التطورات السيكولوجية مستمرة ، بل وكما أن هناك طفرات سيكولوجية لم تكن فى الحُسْبان ولم تكن متوقعة ، لذا فمن المحتم ملاحقة التطورات التى تحدث أولاً بأول ، وبالتالى فإن ترسُّم الحاجات الإنتاجية ، سواء كانت متعلقة بالواقع الخارجى ، أم كانت متعلقة بالمزاج الجمعى ، أم بالواقع السيكولوجى المستقبلى للمجتمع ، يجب أن يكون ترسُّماً مستمراً خطوة فخطوة فى توازٍ مع حدوث التطورات الاجتماعية المتدفقة بغير توقف .

وعلينا بعد هذا أن نستبين أهمية ترسُّم الحاجات الإنتاجية المستقبلية بالنسبة للشخصية المنتجة ، فنجد أن هذه الأهمية على النحو التالى :

أولاً — الوقوف على أرض صُلْبة :

فالشخصية المنتجة لا تكون مُعَرَّضة للفشل فيما تخطط له . فطالما أنها تترسَّم ما سوف تكون عليه الحاجات المستقبلية فى المجال الإنتاجى الذى تعمل فيه وله ، فإنها لا تكون إذن تحت رحمة المصادفات السعيدة أو تحت رحمة النجاح بالمصادفة ، بل تكون واثقة من نظرتها المستقبلية ومما تترسَّمه . فهى لا تخضع للصدمات التى يخضع لها أولئك الذين لا يتمتعون بترسُّم المستقبل على النحو الصحيح .

ثانياً — توفير الكثير من الجهد والمال :

فالواقع أن الشخصية المتمتعة بترسُّم الحاجات الإنتاجية المستقبلية، تكون خَليقة بالاقتصاد فيما تقوم ببذله من جهد، وفيما تنفقه من مال . وعلى العكس من هذا فإن الشخصية التي لا تتمتع بمثل ذلك الترسُّم للحاجات الإنتاجية المستقبلية ، تكون مُعَرَّضة لإنفاق الجهد والمال فى غير ما طائل . وأكثر من هذا فإنها تكون قليلة الإنتاج أو عديمة الإنتاج تماماً .

ثالثاً — تحسين الوسائل الإنتاجية باستمرار :

فالشخصية التي تترسَّم الحاجات الإنتاجية المستقبلية بكفاءة، تكون خَليقة بالتالى بالتطور بوسائلها الإنتاجية . ذلك أن الوقوف على ماسوف يكون عليه المستقبل الإنتاجى ، يدفع بالمرء إلى أن يجدد فى وسائله الإنتاجية ، فلا يركن إلى الوسائل التقليدية التي لا تكون ذات فاعلية فى مجابهة الحاجات الإنتاجية المستقبلية .

□ علوم وتكنولوجيات الإنتاج المستقبلى :

قلنا ونؤكد مراراً وتكراراً أن المجتمع متطوِّر ومتغيِّر باستمرار . وبتعبير آخر فإنه بمثابة عمليات متدفقة . وإذا نحن نظرنا إلى العلوم والتكنولوجيات باعتبارها الأدوات أو الوسائل التي يتذرع بها المجتمع للنهوض بتلك العمليات التطويرية ، فإننا نستطيع أن نتصور كيف أن تلك العلوم والتكنولوجيات تتطور وتتغير باستمرار . فهى ليست من الثوابت فى شىء ، بل من المتغيرات المتلاحقة .

وعلينا أن نقوم بإلقاء الضوء على العلوم والتكنولوجيات المستقبلية التي سوف تدفع بالإنتاج إلى الأمام ، لكى نتعرف خصائصها ، فنجد أن تلك الخصائص يمكن أن تتحدد على النحو التالى :

أولاً — التطوُّر وَفْـق متتالية هندسية :

فمن الخطأ الاعتقاد أن العلوم والتكنولوجيات المستقبلية سوف تتطور وَفْـق متتالية حسابية : ١ — ٢ — ٣ — ٤ إلخ ، بل إنها تتطور وَفْـق متتالية هندسية : ١ — ٢ — ٤ — ٨ — ١٦ إلخ . ويظهرنا هـذا على التطور السريع جداً الذى سوف تنهجه . ومن الطبيعى أن هـذا التطور السريع هو نفسه التطور الذى انتهجته العلوم والتكنولوجيات فى الماضى والذى تنهج وَفْـقه فى الوقت الحاضر . ولكن ثمـة الإحساس بمدى سرعة التطور المتزايدة بسبب ذلك التضاعف . تخيل مثلاً مدى التطور فيما بين ١ ، ٢ ومدى التطور فيما بين ٨ ، ١٦ . فالفرق بين ١ ، ٢ هو واحـد فقط . أما التطور فيما بين ٨ ، ١٦ فهو ٨ . وقس على هـذا التطورات المستقبلية التى سوف تشهدها علـوم وتكنولوجيات المستقبل . إنها سوف تكون تطورت مُذْهلة للغاية .

ثانياً — التفاعلات الديناميكية بين علوم وتكنولوجيات المستقبل :

لقد كانت التطورات القديمة فى مجالَـىْ العلوم والتكنولوجيات ، تطورات ميكانيكية ، بمعنى أن التأثير التطورى كان يصدر من قِـبَـل الإنسان وبفضل تأثيره فى الأشياء . أما التطورات الحديثة — وبالأحرى التطورات المستقبلية — فإنها تكون تطورات صادرة من قِـوام العلوم والتكنولوجيات ذاتها . وبتعبير آخر فإن الإلكترونيات التى بلغت القمة فى الحاسبات الإلكترونية (الكومبيوترات) والروبوتس (الأناسى الآليون) سوف تناط بالعمل التطويرى .

صحيح أن العلماء والتكنولوجيون سوف يحددون الأهداف أو الغايات ولكن باقى العمل التنفيذى والإبداعى العلمى والتكنولوجى سوف يكون صادراً عن طريق تلك الإلكترونيات . ولنأخذ مثالاً بسيطاً بالآلة الحاسبة ،

فالشخص الذى يستخدم تلك الآلة الإلكترونية البسيطة هو الذى يقوم بتوجيهها ، ولكنه لا يضطلع بالعمليات الحسابية ذاتها ، بل يُوكل تلك العمليات إليها . وإذا نحن تخيلنا الفرق بين الآلة الحاسبة التى تعتبر ألف باء الإلكترونيات وبين الكومبيوتر وبالأحرى الروبوت ، فإننا نستطيع أن نتصور المدى الشاسع الذى تغطيه الإلكترونيات حالياً ، وبالأحرى ما سوف تغطيه بمدى أوسع جداً فى المستقبل .

ثالثاً — انبثاق علوم جديدة :

وكما أن الإلكترونيات — وهى وسائل العلوم والتكنولوجيات — تتطور وسوف تتطور بطريقة تضاعفية ، كذا فإن العلوم والتكنولوجيات المستقبلية سوف تتضاعف من حيث النوعيات التى سوف تشملها . ذلك أنها ليست محددة العدد فلا تزداد، بل إنها تتضاعف مع تضاعف الإلكترونيات . وبتعبير آخر فإن العلوم والتكنولوجيات الحالية سوف تقوم بتفريخ علوم وتكنولوجيات عديدة بطريقة تضاعفية أيضاً . ومعنى هذا أن التخصصات العلمية والتكنولوجية سوف تتضاعف أيضاً. صحيح أن ثمة علوماً وتكنولوجيات سوف تتقلص أو تنقرض ، ولكن ما سوف يتم تفريخه من علوم وتكنولوجيات مستحدثة ، سوف يزيد إلى حد بعيد عما ينقرض منها .

ولنا أن نتساءل بعد هذا عن العلاقة بين العلوم والتكنولوجيات المستقبلية وبين الإنتاج ، فنجيب عن هذا التساؤل بما يلى :

أولاً — بزوغ منتجات جديدة :

فبناء على ما ذكرناه قبلاً من تضاعف العلوم والتكنولوجيات وظهورعلوم وتكنولوجيات جديدة مُستحدثة ، فإن منتجات جديدة غير

مسبوقة سوف تظهر بالأسواق . ومن الطبيعى أن تلك المنتجات سوف تغطى جميع رغبات وحاجات الأجيال القادمة . فثمة المنتجات الغذائية التى سوف تعتمد بصفة رئيسية على التفاعلات الكيميائية التى سوف تتم بالمعامل . فكما أن الكيمياء قد سبق أن غزت آفاق صناعة الدواء كبديل للمواد المستمدة من الحشائش والنباتات ، كذا فإن المواد الغذائية سوف تعتمد على ماسوف يتم إنتاجه بالمعامل. فلسوف تُطْرَح بالأسواق لحوم مصنَّعة كيميائياً ؛ كما سوف تطرح منتجات غذائية مصنَّعة تحمل القيمة الغذائية التى تتضمنها الخضراوات والفواكه . وكذا الحال بالنسبة للملابس . فكما أن الحرير الصناعى قد حل بالفعل محل الحرير الطبيعى ، كذا فإن الكثير من الأقمشة المصنَّعة كيميائياً سوف تُغْرِق الأسواق ، بل وسوف تنافس المصنوعات القطنية ، أو قل إن الاعتماد على القطن والصوف فى المستقبل سوف يقل إلى حد بعيد بعد الاعتماد بصفة رئيسية على ما سوف تقدمه الكيمياء إلى السوق من أقمشة مصنَّعة من الحجارة . وما يقال عن الطعام والكساء سوف ينسحب بإزاء جمع المطالب البشرية .

ثانياً — العلوم والتكنولوجيات البشرية :

فبينما نجد أن العالم المادى يستحوذ حالياً على الاهتمام الأكبر من جانب العلماء والتكنولوجيين ، فإننا فى المستقبل سوف نجد أن قِسْطاً كبيراً من تلك العلوم والتكنولوجيات سوف يوجَّه إلى الإنسان . فمن المتوقع أن تغطى تلك العلوم والتكنولوجيات نطاقاً واسعاً جداً من التخليق والتطوير فيما يتعلق بالجِبلَّة البشرية . فبفضل هندسة الوراثة وما سوف تضمه فى رحابها من علوم وتكنولوجيات عديدة ، سوف يتم تفصيل الجنين وَفْق مواصفات معينة ، فلا يترك تكوينه للمصادفات

السعيدة ، ولا يكون تحت رحمة الوراثة، بل يتم تناوله بالتخطيط لما سوف يكون عليه منذ اللحظة الأولى التى يتم فيها تكوينه جنيناً أو حتى قبل التقاء المَنِيّ بالبويضة . فسوف يتم التحكم فى الشكل والطول والوزن والخصائص الشخصية والاستعدادات ومستوى الذكاء ، إلى غير ذلك من مواصفات سوف يتم تحديدها مُسْبَقاً بفضل هذه الهندسة الوراثية . ناهيك عن تطعيم كروموزومات الجنين بجينات مستفادة من بعض الحيوانات التى تفوق الإنسان فى جوانب معينة، مثل السمع والشم ونحوهما . ومعنى هذا أن علوم وتكنولوجيات المستقبل سوف تتحكم فى تشكيل إنسان المستقبل الذى سوف يناط به الإنتاج فى المجالات المتباينة .

ثالثاً — تطور علم النفس والتربية :

وفى المستقبل سوف يتطور علم النفس وعلوم وفنون التربية ، بحيث يتسنى علاج الكثير من الأعراض والأمراض النفسية والالتواءات السلوكية . فالتأثير فى قوام الشخصية سوف يكون بالعقاقير وبالأجهزة الإلكترونية التى سوف تُرْتدى كالملابس ، فتعمل على تعديل أو انضباط الشخصية وَفْق مواصفات محددة . فكما أن شاشات التليفزيون تخضع للتحكم فلا يكون فيما تقدمه تشوش أو انحراف بإزاء الصور المعروضة ، كذا سوف تعمل أجهزة المستقبل الإلكترونية على ضبط الشخصية، فتصير فى مأمن من الإصابة بالاكتئاب أو بأى من الأمراض النفسية . وبذا فإن شخصية المرء سوف تكون متكيِّفة للواقع الإنتاجى المطلوب قيامه به .

□ نسبية النظرة الإنتاجية المستقبلية :

إن الفرق بين النظرة الإنتاجية النسبية المستقبلية وبين النظرة الإنتاجية المطلقة المستقبلية يتبدى فى الجوانب التالية :

أولا — تحقيق الأهداف :

فبينما يعتقد المؤمن بالنظرة الإطلاقية المستقبلية بضرورة تحقيق الأهداف الإنتاجية التي يترسمها، فإن المؤمن بالنظرة النسبية المستقبلية يعتقد أن الأهداف التي يمكن تحقيقها في المستقبل محكومة بمجموعة من الظروف والشروط المواتية . فكلما كان الإنتاج أغزر ، فإنه يحس بالرضى . وإذا لم يستطع تحقيق بعض الأهداف الإنتاجية المستقبلية التي ترسمها بسبب العوائق أو الظروف غير المواتية ، فإن ذلك لا يَفُتّ في عَضُده ، ولا يحمله على الشعور باليأس . فهو يضع في حسبانه منذ البداية أن هناك عوامل وصعاب يمكن أن تعتور طريق الإنتاج ، وأن من المستحيل أن تخلو الحياة العملية الواقعية من تلك العوامل أو الصِّعاب. فعليه إذن أن يستغل الظروف المواتية بقدر الإمكان . أما الظروف غير المواتية والتي لا قِبَل له بإزائها ، فإنه لا يعاتب نفسه بسبب وجودها ، وبالتالي فلا تثريب عليه إذا لم يستطع التغلب عليها وإزالتها من طريقه .

ثانياً — المتوسط الإنتاجي :

إن المؤمن بالنظرة الإطلاقية إلى الإنتاج المستقبلي ، يعتبر أن آخر عملية إنتاجية قام بها هي الفيصل والمعيار الذي يقيس به مدى إنتاجيته ، فإذا كانت تلك العملية محفوفة بالفشل في إحراز الإنتاج الوافر والجيد ، عندئذ يحكم على نفسه بالفشل التام . أما صاحب النظرة النسبية إلى الإنتاج المستقبلي ، فإنه يؤمن بأن ذلك الإنتاج المستقبلي يجب أن ينضاف إلى جميع الإنتاج الذي سبق أن قام بتقديمه في الماضي ، وأن ينظر إلى متوسط الإنتاج في ضوء ما سبق إنتاجه وما سوف يتم إنتاجه في المستقبل . فالمتوسط الإنتاجي طويل الأمد ، هو الخليق بالأخذ في الاعتبار وعدم حصر الذهن في عملية إنتاجية واحدة .

خذ مثالا لذلك بالتاجر الذى لا يحسب أرباحه فى حدود صفقة واحدة يتوقعها فى المستقبل ، بل يحسب أرباحه فى ضوء متوسط أرباحه خلال عدة سنوات ولتكن خمس سنوات أو عشر سنوات متتالية . فهو يمتد بأفقه عَبْر تلك المدة ، ولا يحصر تفكيره فى حدود ضيقة تتعلق بالصفقة الأخيرة التى ربما لا يتأتى عنها أى ربح على الإطلاق . ولنأخذ مثالا آخر بالتلميذ الذى يتقدم إلى امتحان آخر العام فى إحدى المراحل التعليمية . إنه إذا ما عُومل بالنظرة الإطلاقية ، فإن رسوبه فى ذلك الامتحان يعنى فشله الكامل فى حياته الدراسية . ولكن إذا عُومل فى ضوء تحصيله الكلى ، وما سبق له أن أحرزه من نجاح عَبْر المراحل التعليمية التى انخرط فيها ، فإن تناوله فى ضوء متوسط ما أحرزه من نجاح عَبْر تلك الفترة التى تمتد إلى عدة سنوات ، يشير إذن إلى تلك النظرة النسبية .

ثالثاً — التجديد النسبى لوسائل الإنتاج :

فالنظرة النسبية إلى وسائل الإنتاج تقيس مدى تقدم المرء فى حياته الإنتاجية فى ضوء الظروف المتاحة ومدى استغلاله لتلك الظروف واستثماره لها . فهى لا تقيسه فى ضوء نموذج خارجى معين ، بل تقيسه بما سبق أن كان فى حوزته من وسائل إنتاجية ، ومدى تجديده وتحسينه لتلك الوسائل . وبتعبير آخر مدى تخلصه من الوسائل الإنتاجية الأقل إنتاجية واستعانته بالوسائل الإنتاجية الأكثر إنتاجية . وأكثر من هذ فإن المؤسسة الإنتاجية — مصنع مثلا بأحد الأقطار — يجب أن يحكم عليها فى ضوء الظروف المتاحة لذلك القطر الذى توجد به والظروف الاقتصادية السائدة به وعدم تقييمها فى ضوء ما تستعين به مؤسسة مماثلة بأحد الأقطار

المتقدمة والغنية . فالأخذ بمثل ذلك القياس يعتبر أخذاً بالنظرة الإطلاقية. أما إذا حصرنا الذهن فى نطاق الظروف المحلية التى توجد بها تلك المؤسسة ، فإننا نكون إذن آخذين بالنظرة النسبية .

رابعاً — الظروف الذاتية والظروف الموضوعية :

فبينما نجد أن صاحب النظرة الإطلاقية يجتزئ بالنظرة الذاتية أو بالنظرة الموضوعية بينما يهمل النظرة الأخرى ، فإننا نجد أن صاحب النظرة النسبية يأخذ فى اعتباره النظرة الذاتية والنظرة الموضوعية جميعاً . فمثلا بالنسبة للتاجر الذى يأخذ بالنظرة النسبية ، نجد أنه لا ينظر إلى ذاته فقط ، فيعاتب نفسه على ما ابتلى به من خسارة ، بل يأخذ أيضاً بالنظرة الموضوعية المتعلقة بالسوق ومتغيراته وتقلباته . فهو لا يلقى باللائمة على نفسه بمبالغة ، بل يتناول المسألة من زاويته الذاتية ، وأيضاً من الزاوية الموضوعية التى تتعلق بالظروف الخارجية . وقل الشيء نفسه فى حالة حصوله على ربح وفير . إن عليه أن يأخذ فى اعتباره المزايا والمهارات الشخصية التى استثمرها فى تجارته ، كما عليه أن يأخذ فى اعتباره أيضاً الظروف المواتية التى ساعدته على إحراز الكسب العظيم ورواج تجارته .

خامساً — نسبية النمو الخِبْرى :

فالواقع أن الشخصية المنتجة يجب ألا تقاس فى ضوء معايير إطلاقية ، بل يجب أن تقاس فى ضوء معايير نسبية . ونقصد بالمعايير النسبية مدى ما بلغته الشخصية من نمو خِبْرى فى المجال الذى تُقيَّم بإزائه . فما يُقيَّم به التلميذ بالابتدائى بإزاء قدرته على التعبير ، مغاير لما يُقيَّم به طالب الثانوية العامة . وما يُقيَّم به الطبيب بإزاء الخبرة الطبية ، مغاير لما يُقيَّم به غير الأطباء بإزاء الشئون العلاجية . وحتى بالنسبة للثقافة

العامة ، فإن لكل مرحلة نمائية حدوداً يجب أن تحدد لها . فما يتسنى للطفل غير ما يتسنى للمراهق ، غير ما يتسنى للشباب . وما يتسنى للقُروى غير ما يتسنى لساكن المدينة . ويترتب على هذا أن النظرة إلى الإنتاجية المتوقعة من كل شخص يجب أن تتصف بالنسبية المتعلقة بمدى ما بلغه من نمو خِبْرى ، وما يمكن أن يتوقع أن يحرزه فى المستقبل فى ضوء ما أحرزه بالفعل .

□ التخطيط المستقبلى للإنتاج :

لا بد من توافر مجموعة من الشروط التى نستطيع تقديمها على النحو التالى حتى يتسنى التخطيط المستقبلى للإنتاج :

أولاً — الوقوف على الحاجات المستقبلية :

فالواقع أن الحاجات الاجتماعية تتطور وتتعدّل مع تطور المجتمع ومع ما يتأتى عن تفاعله مع المجتمعات الأخرى من تعديل فى الأذواق والرغبات العامة . والواقع أن استشفاف الحاجات المستقبلية للمجتمع ينبنى على ما يعتمل فى أنحائه من حاجات حالية ، وما كان يعتمل لديه من حاجات ماضية . فثمة إذن عملية قياس فى ضوء الماضى والحاضر والمستقبل . والواقع أن من السهولة بمكان تحديد الحاجات المادية فى ضوء المتوقع تواجده من السكان ، وفى ضوء النمو الثقافى والاجتماعى ، وما يتأتى عنه من زيادة فى الحاجات والاستهلاك المادى . ولكن من الصعوبة بمكان التنبؤ بالحاجات المعنوية ، وإن كان ذلك ليس من المستحيلات . فمثلا بالنسبة للحاجات التعليمية بالمدارس والمعاهد والجامعات فإن من الممكن — ولكن بشىء من الصعوبة — تحديد الحاجات التعليمية التى ينبغى توافرها بها فى أوائل القرن القادم . مثلا بالنسبة للحاجة إلى

تغيير المبانى المدرسية، والأخذ بالإيديولوجية التعليمية الناجعة، والتذرع بطرق التربية وطرق تقييم التلاميذ والطلاب المناسبة، وما سوف يستخدم من وسائل تعليمية مثل الكومبيوتر وغيره، إلى غير ذلك من حاجات تعليمية وتربوية يجب الوقوف عليها وتضمينها فى التخطيط الإنتاجى المستقبلى .

ثانياً — الوقوف على الإمكانات المستقبلية :

وبالإضافة إلى ضرورة الوقوف على الحاجات المستقبلية ، فإن من الضرورى أيضاً الوقوف على الإمكانات المستقبلية ، أعنى معرفة ما يمكن استثماره فى المستقبل من مال ومن إمكانات بشرية . والواقع أن هذا يتطلب الأخذ بنظرة واقعية بإزاء التوقعات وعدم ركوب الخيال الجامح بهذا الصدد . فالمبالغة فى تضخيم إمكانات المستقبل ، أو المبالغة فى التقليل منها ، يبعد بالمخطِّط عن إمكان الوقوف بدقة على الممكن والمتاح بالفعل .

ثالثاً — الوقوف على العقبات والصعاب المتوقَّعة :

ولكى يكون التخطيط الإنتاجى المستقبلى مَكِيناً ، فإن من الواجب على المخطِّط أن يجتهد فى ترسُّم ما يمكن أن يعترض طريق تنفيذ التخطيط من عقبات وصِعاب . والواقع أن من الأخطاء الخطيرة التى يمكن أن يتعرض لها بعض المخططين ، تفاؤلهم المطلق بأن ما وضعوه من مخططات ، سوف يطبَّق جميعه بسهولة دون أن تعترض طريقه أى صعوبات . وهذه النزعة هى ما يمكن أن نسميه رومانسية التخطيط . فالمخطط الرومانسى يركب الخيال غير الواقعى ، ولا يضع فى حسبانه ما يمكن أن يعترض طريقه من صعاب وعقبات . وعلى نقيضه نجد

المخطِّط الواقعي الذي لا يذهب شططاً فيما يقوم بالتخطيط له ، فلا يقيم أي اعتبار لما يمكن أن يعترضه من عقبات وصعاب .

رابعاً — التحديد التقريبي للتّكْلفة وللجهود المبذولة :

فالمخطِّط الجيد يكون حصيفاً في تقدير ما يحتاج إليه مخطّطه من تَكْلِفة ومايتوقع بذله في سبيل تنفيذه من جهد أو طاقة. ولسنا نزعم أن ما يحدده المخطِّط من تكلفة أو ما يتخيله من طاقة يكون قاطعاً وغير قابل للزيادة أو النقصان ، بل نزعم أن من المحتم على المخطِّط أن يقوم بتحديد التكلفة والجهد بطريقة تقريبية بحيث لا يبعد عن التكلفة الفعلية عن ٢٠ ٪ سواء من حيث الزيادة أم من حيث النقصان .

خامساً — التخطيط المتدرج :

فكلما كان المخطِّط متدرجاً من الحاضر إلى المستقبل القريب التالي له ، ومتقدماً بطريقة متدرجة إلى المستقبل الأبعد فالأبعد شيئاً فشيئاً ، فإن تخطيطه يكون بذلك أقرب إلى الواقعية . وبتعبير آخر فإن التخطيط الناجع هو ذلك التخطيط الملتحم مع الواقع الراهن والمتقدم شيئاً فشيئاً إلى المستقبل بغير قفزات إلى المستقبل البعيد دون المرور بالمستقبل القريب وإغفال التخطيط لهذا المستقبل القريب .

وعلينا أن نستعرض فيما يلي خصائص الشخصية التي تقوم بالتخطيط الجيد للإنتاج المستقبلي :

أولاً — الاتزان الوجداني :

فالشخصية المتمتعة بالتخطيط الجيد للإنتاج المستقبلي ، تكون من الشخصيات التي لا تسيطر عليها الانفعالات الهائجة التي تَعْزِف بها عن الوقوف على الواقع الموضوعي الراهن والمستقبلي . ذلك أن التخطيط

المستقبلى بحاجة إلى التمتع بالهدوء النفسى ، وإلى قدرة نفسية مكينة على وزن الأمور بالميزان الصحيح دون أن تسيطر الذاتية على الموضوعية .

ثانياً — القدرة الحَدْسية :

والشخصية المتمتعة بالقدرة على التخطيط الإنتاجى المستقبلى السديد يجب أن تكون متمتعة بالقدرة على سَبْر أغوار الواقع الموضوعى بغير أن تكون هناك شواهد موضوعية ترتكز عليها . والحَدْس هو بصيرة ذهنية مباينة للذكاء يتسنى بمقتضاها وقوف المرء على الواقع الموضوعى الخارجى بغير استناد إلى شواهد أو مقدمات .

ثالثاً — القدرة على التعاون مع الثِّقات :

فصاحب القدرة التخطيطية الإنتاجية المستقبلية لا يكون شخصاً منكفئاً على نفسه ، وغير متمتع بالقدرة على الاستعانة بخبرات الآخرين والإفادة من ثقافتهم ومهاراتهم وبخاصة الثِّقات منهم ، بل يكون شخصية واثقة بنفسها ومتواضعة وغير متَّسمة بالغرور ، وبالتالى فإنها تكون قادرة على جمع الكثير من الخبرات المستمدة من الآخرين الموثوق فيهم والإفادة منهم فى وضع المخططات الإنتاجية المستقبلية .

☐ مشكلات الإنتاج المستقبلية :

نستطيع أن نلقى الضوء على المشكلات التى سوف يجابهها الإنتاج فى المستقبل ، فنجد أنها يمكن أن تتحدد على النحو التالى :

أولاً — بزوغ حاجات غير متوقَّعة :

فهناك طفرات بإزاء الحاجات الاجتماعية التى تعتمل فى قوام المجتمعات المتباينة من عصر إلى عصر آخر . وبتعبير آخر فإن من المشكلات التى تصطدم مع طموحات المخطِّطين للإنتاج المستقبلى ،

عدم قدرتهم على التنبؤ بجميع الحاجات التى سوف تنبثق فى قوام المجتمع أو المجتمعات التى يقومون بالتخطيط لها . فبعض ما يتوقعونه من حاجات لا يبزغ فى الواقع ، وبعض ما لم يضعوه فى اعتبارهم يبزغ بالفعل . فما يتوقعونه من حاجات لا يتطابق مع ما يحمله المستقبل فى طياته .

ثانياً — قصور الإمكانات التى سوف توجد :

فحتى إذا تطابقت المخططات المستقبلية مع الحاجات المتوقعة ، فإن الجهات التنفيذية قد لا تكون مجهَّزة بالإمكانات اللازمة لمجابهة تلك الحاجات التى قد يكون المخططون قد نجحوا فى تَوَقُّعها . فما يتم التنبؤ به شىء ، وما يتم التجهيز له بالإمكانات التى تخرجه من نطاق التخطيط إلى نطاق الواقع المُؤَدَّى شىء آخر .

ثالثاً — الأزمات الاقتصادية :

فلقد تحدث أزمات وظروف اقتصادية لم تكن فى الحُسْبان ، فلا يتسنى بذلك الوفاء بالمتطلبات المتوقعة بالرغم من أن توقعها كان سديداً ، ولم تُقَصِّر الجهات التنفيذية فى أداء مهامها . والأزمات الاقتصادية لا يمكن التنبؤ بها جميعاً ، كما لا يمكن التحكم فيها وتذليلها . من ذلك مثلاً : وقوع كارثة طبيعية ، أو نشوب ثورة ، أو قيام حرب ، أو غير ذلك من أسباب يُستعصى التحكم فيها أو تطويعها لصالح المخطَّطات التى وُضعت لمجابهة الحاجات المستقبلية .

رابعاً — تصارع القيم :

فمن المشكلات التى يمكن أن تعوق الإنتاج فى المستقبل اصطراع القيم الدينية والخلقية والأعراف والتقاليد الاجتماعية مع المخططات الإنتاجية ، وبذا فإن جانباً من الإنتاج يمكن أن يُعاق ، أو يمكن أن يصطدم بالقيم

السائدة . خذ مثالاً ندلل به على ذلك مشكلة التفجر السكانى وضرورة التصدى لها ، ولكن القيم الدينية تتصادم مع أى محاولة لمعالجتها والقضاء عليها . فالواقع أن ثمة عدداً من السكان على المستوى العالمى إذا ما ازداد عنه ، فإن زيادته تكون لغير صالح الإنتاج ، بل تعمل على التقليل منه بدلاً من زيادته . ولكى نُقَرِّب هذا المفهوم من الأذهان ، نضرب مثالاً بأحد المصانع . تخيل أن به خمسة عمال فقط ، ولكنه بحاجة إلى عشرة عمال . فزيادة العمال لكى يصير عددهم عشرة عمال يكون لصالح الإنتاج . ولكن أى زيادة جديدة بعد ذلك فى عدد عمال ذلك المصنع تعمل على تقليل إنتاجه ، وعلى انخفاض مستوى جودة المنتجات . وما يقال عن المصنع ينسحب بنفس القدر من الصدق بإزاء مجموع سكان أى دولة ، وبإزاء سكان العالم ككل . فالتفجر السكانى المستمر وهو الذى يحدث وَفْق متتالية هندسية ، يعمل بلا شك على تعطيل الإنتاج ، أو بتعبير أدق ، فإن أى زيادة إنتاجية يقابلها استهلاك أكثر منها أو أضعافها . فيتأتى عن ذلك صيرورة الإنتاج شكلياً ولا يكون له أى رصيد من الواقعية .

خامساً — التفاوت الصارخ بين التطور التكنولوجى والتطور الاجتماعى :

فبينما تتطور التكنولوجيا وَفْق متتالية هندسية ، فإن التطور الاجتماعى يتم وَفْق متتالية حسابية . ومعنى هذا أن المجتمع فى أى قطر من أقطار العالم يتخلف تخلفاً شديداً خلف ما يبزغ إلى الوجود من تطورات تكنولوجية . خذ مثالاً لذلك بهندسة الوراثة . فبينما يتسنى بواسطة هذه الهندسة التخطيط لقوام الجنين مُسْبقاً وحتى قبل أن يتحد المَنِىّ بالبويضة ، فإن الناس لا تستسيغ أو تتقبل حتى مجرد القيام بالاختبارات

الجنسية التحليلية قبل الزواج . فما بالك بمطالبة الزوجين بالاستعانة بفنون هندسة الوراثة بإزاء ما سوف ينجبانه من أطفال ؟ ولنذكر أيضاً أن الكثير من أصحاب المؤسسات والشركات يجدون أنفسهم عاجزين نفسياً عن مسايرة التطورات التكنولوجية التى طرأت بإزاء وسائل العمل بمؤسساتهم وشركاتهم . وكذا فإننا نجد أن الكثير من الكتَّاب والباحثين والصحفيين لا يماشون التطورات التكنولوجية التى بزغت فى وسائل التعبير والاتصال . فكم منهم يستخدمون الكومبيوتر والبرنتر فى إنتاجهم الثقافى ؟

والشيء نفسه ينسحب بإزاء الكثير من الأطباء الذين يتقاعسون عن ملاحقة التطورات المطَّردة بسرعة هائلة فى المجال الطبي؟ فكم عدد أطباء الأسنان الذين يواكبون ما يستجد فى مجال طب الأسنان من أجهزة ومعدات وفنون علاجية وتقويمية للأسنان ؟ وكم واحداً منهم يستخدم فنون التنويم المغنطيسى مع مرضاهم فيحلون التنويم محل المُخَدِّر؟ ولعلنا نذكر أيضاً وسائل منع الحمل التى لا تأخذ بها كثير من النساء برغم أنهن لا يرغبن فى الإنجاب . بيد أنهن يتقاعسن عن مواكبة الجديد المستحدث فى هذا المجال . وعلى الجملة فإن الناس يتطورون نفسياً واجتماعياً بسرعة بطيئة جداً لا تقاس بمدى السرعة التى تتقدم بها الحضارة وما يبزغ من تكنولوجيا وما يتواكب معها من فنون أدائية .

* * *

الفصل التاسع
تجديد الأهداف والانتاج

☐ الأهداف الإنتاجية المستهلكة :

نقصد بالأهداف الإنتاجية المستهلكة ، تلك الأهداف الإنتاجية التى لم تَعُد مطلوبة ، بل فقدت الاهتمام بها ، وصارت مرفوضة من جانب الغالبية العظمى من أبناء المجتمع ، وقد حلّت محلها أهداف أخرى يرغب الناس فى العمل على تحقيقها والأخذ بها . ولعلنا نقوم فيما يلى باستعراض أهم تلك الأهداف الإنتاجية المستهلكة :

أولاً ــ أهداف إنتاجية تقلّصت فاعليتها أو تلاشت :

فالواقع أن الحضارة تَجُبُّ بعضها بعضاً . ويتبدى ذلك الجَبُّ فى التطورات التكنولوجية المتلاحقة . فالتكنولوجيا الجديدة إما أن تعمل على القضاء قضاءً مُبْرَماً على تكنولوجيا سابقة ، وإما أن تعمل على إضعافها والتقليل من أهميتها . فالسيارة جَبَّت العربة الكارو أو عملت على إضعاف فاعليتها وتقليص مجالات استخدامها على الأقل. والقطارات جَبَّت السيارات ، والطائرات جَبَّت البواخر ، والآلة الكاتبة جَبَّت القلم ، والكومبيوتر جَبَّ الآلة الكاتبة ، والتليفزيون جَبَّ الراديو ... إلى آخر تلك التكنولوجيات التى تَجُبُّ بعضها بعضاً أو تقلل من قيمة بعضها بعضاً على الأقل .

ويترتب على هذا استهلاك بعض الأهداف الإنتاجية أو التقليل من

الطلب عليها . فإذا تناولنا وسائل الاتصال مثلاً ، فإننا نجد أن البريد قد حل محل الحمام الزاجل ، وبالتالى فإن الإقبال على تربية ذلك الحمام وتدريبه على حمل الرسائل وإيصالها إلى الجهات المرسلة إليها قد انكمش أو لم يعد له وجود على الإطلاق . وبعد انتشار الفاكسيميلى ، فإن الرسائل البريدية قد تأثرت إلى حد كبير ، ومع الوقت فإن مكاتب البريد سوف تغلق أبوابها . وهكذا نجد أن الأهداف الإنتاجية القديمة تخفُت أو تموت لكى تحل محلها أهداف إنتاجية جديدة تحل محلها وتضطلع بوظائفها بطريقة أفضل .

ثانياً ــ أهداف إنتاجية ثَبُت ضررها :

فالمَزارع التى كان يُزرع بها الخشخاش وغيره من النباتات التى تستخلص منها المخدرات ، صار ينظر إليها باعتبارها من الأخطار المُحْدِقة بالمجتمع ، والمُهَدِّدة لصحة المواطنين ، والقاضية على إنتاجيتهم . وكذا فإن هناك بعض العقاقير التى يستخدمها المتعاطون والمدمنون فى التعاطى والإدمان ، فقضى القانون بمنعها من التداول . وهكذا نجد أن هدف إنتاج الخشخاش أو إنتاج العقاقير التى يستخدمها المتعاطون والمدمنون لم يعد معترفاً به ، بل انخرط فى نطاق الأهداف الإنتاجية المستهلكة .

ثالثاً ــ أهداف إنتاجية تربوية وتعليمية :

ففى ضوء تكنولوجيا التعليم وما استجد من مبتكرات تكنولوجية مثل وسائل تسجيل المعلومات وإمكان الحصول عليها وقتما يشاء المرء ، لم يعد للتعليم عن طريق الحفظ اللفظى والحفظ المعنوى قيمة تربوية وتعليمية ، بل صار الذكاء متصدِّراً تلك الأهداف . ولولا أن

المسكين بأزمـّة التعليم على مستوى العالم وبصفة خاصة فى البلاد النامية من الرجعيين ، لثبت لهم أن الأهداف التربوية والتعليمية المتمسكين بها ، وهى الأهداف التى تعتمد على شحن أذهان التلاميذ والطلاب بالنصوص والمعلومات ، لم تـَعـُد ذات موضوع ، بل إنها من الأهداف الإنتاجية المستهلكة . وبتعبير آخر فإنه فى ضوء التطورات التى تفجـَّرت فى مجال تكنولوجيا التعليم ، فإن « الكيفات » قد حلت محل « الماذات » ، فصارت الأهداف التى يجب أن تتوخاها المدرسة والمعهد والكلية هى « كيف يمارس الناشئ الحياة » لا « كيف يستعد بما يحفظه فى ذاكرته لمجابهة الحياة » .

رابعاً — أهداف إنتاجية عسكرية :

فبعد أن كانت العسكرية — سواء كانت عسكرية أمنية أم عسكرية دفاعية — معتمدة بالدرجة الأولى على القوة العضلية ، فإنها صارت تعتمد على تكنولوجيا السلاح ، وما تواكب معها من فنون قتالية هجومية ودفاعية ، وما يتطلبه ذلك من قضاء معظم وقت الإعداد فى التدرب على استخدام الأجهزة والأسلحة المتباينة . وهكذا فإن الهدف القديم الذى كان يتمركز فى الإعداد الجسمى للجندى ، قد تزايل إلى حد بعيد ، وحلت محله أهداف جديدة تماشى التطورات المتدفقة بإزاء الأسلحة والمعدّات والأجهزة الدقيقة . صحيح إن العناية بصحة الجندى ما تزال ذات أهمية ولكنها لم تعد تحتل المقام الأول فى إعداد الجندى الصالح للأمن أو الدفاع .

خامساً — أهداف إنتاجية بشرية :

لقد ظل يُنظر إلى الإنسان عَبْر العصور باعتباره أداة للإنتاج . فالسادة كانوا يستخدمون العبيد فى العمليات الإنتاجية ، وأكثر من

هذا فإن الدول القوية كانت تنظر إلى الدول الضعيفة باعتبارها أدوات إنتاجية تقدم إليها وإلى أبنائها ما لذّ وطاب من المواد الغذائية ، بل إن النساء ظللن عبر العصور المتتالية مجرد أدوات للإنتاج وللمتعة الجنسية . فكانت الجواري يبعن بالأسواق . ناهيك عن الغلمان الذين كانوا يعرضون أيضاً فى سوق النخاسة بعد أن يتم إخصاؤهم . والواقع أن التقدم الحضاري وانتشار المَيْكنة قد ترتب عليه الاستغناء عن الطاقة العضلية البشرية ، وبالتالى فإن الرجال والنساء والأطفال قد تحرروا من العبودية . وبتعبير آخر فإن هدف الإنتاج اعتماداً على القوة العضلية قد خَفُت أو تقلّص إلى حد بعيد . وبعد انتشار الميكنة الإلكترونية وبزوغ الربوتس (الأناسى الآليون) فإن هذا الهدف سوف يُستبعد تماماً ويُناط بتلك الآلات الإلكترونية والروبوتس العمل وحدها فى جميع مجالات العمل ، بينما تستبعد الطاقة البشرية ويستغنى عنها تماماً .

ولعلنا نتساءل عن العوامل المؤثرة فى التمسك ببعض الأهداف الإنتاجية برغم عدم جدواها ، فنجد أن تلك العوامل يمكن أن تتحدد على النحو التالى :

أولاً — الاعتياد على الوسائل الإنتاجية المُتَّبعة :

فالغالبية العظمى من الناس يُبَلورون طاقتهم الوجدانية حول وسائل الإنتاج التى يتذرعون بها . ومن ثَمَّ لا يكون من السهولة عاطفياً أن يهملوا ما استمروا فى التذرُّع به فى إنتاجهم من وسائل ، برغم اقتناعهم بأن الوسائل الجديدة أنجع من الوسائل التى ألِفوها . وشاهد ذلك أن الغالبية العظمى من الجهات الحكومية والشركات والمؤسسات ما تزال تحتفظ بالأضابير التى تتضمن المعلومات الخاصة بأصحاب المصالح

وبالعاملين بها ، برغم توافر الكومبيوترات بجميع المكاتب وبرغم سهولة تسجيل جميع المعلومات بحيث تحل الدِّسْكات التى لا يزيد الواحد منها عن حجم كف اليد ويحتوى على ما تتضمنه عشرة أضابير من معلومات محل تلك الأضابير . ولكنه الاعتياد وعدم الثقة فى الجديد الوافد ليحل محل القديم المألوف .

ثانياً — نقص التدريب :

ومن عوامل الإبقاء على الأهداف الإنتاجية المستهلَكة ، نقص تدرُّب المرء على الوسائل الجديدة ، أو عدم رغبته فى أن يتدرب على الجديد . والواقع أن منطق الحضارة فى تدفقها التكنولوجى المتسارع ينهج وَفْق متتالية هندسية تضاعفية ، يقضى بأن يظل المرء يتدرب على الحديث المبتكَر طوال حياته ، وأن يهجر القديم الذى يحل محله ذلك الجديد الأكثر نجوعاً وفاعلية ، ولكن منطق الحضارة شيء ، ومايعتمل فى نفوس الناس شيء آخر .

ثالثاً — عدم توافر الإمكانات :

ومن عوامل الاستمساك بالوسائل الإنتاجية المستهلكة ، نقص الإمكانات المالية وعدم قدرة المرء على الحصول على التكنولوجيات الجديدة التى تكون فى الغالب مرتفعة الثمن . فنجد أن بعض الكتاب برغم رغبتهم فى إحلال الكومبيوتر محل الآلة الكاتبة التى يستخدمونها فى التأليف ، يجدون أن مقدرتهم المالية لا تسمح لهم بشراء كومبيوتر ، ومن ثَمَّ فإنهم يُقْمعون رغبتهم فى تجديد الوسائل التى يستخدمونها فى تدبيج أعمالهم ، وفيما يقومون بإنتاجه من فكر أو أدب .

□ ضرورة تجديد الأهداف الإنتاجية :

من الحقائق التى يجب ألا تعزُب عن البال ، أن من المستحيل

تخيُّل وجود إنتاج دون أن يكون مستهدِفاً تحقيق أهداف معينة . وحتى إذا لم يعمد المنتجون إلى تجديد أهدافهم ، فإنهم سيستمرون فى ترسُّم أهداف سبق أن ترسَّموها ، فيكررون ترسَّمها ، ويستمرون على هذه الحال حتى يقيَّضَ لهم تجديد أهدافهم الإنتاجية إذا تسنَّى لهم ذلك . ولعلنا نقوم فيما يلى بإلقاء الضوء على الأسباب التى تحتم ضرورة تجديد الأهداف الإنتاجية بالنسبة لأى من المنتجين فى أى من المجالات الإنتاجية التى سبق أن عرضنا لها .

أولاً — تلبية المطالب الاجتماعية المتَغَيِّرة :

فمن الأخطاء التى يمكن أن يقع فيها البعض ، الاعتقاد فى الثبات وعدم التغير . ذلك أنهم ينظرون إلى الوجود من حولهم بما يتضمنه من وجود اجتماعى بنظرة استاتيكية لا يعتَرِيها التغيُّر . فما يكون عليه المجتمع الحالى سوف يظل فى رأيهم كما هو دون أن تعتَرِيه أى تغيرات ، سواء فى المستقبل القريب أم فى المستقبل البعيد . وبذا فإنهم لا يُحرِّكون ساكناً بإزاء الأهداف التى يتوخونها حالياً بإزاء المجال الإنتاجى الذى يعملون فيه ، بل يظلون دائبين على التشبث بها ويحاربون أى شخص يحاول تطويرها أو أن يستبدل بها غيرها من أهداف جديدة .

ثانياً — تنقية الأهداف الحالية والسابقة مما يشوبها من عيوب :

ومن الأسباب التى تحتِّم ترسُّم أهداف جديدة مباينة للأهداف الحالية والقديمة ، شعور المنتجين بأن أهدافهم الحالية التى يتَرَسَّمونها والأهداف التى سبق أن ترَسَّموها ويَقْفُونها غير مُرْضية لهم ، ولا تحقق ما يصبون إليه من إنتاج ، سواء من حيث الكم أم من حيث الكيف . فشعورهم بتلك النقائص التى تعمل على تعطيل الإنتاج ، كما تعمل

على عدم الارتفاع بمستواه، يدفعهم بلا شك إلى إعادة النظر فى الأهداف التى سبق لهم السعى لتحقيقها ، فيعمِدون إلى تطويرها أو إلى إحلال غيرها محلها وقد اعتقدوا أنها سوف تُفْضى إلى إنتاج أغزر، وإلى مستوى إنتاجى أفضل وأرقى .

ثالثاً — التبرُّم بالنمطية وبالضرب فى إثر الأهداف نفسها بلا تغيير :

فالواقع أن الإنسان كائن مَلُول . فهو سريعاً ما يتبرَّم بما ضرب فى إثره ، ومن ثَمَّ فإنه ينحو إلى التجديد والتطوير باستمرار وبخاصة فيما يسعى لتحقيقه من أهداف . وحتى بالنسبة للأهداف التى لم يحققها بعدُ ، فإنه يحس بالملل بإزائها ، فيسعى إلى أن يستبدل غيرها بها . فهو يحس بالانتعاش وتجديد طاقته النشاطية إذا هو استمر فى تجديد أهدافه ولم يستمر على وتيرة واحدة ضارباً فى إثر الأهداف التى سبق أن ترسَّمها .

رابعاً — تحاشى التوقف عن ممارسة النشاط وفقدان الحيوية :

فمن لا يجدد أهدافه الإنتاجية المستقبلية ، سرعان ما يتوقف عن بذل الطاقة الإنتاجية بعد أن يكون قد انتهى من تحقيق الأهداف التى سبق أن ترسَّمها وسعى لتحقيقها . ولعلنا نزعم أن الناس ينقسمون إلى فئتين رئيستين : فئة يُدْفع بها دفعاً من الخارج فيقوم الآخرون بترسُّم الأهداف التى على أفرادها أن يحققوها دون أن يكون لهم نصيب فى تحديد معالمها ، وفئة أخرى تنبعث من دخائلها ، فيقوم أفرادها بتَرسُّم أهدافها والعمل على تجديدها باستمرار . وإذا جاز لنا أن ننعت الفئة الأولى بأنها فئة الميكانيكيين ، فإننا ننعت الفئة الثانية بأنها فئة الديناميكيين . فهذه الفئة الأخيرة لا تتوقف بأى حال عن تجديد أهدافها ، بينما تتوقف

الفئة الأولى عن تَرَسُّم أهداف جديدة . فبينما نجد أن أفراد الفئة الثانية يتَّسمون بالتجديد المستمر لما يَبْغون تحقيقه من أهداف ، فإننا نجد أفراد الفئة الأولى يتوقفون عن تَرَسُّم أهداف جديدة طالما لم يُدْفعوا دفعاً من الخارج إلى ذلك بواسطة أشخاص آخرين يفكرون لهم ويحدِّدون ما عليهم تحقيقه من أهداف دون أن يكون لهم أى دور فى تحديدها .

خامساً ـ مواكبة التطورات التكنولوجية المتجددة :

فالواقع أن وجود الأداة يلعب دوراً خطيراً فى تحديد وتجديد الأهداف التى يَترَسَّمها المرء . وعلى هذا فكلما تطورت التكنولوجية وتدفقت المنتجات التكنولوجية ووسائل الأداء ، فإن ذلك يستتبع تجدُّد الأهداف التى يَترَسَّمها المرء الذى تلهمه التكنولوجية الجديدة بترسُّمها .

وبهذه المناسبة نقوم بإلقاء الضوء على العوامل التى تساعد على تجديد الأهداف الإنتاجية ، فنجد أن ثمة عدداً منها نقوم باستعراضه على النحو التالى :

أولاً ـ الاستعدادات الشخصية :

فمهما تحمس المرء لمدى تأثير العوامل البيئية فى حفز المرء على ترَسُّم أهداف إنتاجية جديدة ، فإنه لا يستطيع أن يُغْضى عن أهمية المواهب والاستعدادات الشخصية فى مدى حفزه على تجديد أهدافه فى المجال الإنتاجى وفى غيره من مجالات نشاطية . فالناس ليسوا سواسية أو ليسوا مجرد خامات تقوم العوامل البيئية بتشكيلها وصياغتها وَفْق الصيغ التى تُفْرض فرضاً عليها ، بل هناك الاستعدادات الجِبِلِّية تعتمل بدخائلهم وتحدد معالم شخصياتهم .

ثانياً — غزارة المؤثرات البيئية :

فكما أننا لا نغمط المقومات الوراثية الجبلية حقها فى التأثير فى مدى استعداد المرء لتجديد أهدافه الإنتاجية المستقبلية ، كذا فإننا لا نستطيع أن نغمط العوامل البيئية فضلها فى هذا الشأن . فالبيئة الثرية بالمثيرات والتى تتوافر بها الظروف المواتية لتفاعل الاستعدادات والمواهب والعمل على بزوغها سلوكياً فى حياة المرء ، تعمل عملها ، وتلعب دوراً خطيراً فى إخراج المكنون من المواهب والاستعدادات إلى الواقع السلوكى .

ثالثاً — التربية المتوازنة بين الانضباط والحرية :

فثمة نوع من التربية نستطيع تسميته بالتربية المتوازنة ؛ وهى التربية التى لا تتحيز للقسر من جهة ، كما لا تتحيز لإطلاق العنان تماماً لمن تقوم بتربيتهم دون أى قيد أو توجيه من جهة أخرى . فنحن نعتقد أن بمقدور التربية المتوازنة حمل المرء منذ طفولته على تَرَسُّم أهداف متجددة باستمرار ، وبذا فإنها تعمل على تنشئته شخصية منتجة ومُتَرسِّمة تجديد ما تستهدفه من إنتاج يتَّسم بالتطور المستمر ، فلاينضب مَعِين أهدافها الإنتاجية المستقبلية مهما تقدم بها العمر منذ الطفولة حتى الشيخوخة .

□ دينامية الأهداف الإنتاجية :

على الرغم من أننا لا ننكر الدور الرئيسى الذى يضطلع به المخطِّطون للأهداف الإنتاجية المستقبلية ، فإننا لا ننكر أيضاً أهمية الدينامية الانبثاقية التى تعتمل فى قوام الأوضاع الإنتاجية ذاتها والمسئولة عن تفريخ تلك الأهداف الإنتاجية المستقبلية . فثمة إذن قطبان أساسيان

مسئولان عن انبثاق الأهداف الإنتاجية المستقبلية : القطب الأول : هو قطب المخطِّط أو المخطِّطين الذين يتعاونون بعضهم مع بعض فى وضع المخطَّطات الإنتاجية المستقبلية ، والقطب الثانى : هو قطب الدينامية الإنتاجية المستقبلية التى على المخطِّطين الخضوع لمتطلباتها ، والسعى وراء الكشف عنها . ومعنى هذا فى الواقع أن المخطِّطين يَتْبعون تلك الدينامية ويخضعون لها ، وليسوا سادة عليها أو الخالقين لمقوماتها .

ولعلنا نقوم بالقاء الضوء على خصائص هذه الدينامية الإنتاجية المستقبلية لكى نكشف النقاب عنها ونقوم بالتالى باستعراضها على النحو التالى :

أولاً — التوالد المستمر :

فكما أن ثَمَّة أجيالاً من الكائنات الحية مستمرة فى البقاء بفضل عملية التوالد المستمر ، إذ تنقضى أجيال وتموت ، ولكنها قبل انتهاء أجلها وقبل ملاشاتها من الوجود تكون قد أنجبت أجيالاً جديدة ، كذا الحال بالنسبة للأهداف الإنتاجية . فالأهداف الإنتاجية التى تتحقق تموت ، ولكنها قبل موتها تكون قد أنجبت أهدافاً إنتاجية مستقبلية جديدة تهفو إلى أن تتحقق فى المستقبل القريب أو فى المستقبل البعيد .

ثانياً — التلقائية وعدم الخضوع للتحكم الخارجى :

وكما أن الكائنات الحية تتوالد وتتكاثر بدافع غريزى لا يخضع للتخطيط أو لا يتم باعتمال الإرادة الشخصية أو سيطرتها ، كذا فإن الأهداف الإنتاجية فى توالدها وتكَثُّرها تعمل بطريقة تلقائية ولا تخضع لسيطرة المرء . فكل ما يفعله المخطِّط هو الكشف عن تلك الأهداف الوليدة ، ثم يقوم برعايتها كما تفعل الأم بإزاء وليدها . فهى ليست الخالقة له ،

بل هى مربيته والقائمة على مَدِّه بالمقوِّمات الغذائية وحمايته من عوامل المرض وما يمكن أن يصيبه بأى ضرر .

ثالثاً — التطور المستمر :

ومن خصائص دينامية الأهداف الإنتاجية انتهاج المبدأ التطورى . والتطور يعنى التخلص من بعض المقومات أو الخصائص ، والتَّـلبُّـس بمقومات وخصائص جديدة . وأكثر من هذا فإن التطور يعنى التخلص من بعض الوظائف والتَّـلبُّس بوظائف جديدة . وهذا ما يحدث بإزاء دينامية الأهداف الإنتاجية . فما يعترى تلك الأهداف الإنتاجية من تطور يعمل على إسقاط بعض المقوِّمات أو الخصائص والوظائف التى كانت أهـداف الإنتـاج السابق تتضمنهـا ، بينما يضيـف مقـومات أو خصائص أو وظائف جديدة إلى أهداف الإنتاج المستقبلى . ولسنا نزعم أن المقومات والخصائص والوظائف الجديدة التى يتلبس بها الإنتاج المستقبلى تكون بالضرورة أفضل من المقومات والخصائص والوظائف التى كانت تتضمنها الأهداف الإنتاجية السابقة ، بل نزعم فقط أن التطور حتمى بالنسبة لدينامية الأهداف ، سواء كان متضمناً بعض المزايا أم بعض العيوب .

رابعاً — التفاعلات الدينامية :

فما يتأتى من أهداف إنتاجية جديدة ، لا يتم نتيجة إضافة مؤثرات جديدة إلى الأهداف القديمة ، بل يتأتى نتيجة تفاعل تلك الأهـداف القديمة مع المقومات والظروف والتطورات الاجتماعية التى استجدت فى الواقع الاجتماعى . وتلك التفاعلات شبيهة بالتفاعلات الكيميائية التى تتأتى عنها مركبات كيميائية على جانب أكبر من التَّعقُّد . وكما أن

المركب الكيميائى يختلف من حيث خصائصه عن خصائص المقومات التى انخرطت فى عملية التفاعل ، كذا فإن الأهداف الإنتاجية الجديدة تختلف جذرياً عن الأهداف القديمة برغم أنها مُنْبثقة منها بعد خضوعها للتفاعلات التى تمت بينها وبين العوامل التى استَجَدَّت فى الواقع الاجتماعى .

خامساً — الاستمرارية التطورية :

فالأهداف الإنتاجية المستقبلية نسبية فى الواقع إذا ما نظرنا إليها فى ضوء المستقبلية ، ذلك أن ثمة استمرارية بين الحاضر والمستقبل ، إذ يستحيل المستقبل إلى ماض ، بينما ينبثق مستقبل جديد بصفة دائبة وبغير توقف على الإطلاق . ومعنى هذا أن دينامية الأهداف المستقبلية لا تتوقف عن العمل ، بل تعمل باستمرار بحيث تنبثق أهداف متجددة باستمرار من الأهداف السابقة عليها .

وبعد استعراضنا لهذه الخصائص الخمس لدينامية الأهداف الإنتاجية فإن علينا أن نستعرض فيما يلى المُعَوِّقات التى تَحُول دون قيام تلك الدينامية بوظائفها على خير وجه :

أولاً — ضيق الأفق :

فكلما كان المرء أقل معرفة وأضيق أُفُقاً بإزاء المجال الذى يَتَرسَّم فيه الأهداف الإنتاجية ، فإنه يكون بالتالى أقل قدرة على استشفاف تلك الأهداف المستقبلية ، أو قل إن عملية انبثاق الأهداف الجديدة من الأهداف القديمة تتعطل أو لا تسير على النحو الصحيح .

ثانياً — انخفاض مستوى الذكاء :

فمما يعوق دينامية الأهداف الإنتاجية ويحول بين المرء وبين ترسُّم تلك الأهداف الجديدة التى تنبثق من الأهداف السابقة ، عدم تمتعه

بمستوى ذكاء مرتفع بدرجة مناسبة . ذلك أنه كلما كان المخطِّط للأهداف الجديدة أعلى ذكاء ، كان بالتالى أكثر قدرة على استشفاف الأهداف الإنتاجية المستقبلية الجديدة ؛ والعكس أيضاً صحيح . فكلما كان المخطِّط أخفض ذكاء ، كان بالتالى أقل قدرة على استشفاف الأهداف الإنتاجية المستقبلية الجديدة .

ثالثاً — المشكلات النفسية :

فالواقع أن ما قد يصاب به المرء من توترات نفسية أو من حالات نفسية مَرَضية ، يعمل على تكثُّف الغيوم الوجدانية — إذا صح التعبير — أمام ذهنه ، فلا يكاد يستبين ما يكون قد تم بَلْورته من أهداف إنتاجية مستقبلية .

رابعاً — الفجوات بين الأهداف :

لقد تحدث فجوات أو قفزات فيما بين الأهداف الإنتاجية السابقة والأهداف الإنتاجية اللاحقة ، فيترتب على هذا فقدان الاستمرارية والتدرجية التى يجب أن يتصف بها سير انبثاق الأهداف . فلكى تكون دينامية الأهداف الإنتاجية ذات فاعلية ، فإنها يجب أن تكون فى حالة نمو مُتَدَرِّج خال من أى فجوة أو قفزة . فإذا ما حدثت الفجوات أو القفزات فى سياق النمو أو التفاعل ، فإن الدينامية الإنتاجية تصاب عندئذ بالعطب .

خامساً — تدهور الحالة المعنوية للمرء :

فهناك مجموعة من الظروف الشخصية والاجتماعية غير المواتية تعمل على تدهور إحساس المرء تجاه نفسه وتجاه الحياة بالتقدير . من ذلك إصابته أو إصابة أحد أحبائه فى حادث يصيبه بعاهة ، وما يمكن

أن يترتب على إصابته بتلك العاهة من حالات نفسية وخيمة ، ومن ذلك أيضاً الإصابة بمرض يُفْقِد المرء حيويته ونشاطه الذى دأب على ممارسته. ولعل الشيخوخة تكون هى أخطر مرض يعمل على فقدان الكثير من الأشخاص ما دأبوا عليه من نشاط وحيوية وبذل للجهد وتجديد للأهداف الإنتاجية بطريقة سديدة .

□ المسئول عن تجديد الأهداف الإنتاجية :

على الرغم من أننا نؤمن بدينامية الأهداف الإنتاجية ، وبأنها تنبثق من قوام الأهداف السابقة عليها ، فإننا نؤمن أيضاً بأهمية اعتمال ذهن المرء فى سبيل الكشف عن تلك الآفاق الجديدة التى ينبغى أن يتجه إليها الإنتاج المستقبلى . وبتعبير آخر فإن وعى المرء بحاضره المعتمد على وعيه بماضيه ، ووعيه بمستقبله المعتمد على وعيه بحاضره وماضيه جميعاً ، يعد من الشروط الضرورية ، حتى يتسنى وقوفه على تلك الآفاق الجديدة التى ينبغى أن يتجه إليها إنتاجه المستقبلى .

وهناك فى الواقع مجموعة من الشروط التى ينبغى أن تتوافر للمرء حتى يتسنى له أن يُعمل ذهنه فى ماضيه وحاضره ومستقبله . فيستكشف بعد ذلك الآفاق الجديدة التى ينبغى أن يتجه إليها الإنتاج ، وهى على النحو التالى :

أولاً — الطفو على السطح :

فالمسئول عن تجديد الأهداف الإنتاجية المستقبلية يجب ألا يكون غاطساً فى لُجَّة الإنتاج الحالى الذى يشتغل به ، أو الذى يوجه الآخرين للنهوض به . ذلك أن الانهماك فى العمليات الإنتاجية وصرف الطاقة الذهنية فى الإنتاج الراهن ، كثيراً ما يعزف بالمرء عن توجيه الخيال

إلى المستقبل ، وعن الوقوف على ما يجب أن يشتمل عليه من أنواع إنتاجية جديدة . فالمسئول عن التجديد الإنتاجي المستقبلي يجب أن يجمع في نطاقه الذهني بين القدرة على النهوض بالعمليات الإنتاجية التي يشتغل بها من جهة ، كما يجب أن يتوافر لديه في الوقت نفسه فائض من الطاقة الذهنية التي يتسنى له صرفها في استشفاف المستقبل الإنتاجي بطريقة موضوعية واقعية . وهذه الخصيصة هي التي نستطيع تسميتها بموهبة البصر بالمستقبل الإنتاجي .

ثانياً — الوقوف على منحى التطور الحضاري :

فلكي يتسنى للمرء أن يقوم بتجديد الأهداف المستقبلية ، فإن عليه أن يكون ذا بصيرة بالتطورات الاجتماعية والحضارية التي تتبدى في البداية على هيئة أطياف خفيفة تشبه بشائر الفجر ، أعني النور الخفيف الذي يبزغ مع طلوع الفجر . فصاحب النظرة المستقبلية يجمع بين المشاهدة الواقعية ، وبين الحدس المستقبلي الذي لا يكاد يرتكز على شواهد موضوعية ، فلكأنه يلتقط أول الخيط ويستمر به ذهنياً بالحدس المستقبلي ، فيتسنى له بذلك الوقوف تنبؤياً على ما سوف يحمله التطور الاجتماعي معه من حالات ووقائع .

ثالثاً — تحويل المكنون إلى واقع والتعبير عنه بما يناسبه من مخططات :

فصاحب التجديدات الإنتاجية المستقبلية يكون متمتعاً بالقدرة على إخراج المخبوء في طيات المجهول إلى نطاق المُعْلن والصريح على صفحات الواقع المشاهد بالفعل والملموس بطريق مباشر ، فالقدرة التعبيرية لديه تكون قوية بحيث يتسنى له إلباس الأخيلة المستقبلية أردية الواقع . فهو بتعبير آخر يحيل المستقبل إلى حاضر ذهني في خياله .

رابعاً — تجهيز الإمكانات :

والمسئول عن تجديد الأهداف الإنتاجية يكون مفعماً بالقدرة على الوقوف على ما يلزم لذلك المستقبل التنبؤى من إمكانات يجب أن تتوافر حتى يتسنى إخراج المكنون من مكنونيته إلى الواقع المحسوس . ذلك أنه يدرك الفرق بين الممكن والصعب والمستحيل . فهو يستبعد المستحيل ولو آنياً . ذلك لأن المستحيل آنياً ، يمكن أن يستحيل إلى صعب أو ممكن فى المستقبل . من هنا فإن صاحبنا يركّز على الممكن والصعب ، فيدرجهما فى نطاق التحديات التى يصبو إلى تحقيقها فى الواقع الحى الملموس .

خامساً — تجهيز العلاقات الاجتماعية اللازمة لتجديد الأهداف الإنتاجية :

فصاحب هذه النظرة المستقبلية المتعلقة بتجديد الأهداف الإنتاجية، يكون خليقاً بتهيئة الظروف والملابسات والعلاقات الاجتماعية التى يجب أن تتوافر مستقبلياً حتى يتسنى تجديد تلك الأهداف الإنتاجية المنشودة . ذلك أن تجديدها مشروط بعلاقات وظروف اجتماعية معينة إذا لم تتوافر فيكون من المستحيل تحقيقها .

ولعلنا نتساءل بعد هذا عن الشروط التى ينبغى أن تتوافر فى شخصية المسئول عن تجديد الأهداف الإنتاجية ، فنجد أن تلك الشروط يمكن أن تتحدد على النحو التالى :

أولاً — التمتع بالنظرة الجشطلتية :

ونعنى بها النظرة الكلية الشاملة للموقف ، سواء من حيث المضمون الإنتاجى ، أم من حيث الزمان الذى يتم فيه الإنتاج . فالواقع أن الناس

يتباينون من حيث قدرتهم على النظر إلى الأمور بنظرة كلية شاملة . فبعض الناس يركّزون أذهانهم فى جزئية معينة، بينما يُهْملون باقى الجزئيات التى يتكون منها الكل ، وبتعبير آخر فإنهم لا يستطيعون الحصول على إدراك كلى لما يوجهون إليه أبصارهم . فهم قد يمررون بصرهم على أجزاء الموقف ومقوماته جميعاً دون أن يتسنى لهم الحصول على نظرة شاملة تجمع فى نطاقها أشتات الموقف فى وحدة متكاملة . ولكن الشخصية المتمتعة بالنظرة الجشطلتية تستطيع أن تحصل على بصيرة جامعة مانعة للموقف تجمع فى نطاقها جميع المقومات الماضية والراهنة والمستقبلية . وبالتالى فإنها تكون خيلقة بتجديد الأهداف الإنتاجية والتقدم من الواقع الإنتاجى الراهن إلى ما يجب أن يتجه إليه الإنتاج فى المستقبل .

ثانياً — القدرة التعبيرية التخطيطية :

والمسئول عن تجديد الأهداف الإنتاجية يجب أن يكون متمكّناً من فنون الإبانة التخطيطية . فهو يكون حاصلاً على مهارة التخطيط الابتكارى المعتمد على التقاط ما سوف يحمله المستقبل من إمكانات تجديدية ، فيقوم بالتعبير عنها تخطيطياً بإتقان ومهارة وواقعية .

ثالثاً — القدرة الإقناعية :

والمسئول عن تجديد الأهداف الإنتاجية يجب أن يكون شخصية متمتعة بالقدرة على إيصال المفاهيم الذهنية ، وهى المفاهيم التى عبَّر عنها وأخرجها من نطاق الكمون إلى نطاق الواقع الملموس ، وقد قام بتقديمها بالتخطيط ثم تقديمها إلى المتلقّين عنه . ذلك أن تجديد الأهداف يتطلب الاقتناع بأن ما سوف يتم التخطيط له من أهداف جديدة ،

هو أفضل مما كانت عليه الأهداف القديمة . وهذا ما يتطلب التمتع بقدرة عظيمة على إقناع الآخرين بتلك الأفضلية التى تتمتع بها الأهداف الجديدة التى يريد لها السيطرة واحتلال مكان الأولوية فى التخطيط المستقبلى .

□ **تكييف الأهداف الإنتاجية للحاجات المتغيرة :**

يخطئ من يعتقد أن استشراف الحاجات المستقبلية وتخطيط الأهداف وَفْقها وفى ضوئها لايكون بحاجة إلى إعادة نظر ، أو أن ماتم استشرافه والتنبؤ بوقوعه يُشَكِّل واقعاً ثابتاً لايتغير ولا يتطور . فالواقع أن تناول الحاجات المستقبلية باعتبارها ثوابت أو وقائع مؤكدة وراسخة ، إنما هو الخطأ بعينه . فالواقع أن تطور الحاجات والمطالب الاجتماعية بمثابة عمليات مستمرة بحيث يكون الوقوف عليها والتأكد من ثبات ملامحها وقَسَماتها بعيداً عن الصواب . والصواب أن نقول إن ثَمَّة تدفقات تَغَيُّرية وتطورية مستمرة فى واقع تلك الحاجات . وبتعبير آخر فإن استشراف الحاجات المستقبلية يكون استشرافاً مستمراً . فثَمَّة عوامل مستمرة فى التأثير تؤدى إلى وقوع تغيرات فى تلك الحاجات والمطالب الاجتماعية .

ولعلنا نكرر القول فنقول إن الحاجات والمطالب الاجتماعية ليست متراصة بعضها بعد بعض ، بل إنها متفاعلة بعضها مع بعض . فتلك التفاعلات التى تنخرط فيها الحاجات والمطالب الاجتماعية مع المؤثرات والعوامل الجديدة لا تهدأ وتَخْمُد ، ولا يمكن التنبؤ بها عن بُعد . ولكن ليس معنى هذا أن يتوقف المرء عن الاستشراف والتوقع والتنبؤ بما سوف تكون عليه الحاجات والمطالب المستقبلية . فذلك الاستشراف والتوقع والتنبؤ يُشَكِّل ضرورة لازبة ، ولكن لايكفى أن يتوقف

المرء بعد استشرافه وتوقعه وتنبؤه عن ملاحقة وتتبع تلك التفاعلات التى تقع فتعمل على تغيير ما سبق أن استشرفه المرء ، فلابد من الاستمرار فى عملية الاستشراف المستقبلية أولاً فأولاً حتى يتسنى بالتالى الاستمرار فى عملية تكييف الأهداف الإنتاجية المستقبلية لما يتم استشرافه أولاً فأولاً .

ومعنى هذا أن المخطِّط يجمع بين التخطيط الآنى وبين التخطيط المستقبلى . فهو لدى إمساكه بآخر ما انتهت إليه التفاعلات التى تمت بين الحاجات والمطالب الاجتماعية ، يقوم بالتخطيط الآنى للأهداف الإنتاجية . ولكنه من جهة أخرى يقوم بالتخطيط المستقبلى فى ضوء ما استشرفه من حاجات ومطالب اجتماعية مستقبلية . ولكنه فى تخطيطه الآنى للأهداف الآنية لايبدأ من جديد ، بل يبدأ من حيث انتهى إليه تنبُّؤه وتوقُّعه للحاجات والمطالب المستقبلية . فهو يتناول ما انتهى إليه استشرافه المستقبلى ويُحِيله إلى ملاحظة آنية حاضرة وراهنة ، فيقوم بتعديل ما قام بوضعه من مخططات إنتاجية مستقبلية لكى تكون صالحة لأن تصير مخططات إنتاجية آنية .

وجدير بنا أن نقوم باستعراض الخصائص التى يتَّسم بها تكييف الأهداف الإنتاجية للحاجات والمطالب المستقبلية المتغيرة على النحو التالى :

أولاً — اعتمال الصيغة الذاتية للأهداف :

فالواقع أن الأهداف الإنتاجية فى تكَيُّفها للحاجات والمطالب المتغيرة ، تكون مصطبغة بالصِّبْغة الشخصية التى يتَّسم بها واضع تلك الأهداف . صحيح أنه يتحرى الموضوعية فى وضعه لها ، ولكن ذلك لايعنى أنه يتخلص تخلصاً كاملاً من صبغ تلك الأهداف بصبغته الذاتية . فثمة مجموعة من العادات العقلية والوجدانية والأدائية التخطيطية

تمتلك ناصية المرء فى وضعه لتلك الأهـداف . فنحن لانستطيع أن نُـلْـغى شخصية المخطِّـط للأهداف ، وذلك لأن ثمة قطبين أساسيين يعتملان فى الموقف التخطيطى : أحدهما شخصية المخطِّـط أو واضع الأهداف بما لديه من خبرة، أو قل بما لديه من مُرَكّـب خِبْـرى استفاده عَـبْـر مواقفه التخطيطية السابقة . أما القطب الثانى فهو ذلك الواقع الخارجى المُسْتَـشرف ، سواء كان ذلك الاستشراف مطابقاً لما سوف يقع بالفعــل ، أم كان منحرفاً عن ذلك الواقـع كثيراً أو قليـلاً . فالذاتيـة والموضوعية تتجاوران، بل وتتفاعلان معاً فى الموقف التكييفى للأهداف حسب المتغيرات الإنتاجية المُـستشرفة .

ثانياً — تعانق اللاشعور والشعور :

على الرغم من أننا نؤمن بوجود تدرج فيما بين الشعور واللاشعور ، فإن هذا لايحول دون القول بأن ثمة تمايزاً فيما بين هذين القطبين . ولكن هذا التمايز لايحول دون التفاعل بينهما فى عملية وضع الأهداف ، وأيضاً فى عملية تكييف الأهداف للحاجات المتغيِّـرة باستمرار . فالمخطِّـط يكون شاعراً ببعض جوانب الموقف ، بينما يكون غير شاعر بجوانب أخرى منه ، فتَـغْـمُـض عليه ولا يستطيع استبانتها . وبتعبير آخر فإن المرء فيما يضطلع به من مخطّـطات وما يقوم بإدخاله من تعديلات وتطويرات ، لايكون واعياً بجميع التفصيلات التى يتضمنها ما يقوم بعمله ، بل إن جانباً كبيراً من نشاطه التخطيطى يكون فى مستوى اللاشـعور ، بالإضافة إلى ذلك الجانب الشعورى الذى يَعِيه ويقف عليه بشعوره الواعى .

ثالثاً — تعانق النمطية والإبداعية :

فما يتجه إليه المخطـط بإزاء الأهداف الإنتاجية ، وما يضطلع به

من تعديلات وتطويرات بإزاء ما سبق له أن وضعه منها ، يكون مُصْطَبغاً بالصِّبْغة النمطية من جهة ، وبالصبغة الإبداعية من جهة أخرى. فهو يجمع بين الضرب فى إثر المألوف الذى ترسخ فى الواقع الاجتماعى وثبتت قوائمه من جهة . وبين ما يدخله من مقوِّمات غير مَسْبوقة فى وضع أهدافه الإنتاجية ، وفى إدخال التعديلات الكثيرة أو القليلة عليها لمسايرة الحاجات المتغيرة من جهة أخرى .

رابعاً — النمو الخِبْرى فى عملية تكييف الأهداف الإنتاجية :

فالواقع أن المرء الذى يضطلع بعملية تكييف الأهداف الإنتاجية للحاجات المتغيرة ، يكتسب نمواً متزايداً فى خبرته بهذا الصدد كلما انخرط فى عمليات تفاعلية خِبْرية أكثر فأكثر . فهو لا يتوقف عند نقطة معينة لا يَبْرَحها ، بل ينمو باستمرار فى القدرة على التخطيط والتكييف . ولكن ثَمَّة نسبية فى هذا الصدد من شخص لآخر . فمن الأشخاص من يَفيدون أكثر من غيرهم فيما يكتسبونه من خبرة ومن نموّ فى قدرتهم التخطيطية وفى قدرتهم التكييفية لما سبق أن وضعوه بالفعل من أهداف .

خامساً — العوامل النفسية :

ليس هناك من ينكر أن المرء مُعَرَّض للتقلبات النفسية ، سواء كانت تقلبات عارضة ، أم كانت تقلبات مَرَضية ضاربة بجذورها فى قوام الشخصية . وعلى أية حال فما لاشك فيه أن أى تغير فى مزاج المرء أو فى واقعه النفسى الوجدانى أو الإرادى ، يؤثر على نحو أو آخر فى قدرته على وضع الأهداف الإنتاجية ، وأيضاً فى قدرته على تعديل وتطوير تلك الأهداف التى قام بوضعها بالفعل .

* * *

الفصل العاشر
تجديد الوسائل والانتاج

□ الأداة والمهارة :

منذ أن نشأت الحضارة البشرية ، والإنسان يستخدم مقوِّمين أساسيَّين فى جميع عملياته الإنتاجية ، هما الأداة التى يستخدمها فى الإنتاج من جهة ، والمهارة التى يتذرع بها فى الإفادة من تلك الأداة من جهة أخرى . وكلما كانت الحضارة البشرية تتقدم إلى الأمام ، كانت تُخْترع أدوات جديدة ، كما كانت الخصوبة فى عمليات الاختراع تتزايد وتتلاحق وتتسارع .

والواقع أن ما يسمى بالتكنولوجيا قد بدأ فى هيئة أدوات بسيطة ، ثم تطورت تلك الأدوات البسيطة وتكثَّرت وأُتْقِنت . وكلما كان الناس يعرفون حقائق أكثر ، ويكتسبون مهارات أغزر ، فإن ذلك كان ينعكس بالتالى على ما كانوا يُطَوِّرونه من تكنولوجيا . ولعلنا نزعم أن أول فأس وأول مِقْلاع استخدمهما الإنسان البدائى ، كان بمثابة ميلاد التكنولوجيا التى أخذت تتطور وَفْق متتالية هندسية إلى أن بلغت عهد الإلكترونيات ، فبزغ الإنسان الآلى إلى الوجود ، وما يزال هذا الإنسان الآلى يتَطوَّر أكثر فأكثر مُحْتلاً بذلك مواقع العمل المتباينة ، حتى لقد صار يهدد الناس بالبطالة الصريحة والبطالة المقنَّعة على المستوى العالمى ، وما تتضمنه تلك البطالة الصريحة والمقنَّعة من مشكلات

نفسية واقتصادية وأخلاقيـة واجتماعية وغير ذلك من مشكلات عديدة .

وكلما تعقّـدت الأدوات الإنتاجية التى استحالت مع التقدم الحضارى إلى آلات ميكانيكية ، ثم إلى آلات إلكترونية ، كان استخدامهـا والإفادة منها فى المجالات الإنتاجية المتباينة بحاجة إلى مهارات أكثر وأدق . بيد أن تلك المهارات اللازمة لتشغيل الآلات لم تعُـدْ تُـعَلَّـم وتُـكْـتسب عن طريق التقليد المباشر كما هو الحال بإزاء تعَلُّـم ركوب الدراجة العــادية مثلاً ، أو كما هو الحال بإزاء استخدام الشادوف أو الفأس ، بل صارت الآلات الحديثـة بحاجة إلى إعــداد علمى وتكنولوجى دقيقين . فتعَلُّـم قيادة الطائرة أو تشغيل أحد المصانـع الحديثة ، بحاجة إلى اكتساب خَلْـفية علمية وتقنية عميقة . ناهيك عن اكتساب المهارات التى تعتمد بالتالى على اكتساب مجموعة من العادات العقلية والوجدانية والحركية والاجتماعية .

وهناك فى الواقع قانون عام نَـهَـج ويَنْـهج وَفْـقه تَـطوُّر الأداة والمهارة ، لعلنا نقوم باستعراض بنوده على النحو التالى :

أولاً — التطور من البسيط إلى المركب :

فكما قلنا فإن الحضارة البشرية فى تطورها منذ العصور البدائية الأولى ، قد بدأت بالأدوات البسيطة ، وبما كان يتواكب معها من مهارات بسيطة ، ثم أخذت فى التعقد شيئاً فشيئاً إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه من تكنولوجيا فى غاية التعقُّـد ، وبخاصة بعد أن دخلت الآلات الإلكترونية فى مجال التخطيط والتطوير الذاتيين دون ما حاجة إلى مخطِّـطِين ومطوّرين .

ثانياً — التكاثر التكنولوجي الذاتي :

فكما أن الكائنات الحية تتوالد وتتكاثر ذاتياً ، كذا فإن التكنولوجيا الحديثة قد انخرطت فى عصر التكاثر الذاتى . فلقد بدأ التكاثر التكنولوجى الذاتى بأن صارت الآلة تقوم بصناعة آلة أخرى . ولكن مع دخول الكومبيوتر والإنسان الآلى فى تصميم العمليات التصنيعية ، وما يتذرعان به من تخطيط وتطوير ، فقد صار بمقدور المصانع الإلكترونية حالياً — وبالأحرى فى المستقبل — أن تنتج العديد من الآلات المعقدة التى تستخدم فى الأغراض المتباينة فى شتى المجالات الحضارية .

ثالثاً — التخصُّصات العلمية والمهارية الدقيقة :

ولقد تأتَّى عن التعقُّد الشديد للآلات الحديثة ، وما صار يتولد عنها من مهارات متعددة تتعلق بالفروع الدقيقة أو بالأجزاء الدقيقة من كل منها ، نشوء تخصُّصات علمية وتكنولوجية دقيقة . وواضح أن التخصُّص العلمى أوالمهارى الدقيق الذى ينصب على شَظْية صغيرة من كلٍّ ضخم ، لَمِن عوامل فقدان التكامل المعرفى والأدائى . فالمهندس فى أحد المصانع التى تعمل بالإلكترونيات الدقيقة ، ينحصر نشاطه العملى والأدائى فى نطاق ضيق إلى جانب حشود من المهندسين بالمصنع نفسه حيث يتخصَّص كل واحد منهم فى شَظْية صغيرة بذلك البناء الضخم جداً والدقيق جداً فى الوقت نفسه .

رابعاً — صراع الوظائف والمهن والحرف :

ويتأتى عن التدفق المستمر للتخصصات الدقيقة فى المعارف والأداءات التكنولوجية ، نشوء حَلْبة صراع عنيفة للغاية بين الوظائف بعضها وبعض ، وبين المهن بعضها وبعض ، وبين الحرف بعضها وبعض .

وينجم عن هذا الصراع المُحْتدم والشَّرِس سقوط الكثير من الوظائف والمهن والحرف صَرْعَى فى ساحة الوَغَى ، بينما تتوالد وظائف ومهن وحرف جديدة تحل محل الوظائف والمهن والحرف التى أتت عليها آلة الحضارة وأفنتها . ولقد ينجم عن ذلك الصراع المرير بين الوظائف والمهن والحرف ، إصابة بعضها بالجراح دون قتلها تماماً ، فتصاب بالفتور والضعف والوهن . وبرغم أنها تظل تعمل فى نطاق الحضارة ، فإن عملها يكون ضئيلاً وفى نطاق ضيق لا يشار إليه بالبنان .

خامساً – تَنَوُّع المهارات مع تَنَوُّع الأدوات :

فبينما بدأت الأدوات بسيطة ، وبالتالى كانت المهارات بسيطة ومنحصرة فى نطاق المهارات الحركية ، فقد صارت تلك المهارات تتعَقَّد وتتعدَّد مع تطوُّر وتعقُّد الأدوات التى استحالت إلى آلات ميكانيكية ، ثم إلى آلات إلكترونية . فلم تعد المهارات منحصرة فى نطاق المهارات الحركية ، بل اتسع نطاقها لتشمل إلى جانب المهارات الحركية البحتة ، تلك المهارات العقلية الحركية ، كما هو الحال بإزاء استخدام الآلة الحاسبة أو لوحة مفاتيح الكومبيوتر ، كما اشتملت على المهارات الوجدانية الإيحائية ، كما هو الحال بإزاء المهارات التى يستخدمها المنوِّم المغنطيسى فى التعامل مع من يقوم بتنويمه مغنطيسياً ، وكذا المهارات التربوية ، كتلك المهارات الدقيقة التى يستخدمها المعلمون الحاذقون فى التعامل مع من يقومون بتعليمهم والتمكن بواسطتها من تفتيق إمكاناتهم والتعبير عن استعداداتهم ومواهبهم ، وكذا المهارات السياسية التى يستخدمها رجال السياسة المُحَنَّكون فى توجيه الرأى العام بالداخل والخارج وتَرَسُّم أهداف سياسية قريبة أو بعيدة ، وأيضاً

المهـارات العسكرية التى يستخدمها العسكريون النابهون فى التخطيط للمعارك الدفاعية والهجومية ، وفى التنسيق بين الجنود ، وبإزاء استخدام الأسلحة المختلفة ، إلى غير ذلك من مهارات عديدة ومتباينة ، وهى جميعاً مهارات تعتمد على اكتساب معرفة علمية متخصصة فى المجال الذى تتعلق به .

ولعلنا نتساءل بعد هذا عن الصعوبات التى تعترض طريق تجديد الأدوات والآلات وما ينشأ عنها أو يتواكب معها من مهارات متباينة . إننا نستطيع تحديد تلك الصعوبات على النحو التالى :

أولاً — الصعوبات الاقتصادية :

فعلى الرغم من تدفق العلوم والتكنولوجيات على المستوى العالمى ، فإن الإفادة من المستحدث منها يتطلب نفقات باهظة ، بل إن الاستغناء عن الأدوات والآلات القديمة يعتبر خسارة مادية غير مباشرة فى الواقع ، وبخاصة إذا كانت تلك الأدوات والآلات ما تزال صالحة للاستخدام فى العمليات الإنتاجية .

ثانياً — فتـور الهمـة :

وبالإضافة إلى ما ذكرناه من صعوبات اقتصادية ، فإن الكثير من المشتغلين فى المجالات الإنتاجية المتباينة ، لايجدون لديهم الهمة أو الحماسة التى تشجعهم على تجديد معلوماتهم ومهاراتهم . فالكثير منهم يستمسكون بما سبق لهم اكتسابه وتعلـّمه من علوم ومهارات ، ويعز عليهم أن يلقوا بما سبق لهم التمكـن منه فى سلة المهملات ، ثم يبدءون من جديد فى تعلم علوم ومهارات جديدة .

ثالثاً — الاعتزاز بالقديم المألوف :

فالكثير من العاملين فى المجالات الإنتاجية المختلفة ، يُحِسُّون بالحنين والعشق تجاه ما سبق أن تعلموه وتمرَّسُوا به . فهم يُحِسُّون بالعاطفة الشديدة تجاه أدوات إنتاجهم فيكونون مرتبطين وجدانياً بها ، الأمر الذى لا يسمح لهم نفسياً بأن يستبدلوا بما سبق أن تعلموه وتمرسوا به من مهارات ، وماظلوا يستخدمونه من خامات وأدوات وآلات فترة طويلة ، مهارات وخامات وأدوات وآلات جديدة ليس لهم عهد بها ، ولا ترتبط بوجدانهم من قريب أو من بعيد .

□ السرعة والجودة :

من الأهداف الهامة التى يهدف إليهـا تجديد الوسائل التى يستعان بهـا فى الإنتاج تحقيق سرعة أكبر فى الأداء من جهة ، وتحقيق مستوى أرفع من الجودة من جهة أخرى . وبتعبير آخر فإن الإنسان منذ فجر الحضارة عندما بدأ فى سَبْر أغوار المجالات الإنتاجية المتباينة ، وهو يحاول مضاعفة إنتاجيته بسرعة الأداء من جهة ، والارتفاع بمستوى جودة ما يقوم بإنتاجه من جهة أخرى . ولقد ظل وما يزال وسيظل يستعين فى تحقيق هذين الهدفين بالوسائل التالية :

أولاً — التطوير التكنولوجى المستمر :

فالواقع أن التكنولوجيا كلما تقدمت أكثر فأكثر ، فإن الإنتاجية تزداد كماً ، وتتحسن كيفاً . والتطوير التكنولوجى يتضمن جانبين أساسيين : التحسين والاختراع . فمن حيث تحسين التكنولوجيا ، فإنه يعنى الأداء الأفضل لما هو موجود ومتاح من تكنولوجيا مستخدمة بالفعل . ومن أمثلة هذا التحسين إحلال القطارات التى تعمل بالسولار محل

القاطرات التى تعمل بالفحم . أما الاختراع فإنه يعنى إلغاء تكنولوجيا موجودة بالفعل وإحلال تكنولوجيا جديدة غير مسبوقة محلها ، ومن أمثلة هذه التكنولوجيا البديلة إحلال الطائرات محل البواخر فى نقل البضائع .

ثانياً — اكتساب مهارات حركية جديدة :

بيد أن التحسين والاختراع لا يكفيان لتحقيق السرعة فى الإنتاج والارتفاع بمستواه ، بل لابد أن يتذرع مستخدم التكنولوجيا المُحسَّنة أو المستحدثة بمجموعة من المهارات الجديدة التى تحل محل مهارات سابقة أقل جودة منها ، وأن يستمر فى التدرب على تلك المهارات الجديدة حتى يتمكن منها ويتقنها إتقاناً تاماً . ولقد يتطلب استخدام المهارات الجديدة البديلة اكتساب مجموعة من المعلومات التى تعتبر بمثابة القاعدة أو الخلفية التى تنبنى عليها تلك المهارات . فمثلا لدى إحلال الكومبيوتر محل الآلة الكاتبة ، لابد من الإلمام بالخطوط العريضة التى تتعلق بتشغيل الكومبيوتر ، وذلك قبل البدء فى التدرب على الكتابة على لوحة المفاتيح المتصلة به .

ثالثاً — اكتساب مهارات علائقية جديدة :

ولكى تتحقق سرعة أكبر فى الأداء وارتفاع مستوى نوعية الإنتاج ، لا بد من اكتساب مجموعة من المهارات العلائقية الجديدة وإحلالها محل المهارات العلائقية التى كانت سائدة قبلاً فى المجال الإنتاجى . بيد أن هذا النوع من المهارات العلائقية نسبى من حيث أهميته من مجال إنتاجى إلى مجال إنتاجى آخر . فبالنسبة للمؤلف مثلاً ، فإن هذا النوع من المهارات العلائقية لا يكون ذا أهمية كبيرة بقدر أهميته بالنسبة لرجل السياسة أو بالنسبة للمدرس أو قائد المعسكر .

رابعاً — التوافق مع المتلقين للإنتاج :

فالعمليات الإنتاجية تعتمد على قطبين أساسيين : قطب المُنْتِج من جهة ، وقطب المستهلك من جهة أخرى . فسرعة الإنتاج وجودته يجب أن يتكيفا مع سرعة المتلقين ، أعنى مستهلكى الإنتاج ومع رغبتهم فى اشتماله على مستوى أفضل من الجودة . فإذا كانت سرعة التلقى أو المطلوب فى مستوى الإنتاج منخفضين ، فإن ذلك يؤثر سلبياً فى الحافز لدى المنتِج بإزاء سرعة الإنتاج وتحسين جودته . وعلى العكس من هذا فإذا كان المستهلكون يطالبون بإنتاج أكثر وعلى مستوى أفضل ، فإن هذين المطلبين يؤثران بالإيجاب فى العمليات الإنتاجية التى يضطلع بها المنتجون .

خامساً — النظرة المستقبلية :

فسرعة الإنتاج ومستوى جودته لا يكونان مجرد رد فعل على الواقع الراهن، بل يكونان خاضعين للمطالب الاستهلاكية المستقبلية كما يتوقعها المنتجون أو خبراء الإنتاج . فثَمَّةَ ما يعرف اليوم بعلم المستقبلية Futurism ، وهو العلم الذى يلقى الضوء على المستقبل وعلى ما يتضمنه من مطالب فى شتى المجالات الحضارية وبضمنها المطالب الإنتاجية . فلقد يكون الإنتاج الحالى بإزاء سلعة ما كافياً من حيث الكم والكيف ، ولكن فى ضوء المتوقع مستقبلاً فإنه لايفى بتلك المطالب المتوقعة . فلابد إذن من أن يكون الإنتاج على مقاس المستقبل وليس على مقاس الحاضر.

بيد أن هناك مجموعة من الصعاب التى قد تعترض طريق التذرع بوسيلة أو بأخرى من هذه الوسائل الخمس التى عرضنا لها ، والصعاب هى :

أولاً — قصور الإمكانات :

فعلى الرغم من وقوف المنتِج على أن ثمة وسائل أفضل من الوسائل التى يستعين بها حالياً ويستخدمها فى عملياته الإنتاجية ، وعلى الرغم من رغبته فى التذرع بتلك الوسائل الأفضل التى تَضْمن تقديم إنتاج أغزر وأفضل ، فإنه قد يجد أن مقدرته الاقتصادية لا تسمح له بتجديد وسائله الإنتاجية ، وأنه مضطر إذن أن يستمر فى ممارسة إنتاجه بالوسائل المتاحة له والتى ليس بمقدوره استبدال غيرها بها .

ثانياً — الانغلاقية البيئيـة :

فثمة من المنتجين من يَنْغَـلقون على البيئة الضيقة التى يتعاملون معها ، ولا يحاولون توسيع المجال الاستهلاكى لسلعهم . فهم يقتصرون على الإنتاج لبيئتهم المحليـة ، ولو أنهم كانوا قد عمدوا إلى توسيع نطاق البيئة الاستهــلاكية لسلعتهم ، وذلك بفتح أسـواق جديدة لاستيعاب منتجاتهم ، لحفـزهم ذلك عندئذ على التطـور بما فى مُكْـنتهم من وسـائل إنتاجية ، والعمل على تجديدها بما يضمن لهم ازدياد سرعة الإنتـاج ، والارتفاع بمستواه فى الوقت نفسه .

ثالثاً — حيتان سوق الإنتاج :

فثمة ما يعرف بحيتان السوق ، وهم كبار منتجى نفس السلعة . فهؤلاء الحيتان يقفون بالمرصاد أمام الأسماك الصغيرة ، أعنى صغار المنتجين . فإذا ما طمحوا إلى زيادة سرعة إنتاجيتهم أو تحسين مستواها فإن الحيتان ينْقَـضُّون عليهم ، وذلك بإغراق السوق بما فى حـوزتهم من قدرة إنتاجية هائلة ، وبالتـالى فإنهم يقتلون إنتاجية أولئك المغامرين الذين تجرأوا وقاموا بزيادة سرعتهم الإنتاجية أو تحسين مستواها . وهذا

التهديد من جانب الحيتان الإنتاجية لا يقتصر على مجال إنتاجى معين دون باقى المجالات . فالواقع أن المنتجين الحيتان يُمْسكون بزمام الإنتاج فى جميع المجالات الإنتاجية . فهم لا يتركون سوى الفتات لصغار المنتجين ، ولا يسمحون لهم بالتطاول أو التلبُّس بالجرأة ، فيزيدون سرعتهم الإنتاجية ، والإكثار من كمهم الإنتاجى ، أو يرتفعون بمستوى السلع التى يقومون بإنتاجها .

□ الاقتصاد فى الجهد المبذول :

بالإضافة إلى السرعة فى الأداء وارتفاع مستوى جودة الإنتاج ، فإن الإنسان منذ أن اخترع الحضارة البشرية وهو يسعى للتخفف من وطأة الإرهاق الذى يحس به فى أداء العمل . ذلك أن العمل كان منوطاً خلال حِقَب طويلة من الحضارة بالقوة العضلية ، ثم بدأ الجهد المبذول يوزَّع بين العضلات البشرية وبين الأدوات ثم الآلات ، ثم استغنى أداء العمل عن القوة العضلية ، وصارت الآلات هى التى تقوم بالجهد وحدها. وأخيراً فإن الإلكترونيات وبخاصة الروبوتس ، بدأت فى تنحية الإنسان تماماً عن مجالات العمل بحيث لم تقتصر فى استغنائها عن جهده العضلى ، بل صارت تستغنى أيضاً عن جهده الذهنى والعصبى .

ولعلنا نقوم باستعراض أهم الوسائل التى استخدمت فى مجالات العمل المختلفة فوفرت الكثير من الجهود المبذولة على النحو التالى :

أولاً — الحيوانات الأليفة :

لقد بدأ الإنسان منذ بواكير الحضارة فى استئناس بعض الحيوانات مثل : البقرة والجاموسة والحمار والحصان والجمل ، وأخذ يُحَمِّلها جانباً كبيراً من الجهد العضلى الذى كان يتحمله وحده . فأنِيطَ بها

حمل الأثقال وجر العربات وتشغيل الساقية وحرث الأرض. ناهيك عن امتطائها والانتقال بها عبر المسافات ، فوفّر بذلك ، الجهد العضلى الذى كان يبذله فى السير على قدميه . ناهيك عن استئناس الكاب الذى أخذ فى حمايته من الاعتداء على حياته وحياة حيواناته وطيوره ، سواء من قِبَل الأعداء الآدميين أم من قِبَل الحيوانات المفترسة . فوفّر بذلك ، الجهد الذى كان لا بد من بذله فى الدفاع عن نفسه وعن ذويه وعن حيواناته وطيوره الأليفة .

ثانياً — الأدوات اليدوية :

كذلك ظل الإنسان يخترع العديد من الأدوات ، سواء تلك الأدوات المصنوعة من الخشب أم المصنوعة من الحديد أو غيره . فتلك الأدوات صارت تُعِينه على أداء الكثير من الأعمال بجهد أقل مما كان يبذله قبل اختراعها . وأكثر من هذا فإن تلك الأدوات صارت تفتِّق أمامه فنون أداء كثيرة لم تكن متاحة أمامه قبل اختراعها . ومن بين تلك الأدوات اليدوية : الإبرة والدبوس والمسمار والشاكوش والرافعة وغير ذلك كثير .

ثالثاً — الآلات البخارية :

ولم يقتصر الإنسان على اختراع الأدوات اليدوية ، بل اكتشف أن بخار الماء إذا ما ضغط ثم وُجِّه لتحقيق أهداف معينة ، فإنه يستحيل إلى قوة دفع هائلة ، فاخترع الآلة البخارية التى استخدم بإزائها حرارة الفحم المحترق فى تبخير الماء ومن ثَمَّ تشغيلها . وترتب على اختراع الآلة البخارية الكثير جداً من أنواع الآلات ، سواء تلك التى تستخدم فى حرث الأرض ، أم فى ريِّها ، أم فى جنى المحاصيل الزراعية ، أم فى تسيير القطارات ، أم فى غير ذلك من أغراض .

رابعاً — المحركات التى تعمل بالبترول ومشتقاته :

ولعل من أهم الوسائل التى وفرت الكثير من الجهد البشرى ، تلك المحركات التى استخدمت فى تسيير السيارات والقطارات والطائرات والدبابات والسفن والغواصات وغيرها . ناهيك عن تشغيل المصانع المتباينة التى تقدم المنتجات الصناعية العديدة .

خامساً — المحركات التى تعمل بالطاقة الشمسية والطاقة النووية :

أخيراً استطاع الإنسان أن يُسَخِّر الطاقة الشمسية والطاقة النووية فى تشغيل المصانع والسيارات وسفن الفضاء التى تتجه إلى آفاق الكون الخارجى . بيد أن مجال استخدام الطاقة النووية يمكن أن يكون أوسع من ذلك بكثير . ففى المستقبل القريب سوف يتم الاستغناء عن البترول ومشتقاته ، كما تم الاستغناء عن البخار بعد تطويع البترول لما كان يستخدم البخار فيه من أغراض .

وبعد استعراضنا لهذه الأنواع الخمسة من الوسائل التى ساعدت الإنسان فى الاقتصاد فى الجهد المبذول ، فإن علينا أن نقوم باستعراض جوانب ذلك الجهد المبذول الذى عملت الوسائل المذكورة على توفيره والاقتصاد فى بذله ، وهى كما يلى :

أولاً — الجهد العضلى :

فواضح أن تلك الوسائل التى استخدمها الإنسان فى الإنتاج وَفْق المعانى التى عرضنا لها بالفصل الأول من هذا الكتاب ، قد عملت على الاقتصاد فى بذل الجهد العضلى الذى كان الإنسان سيبذله لو لم تكن تلك الوسائل قد بزغت إلى الوجود واستخدمت على نطاق واسع .

ثانياً — الجهد الذهنى :

وإلى جانب الجهد العضلى الذى عملت تلك الوسائل المستخدمة فى أداء الأعمال المتباينة على توفيره ، فإن هناك الجهد الذهنى الذى تم توفيره والاقتصاد فى بذله . فالآلة الحاسبة والكومبيوتر وجميع آلات التسجيل الصوتى والمرئى التى تساعد الإنسان على توفير الكثير جداً من الجهد الذهنى الذى كان يبذل ، إنما هى نتاج تلك الطاقة التى تستخدم فى تشغيل تلك الآلات الإلكترونية الدقيقة التى قام الإنسان باختراعها وتطويعها لتحقيق أغراضه الحضارية المتباينة . فما كان يبذله الباحث فى نقل النصوص من المراجع أو فى كتابة نسخ من بحثه ، صار يقوم بتصويره مباشرة فى لمح البصر .

ثالثاً — التكلفة المالية :

فالواقع أن ما تم اختراعه من وسائل كثيرة ودقيقة ، قد عمل على توفير الكثير من المال الذى كان يُنْفَق قبل اختراعها فى أدائها أو صنعها . فالعملية التى كان يشترك فى أدائها عشرون موظفاً مثلاً ، صارت مَنُوطة بموظف واحد يشرف على الجهاز أو على الآلة التى تقوم بأدائها على خير وجه وفى وقت قياسى . والرسالة التى كان يُكَلَّف بإيصالها شخص موفد من قِبَل صاحب الرسالة إلى من ترسل إليه ، صار يتلقاها كما كتبها صاحبها عن طريق الفاكسيميلى فى التوّ واللحظة ، أو صار يتصل شخصياً بصاحبه بأمريكا أو استراليا أو بأى بقعة على الأرض مهما بَعُدت الشُّقَّة بينهما ، فيقوم بتبليغ رسالته نظير مبلغ ضئيل نسبياً .

□ استمرارية تجديد الوسائل :

قياساً على ما ضربت الحضارة البشرية فى إثْرِه من استمرارية فى

التجديد المتواصـــل بصدد الوسائل المستخدمة فى العمليات الإنتاجية المتباينة ، فإننا نستطيع أن نقول إن المستقبل القريب والمستقبل البعيد سوف يشهدان استمراراً فى تجديد تلك الوسائل . وأكثر من هذا فحيث إن التجديد فى الوسائل الإنتاجية عَبْر العصور الماضية كان يتم وَفْقاً لمتتالية هندسية تضاعفية ، فإننا نستطيع أن نقرر أن التجديد المستقبلى بإزاء تلك الوسائل سوف ينهج النَّهْج نفسه أيضاً ، فيسير وَفْق تلك المتتالية الهندسية التضاعفية .

والواقع أن هناك ما يحتم وجود هذه الاستمرارية فى تجديد وسائل الإنتاج ، لعلنا نقوم بإلقاء الضوء عليه لنستبين جوانبه على النحو التالى :

أولاً — انبثاقيـة الحاجات البشرية :

فالواقع أن الحـاجات البشرية تنبثق بعضها مع بعض بطريقـة تضاعفية . ولعلك تلاحظ تلك الانبثاقية ، سواء عَبْر حياة الفرد منذ طفولته حتى شيخوخته إذا ما تسنى بقاؤه على قيد الحياة حتى الشيخوخة ، أم فى حياة الجماعات البشرية التى تهفو بصفة مستمرة إلى أن تواكب التطورات الحضـارية المستمرة والمتلاحقة ، أم فيما يتعلق بالحاجات الثقافية بالمعنى الواسع للفظ « الثقافة » الذى لا ينحصر فى النطاق المعرفى ، بل يمتد ليشمل جميع الأنحاء الحضارية ، أم فيما يتعلق بالمعنى الاقتصادى وما يَعِجّ به السوق من منتجات مستحدثة متلاحقة تخضع لقـانون العرض والطلب ، إلى آخر تلك الانبثاقات التى تتبدى فى نطاق الحاجات البشرية .

ثانياً — تقلص بعض الحاجات :

وكما أن هناك حاجات جديدة تنبثق وتطفو على سطح الحياة الحضارية

فإن هناك حاجات قديمة تتآكل وتضمر وتَـذْوَى ، فلا تظل مطلوبة من جانب الناس فى بيئة كانت تهفو قبل ذلك إلى إشباع تلك الحاجات نفسها. ولعلنا نقول إن ثمة قانوناً يشبه قانون الهدم والبناء الذى تخضع له أجسام الكائنات الحية، يسرى على النحو نفسه بإزاء الحاجات البشرية . فكما أن هناك حاجات جديدة تبزغ إلى الوجود ، فإن هناك فى الجهة المقابلة حاجات تموت وتفنى وتتلاشى من القوام النفسى للفرد والجماعة على السواء .

ثالثاً — عدوى الحاجات :

فكما أن بعض الأمراض تنتقل من شخص لآخر بالعدوى ، كذا فإن الحاجات تنتقل بالعدوى من شخص لآخر ، أو من جماعة إلى جماعة أخرى.فالواقع أن العلاقات فيما بين الناس بعضهم وبعض ليست علاقات استاتيكية ، بل علاقات ديناميكية تفاعلية . فاحتكاك الشعوب بعضها ببعض ، يؤدى إلى انتقال عدوى الحاجات . فما كان ينظر إليه باعتباره غريباً وبعيداً عن مجال الاهتمام، يستحيل إلى صميم القوام النفسى للمرء والجماعة ، بل ويصير من الضروريات التى لا غنى عنها بأى حال .

رابعاً — شمولية الحاجات :

فالحاجات لا تقتصر على النطاق المحسوس ، أو بتعبير آخر لاتقتصر على ما يحافظ على الكيان البيولوجى للمرء والجماعة ، بل تتعدى ذلك إلى المعنويات . ولعلنا نقول إن الحاجات المعنوية صارت على المستوى نفسه من الأهميـة الذى تحتله الحاجات البيولوجية . وأكثر من هـذا فإن الحاجات المعنوية قد تداخلت وتفاعلت مع الحاجات البيولوجية . فنحن لا نأكل أو نشرب أو نلبس أى شىء يحافظ على كياننا البيولوجى ،

بل نخضع بإزاء ما نأكله وما نشربه وما نرتديه لقيم ومعايير معنوية . وكلما تطورت تلك المعايير المتعلقة بالحاجات المعنوية ، فإن الجديد منها يسيطر على ما نأخذ به أنفسنا ، وما نستخدمه فى شئون حياتنا المتباينة ، سواء فى المأكل أم المشرب أم الملبس أم فى غير ذلك من شئون .

خامساً — التدفقات التكنولوجية المستمرة :

فالواقع أن التكنولوجيا لا تتوقف عند حد لا تمتد بعده ، بل تستمر فى التدفق ، وبالتالى فإنها تعمل على تعديل الكثير من الحاجات التى كانت سائدة قبل انتشارها واستخدامها . فعندما ظهرت تكنولوجيا الوسائل الإعلامية المتمثلة أساساً فى الصحافة والإذاعة والتليفزيون ، بزغت الحاجة إلى متابعة الصحف والاستماع إلى الراديو ومشاهدة برامج التليفزيون . وقس على هذا جميع التكنولوجيات التى تُغْرق الأسواق ، وتعمل بالتالى على بزوغ حاجات جديدة لم تكن موجودة قبل ذلك .

ولكن برغم اعترافنا بهذه الاستمرارية ، فإن ثَـمَّـة مجموعة من العقبات التى تعمل على تعطيلها أو الوقوف بالمرصاد لها وتعوق مسيرتها ، وهى على النحو التالى :

أولاً — العادات والتقاليد :

فكما أن هناك دافعية تعمل على التجديد المستمر فى الوسائل الإنتاجية المتباينة ، فإن هناك فى المقابل ما يسود المجتمع من عادات وتقاليد تنحو إلى الحفاظ على المعمول به والمتعارف عليه والمعتاد على ممارسته . فثَمَّـة صراع بين الحاجات الجديدة التى تبزغ إلى الوجود الاجتماعى وبين ما استقر وثبتت أركانه وامتد بجذوره فى القوام النفسى الاجتماعى . فالغَـلَـبَـة تكون من نصيب الطرف الأقوى من هذين الطرفين المتصارعين .

فلقد تنتصر الحاجات الجديدة التى انبثقت ، كما قد تنتصر العادات والتقاليد الاجتماعية الممتدة بجذورها فى قوام المجتمع .

ثانياً — القيم الدينيـة :

ولقد تعترض بعض القيم الدينية طريق الحاجات التى تغزو الأفق الاجتماعى . منها القيم الدينية التى تُحَرِّم تحديد النسل والتحكم فى نسبة المواليد ، وتحتم ضرورة عدم التصدى لما يسمى بالتفجر السكانى من قريب أو من بعيـد ، على الرغم من تفشى الأزمات الاقتصادية التى تجتاح العالم ، وعلى الرغم من ضيق الأرض بمن عليها من بشر ولا قِبَل للمحاصيل الزراعية بمدهم بما يكفيهم من غذاء ، ولا قِبَل لمجالات العمل لاستيعابهم وتشغيلهم . فالحاجات الاجتماعية المُلِحَّة قد تجد ما يصدها ويقف فى طريقها من قيم دينية تستعصى على التنحى عن مواقفها المتشددة .

ثالثاً — التربية والتعليم والتدريب :

فالتخلف الذى يهيمن على التربية والتعليم والتدريب ، يعمل بطريق غير مباشر على الوقوف فى وجـه الحاجات البازغة . فنجد مثلاً أنه بعد ظهور الكومبيوتر ، لم تَتَنَحَّ مدارس التجارة عن تدريب الطلبة على الكتابة على الآلة الكتابة ، على الرغم من أن الكومبيوتر قد ألغى الأهمية التى كانت مَنُوطة بالآلة الكاتبة . وكذا فإن الكثير من المعلمين يَنْعون على استخدام الآلات الحاسبة فى الفصول بحجة أن استخدامها يؤدى إلى ضعف التلاميذ فى تحصيل مادة الحساب . وقِسْ على هذا الكثير من الوسائل التكنولوجية التعليمية العديدة التى تغمر الأسواق ، ولكن رجال التربية والتعليم فى واد وتلك التكنولوجيات فى واد آخر .

□ الوسائل المادية والوسائل المعنوية :

تنقسم الوسائل التى تستخدم فى المجالات الإنتاجية المتباينة التى عرضنا لها بالفصل الأول من هذا الكتاب ، إلى نوعين أساسيين : نوع مادى ملموس ، ونوع آخر معنوى غير محسوس . ولعلنا فى هذا المقام نقوم باستعراض النوعيات الفرعية التى ينشعب إليها هذان النوعان من الإنتاج. ولنبدأ باستعراض النوعيات الفرعية التى ينشعب إليها النوع المادى على النحو التالى :

أولاً — الخامات :

وهى قد تكون طبيعية ، كما قد تكون مُصَنَّعة . والخامة الطبيعية مثل الطين والقطن والحرير والحديد الخام . أما الخامة المُصَنَّعة فهى كالقماش والزجاج والورق . والواقع أن الإنسان منذ فجر الحضارة وهو يقوم باستخدام الخامات فى عمليات التصنيع المتباينة تبعاً للمستوى الحضارى الذى بلغه . وكلما تقدمت الحضارة ، بزغت بالتالى أنواع جديدة من الخامات التى يستخدمها الإنسان فى الصناعات المتباينة . ولا شك أنه لولا الخامات الطبيعية والخامات المُصَنَّعة ، لما قامت لأى صناعة قائمة بأى حال من الأحوال . وكلما افتَنَّ الإنسان فى استنباط خامات جديدة ، سواء كانت خامات طبيعية أم خامات مُصَنْعة ، فإن مجال التصنيع ينفتح أمامه أكثر فأكثر .

ثانياً — الأدوات والآلات :

ومنذ أن بزغت الحضارة على وجه الأرض ، والإنسان يستخدم الأدوات فى عمليات التصنيع ، وقد تطورت الأدوات إلى آلات ميكانيكية ثم إلى آلات إلكترونية . وما يزال التكنولوجيون دائبين على تطوير

الآلات الميكانيكية والإلكترونية وعلى اختراع أنواع جديدة من الآلات لكى تكفل تقديم أنواع جديدة من المنتجات ، أو تعمل على زيادة الكم الإنتاجى .

ثالثاً — القوة العضلية :

ومنذ بواكير الحضارة أيضاً والإنسان يستخدم قوته العضلية (أو القوة العضلية لبعض الحيوانات) فى تحريك الأشياء أو حملها ، أو فى تشكيل الخامات ، أو فى حفر الأرض ، أو فى إقامة المبانى ، أو فى قطع الحشائش والأشجار ، أو فى ذبح الطيور أو الحيوانات للاستفادة من لحومها أو فى إعداد الطعام ، أو لاستخدام جلودها وعظامها فى صناعة بعض حوائجه .

وبعد أن قدمنا هذه النوعيات التى ينشعب إليها النوع المادى من الوسائل ، فإن علينا أن نقوم بتقديم النوعيات التى ينشعب إليها النوع المعنوى من وسائل الإنتاج على النحو التالى :

أولاً — الخبرات العملية :

يتمتع الإنسان باستعداد عظيم لاكتساب خبرات عملية عديدة مما يصادفه عملياً فى مواقف حياته المتباينة . والخبرة العملية قد تتأتى له عن طريق المحاولة والخطأ ، كما قد تتأتى له نتيجة التمرن على نموذج أدائى يكون قد أعده لنفسه أو أعده غيره له لكى يقوم بتقليده عدة مرات إلى أن يتم اكتسابه وإتقان ممارسته . والخبرة قد تكتسب بطريقة شعورية واعية ، كما قد تكتسب بطريقة لاشعورية وتلقائية . وكلما تعقدت الحضارة ، فإن الخلفية المعرفية التى تقوم الخبرة العملية على أساسها تكون على جانب أكبر من الدقة والتّعقد . والخبرة العملية قد تكون خبرة

فردية يمارسها شخص واحد دون ما حاجة إلى التعاون مع غيره فى أدائها، كما أنها قد تكون خبرة جمعية لا بد من اشتراك أكثر من شخص واحد فى القيام بها .

ثانياً — العلوم والمعارف :

ومن الوسائل المعنوية التى يستعين بها المرء فى الإنتاج — كائناً ما يكون — تلك العلوم والمعارف التى ثبتت أركانها ، وتحددت معالمها وقوانينها . فهو يكتسبها من مصادرها الموثوق فيها بحيث تشكِّل لديه ركيزة أو نقط انطلاق نحو التطبيق حسبما تتطلب المواقف العملية ذلك . وقد يكون الموقف الذى يجابهه المرء متعلقاً بالأشياء المادية ، كما أنه قد يكون متعلقاً بنوع معين من العلاقات الاجتماعية . فالمعلم فى مواقفه التعليمية يكون مُرْتكزاً على خلفية علمية تتعلق بالتربية وعلم النفس وبمقومات المادة التى يقوم بتدريسها. وكلما كانت العلوم والمعارف أكثر هضماً وتفاعلاً بعضها مع بعض فى القوام المعرفى للمرء ، كانت بالتالى أكثر قابلية للتوظيف والإفادة منها فى المواقف الاجتماعية والعملية .

ثالثاً — الصحة النفسية :

فالمرء المتمتع بالصحة النفسية الجيدة هو الخليق بإقباله على الإنتاج الجيد وما يتطلبه من إيجابية وتفتُّح على الحياة . والمعروف أن المرض النفسى — أياً كان — يشكِّل عائقاً أمام المرء فى حياته الإنتاجية . ولقد يكون المرض النفسى وراثياً ، فيظهر فى مرحلة عمرية معينة ، كما قد يكون مكتسباً نتيجة الإصابة بمرض جسمى عصبى ، أو قد يكون مكتسباً نتيجة مواقف صعبة لا يتحملها المرء ، ولا تكون هناك فى هذه

الحالة أسباب بيولوجية تعمل على الإصابة بالمرض الذى يوصف بأنه مرض وظيفى functional .

رابعاً — الطاقة النفسية :

ومن الوسائل المعنوية التى ترتكز عليها العمليات الإنتاجية ما يعرف بالطاقة النفسية . فعندما يقبل المرء على أداء عملية ما مهما صغرت أو كبرت ، فإنه يستعين بقدر ما من الطاقة النفسية التى تنبثق وتُسْتمد من الطاقة انبيولوجية ، ولكنها تتباين عنها . فشأنها كشأن الماء الذى ينبثق نتيجة تفاعل الأوكسجين والأيدروجين . فهذه الطاقة النفسية وإن كانت مستمدة من الطاقة البيولوجية ، فإنها تتباين عنها . ولا شك أن قيام المرء بأنشطته المتباينة بحاجة إلى التذرع بتلك الطاقة النفسية ، وهى ما يعبر عنها بالحالة المعنوية للمرء . فكلما كانت تلك الحالة المعنوية أكثر حيوية وتَدَفُّقاً ، كان إقباله إذن على أداء أنشطته وواجباته أسرع وأكثر إنتاجاً وأرفع مستوى .

خامساً — وضوح الأهداف :

فمن الأهمية بمكان أن يقوم المرء بتَرسُّم الأهداف وتحديدها بحيث تكون واضحة أمام ذهنه . وكما سبق أن قلنا فإن المُدَاومة على تجديد الأهداف يضمن للمرء استمرار نشاطه فى حالة تدفُّق وعدم نضوب . ذلك أن الأهداف عندما تتحقق ، فإنها تفقد قيمتها وتنشأ الحاجة عندئذ إلى تَرَسُّم أهداف جديدة تحل محل الأهداف التى فقدت قيمتها بعد تحقُّقها واستنفاد قوتها واستهلاكها .

* * *

الفصل الحادى عشر
الابداع والانتاج

□ **الإبداع التطويرى والإنتاج :**

هناك نوعان من التطوير : نوع هامشى ، ونوع آخر جوهرى . والتطوير الهامشى لا ينصب على جوهر الموضوع الذى يراد تطويره ، بل ينصب على هوامشه . فصاحب السيارة الذى يعمد إلى تغيير لون سيارته ، يكون قد قام بتطويرها تطويراً هامشياً . أما المهندس الذى يقوم بتطوير محرك السيارة ، فيغيِّر الوقود الذى تسير بواسطته بإحلال الغاز الطبيعى محل البنزين أو السولار ، فإنه يكون بذلك قد قام بإدخال تطوير جوهرى على السيارة .

وعلى الرغم من أننا نعتقد أن هذين النوعين من التطوير — أعنى التطوير الهامشى والتطوير الجوهرى — ينخرطان فى نطاق الإبداع ، فإننا نذهب إلى أن الإبداع فى حالة التطوير الهامشى هو إبداع هامشى ، بينما الإبداع فى حالة التطوير الجوهرى هو إبداع جوهرى . ولعلنا فيما يلى نلقى الضوء على هذين النوعين من الإبداع لنكتشف الفروق بينهما ، فنحدد تلك الفروق على النحو التالى :

أولاً — من حيث مدى شعور المبدع بالمشكلة :

فبينما يكون إحساس المبدع الهامشى بالمشكلة التى تتعلق بالموضوع الذى يرغب فى الإبداع بإزائه ليس محتدماً أو عميقاً أو مقلقاً ، فإننا فى المقابل نجد أن إحساس المبدع الجوهرى بالمشكلة التى تتعلق بالموضوع

الذى يرغب فى الإبداع بإزائه مُحْتدماً وعميقاً ومُقْلقاً . ولقد نقول إن المبدع الجوهرى يمر بحالة نفسية مؤلمة نفسياً كتلك الحالة التى تمر بها المرأة التى توشك على ولادة طفلها . وكثيراً ما يقال إن المبدع يمر فى حالة مخاض ذهنى .

ثانياً — من حيث إدراك مقومات الموضوع :

فبينما نجد أن المبدع الهامشى يصب اهتمامه على هوامش الموضوع الذى يقوم بتطويره ، فإننا نجد أن المبدع الجوهرى يصب اهتمامه على جوهر الموضوع . وبتعبير آخر فإن مدى إلمام المبدع الهامشى بالموضوع الذى يريد تطويره ، يكون أضيق من مدى إلمام المبدع الجوهرى به . ولقد نقول إن المبدع الجوهرى يَسْبُر أغوار الموضوع ، بينما يظل المبدع الهامشى حائماً على سطحه ولا يغوص إلى أعماقه الدفينة .

ثالثاً — من حيث إعمال الذكاء :

وبينما نجد أن المبدع الهامشى لا يكون بحاجة إلى إعمال ذكائه بعمق فى الموضوع ، أو بتعبير آخر لايكون بحاجة إلى إقامة علاقات دقيقة بين جزئيات الموضوع ومقوماته ، فإن المبدع الجوهرى يُعْمِل ذكاءه فى قوام الموضوع ، فيقوم بإقامة علاقات دقيقة بين تلك الجزئيات أو المقومات التى يتكون منها .

رابعاً — من حيث التعديل الوظيفى للموضوع المُطَوَّر :

فبينما نجد أن التطوير الهامشى للموضوع لايؤدى إلى توظيف جديد له ، أو لا يتعلق بجوهر ذلك التوظيف ، فإننا نجد أن التطوير الجوهرى ينصب على جوهر وظيفة الموضوع . فالشخص الذى يُغيِّر لون هيكل

سيارته ، لا يصب تطويره على جوهر عمل السيارة ، خلافاً للشخص الذى يستبدل نوع الوقود الذى تسير به السيارات جميعاً . إنه يكون بذلك قد عَـمَـد إلى تطوير محرك السيارة حتى يتسنى لها الاشتغال بواسطة الغاز الطبيعى بدلا من الاشتغال بواسطة البنزين أو السولار .

خامساً — من حيث التخصيص والتعميم :

فالمبدع الهامشى يكون منحصراً فى نطاق جزئى لايتعداه ، بينما يتصف عمل المبدع الجوهرى بالتعميم . ذلك أنه لايقوم بحصر إبداعيته فى نطاق جزئى ضيق . فصاحب السيارة الذى يُغَـيِّـر لون هيكل سيارته لايكون نبراساً لغيره لكى يقوموا بتغيير لون سياراتهم كما فعل . أما المهندس الذى يُغَـيِّـر وقود السيارة ، فيحل الغاز الطبيعى محـل البنزين أو السولار ، فإنه يكون بذلك قد فتح مجالاً جديداً أمام صناعة السيارات ، بحيث تتلقف مصانعها اختراعه وتقوم بتصميم السيارات الجديدة فى ضوء التطوير الجوهرى الذى أدخله على المحرك .

ولعلنا بعد هذا نقوم بإلقاء الضوء على العلاقة فيما بين الإبداع التطويرى بنوعيه وبين الإنتاج ، فنجد أن تلك العلاقة تتمثل فيما يلى :

أولاً — تحسين الإنتـاج :

فالواقع أن أى مُنْتَـج — كائناً ما يكون — بحاجة إلى تطوير وتحسين مستمرَّيْـن ، أو بتعبير آخر يكون بحاجة إلى التخلص من العيوب التى شابته من حيث التصميم ، أو من حيث التنفيذ ، أو من حيث القدرة على خدمة الهدف الذى أُنْتِـجَ أصلاً من أجل تحقيقه . من هنا فإن العمليات التطويرية — سواء كانت عمليات تطويرية هامشية ، أم عمليات تطويرية جوهرية — تستهدف التخلص من العيوب التى تشوب

المُـنْـتَـج ، وإدخال التعديلات التى تجعله أفضل مما كان عليه حاله قبل إدخال التطويرات الجديدة عليه ، سواء كانت تعديلات وتطويرات هامشية ، أم كانت تعديلات وتطويرات جوهرية .

ثانياً – تطوير الهدف وتطوير الوسيلة :

والواقع أن الإبداع التطويرى ينصب على جانبين أساسيين : الجانب الأول هو الهدف الإنتاجى ، والجانب الثانى هو الوسيلة التى تحقق ذلك الهدف الإنتاجى . فكلما أمعن المبدع فى تطوير الهدف الإنتاجى وفى تطوير الوسيلة التى يتذرع بها لتحقيق ذلك الهدف ، كانت إبداعيته أكثر خصوبة وأكثر إنتاجية .

ثالثاً – تحويل التصورات الذهنية إلى واقع تطبيقى :

والمبدع التطويرى لا يتوقف عند حدود ما يرتسم فى ذهنه من صور ذهنية ، بل يَعْـمِـد إلى إخراج أفكاره من نطاق الكمون إلى نطاق الواقع الفعلى المحسوس ، فهو يقوم بعملية ترجمة عملية لما اعتمل فى ذهنه . فهو يستعين بإرادة التغيير والتطوير . وبتعبير آخر فإنه يحيل الفكر إلى عمل ، والنظرية إلى تطبيق قابل للتعميم ، سواء بواسطته أم بواسطة غيره .

رابعاً – استمرارية الإبداع التطويرى :

فهذا النوع من الإبداع لايتوقف عند حد ، بل يستمر فى التدفق ، طالما أن النـاس يتباينون فى أمزجتهم وتقديرهم للأمور ، وطالما تتدفق الحاجات وتبزغ مشكلات جديدة تستدعى التوصل إلى حلول بالتطوير الإبداعى للتغلب عليها . والواقع أن الإبداع التطويرى قد لازم الإنسان منذ نشأة الحضارة حتى اليوم ، ويُعْـزَى إليه جانب كبير من التقدم الحضارى الذى بلغته البشرية عَـبْـر مراحل التاريخ .

خامساً — ارتباط الإبداع التطويرى بالمستوى الاقتصادى :

فليس من شك فى أن الإبداع التطويرى بحاجة إلى ميزانية مالية مدعَّمَة باستمرار . ولعلنا نزعم بحق أن الكثير من الإبداعات التطويرية قد توقفت عند حدود الذهن ، ولم يقيض لها أن تخرج إلى النور بسبب العجز عن الإنفاق على ترجمتها لكى تخرج من النطاق الذهنى إلى النطاق الواقعى .

□ الإبداع الطَّفْرى والإنتاج :

بينما نجد أن الإبداع التطورى يرتكز على أساس من الواقع الموجود بالفعل ، سواء كان الإبداع التطورى هامشياً أم كان جوهرياً ، فإننا نجد أن الإبداع الطَّفْرى لا يرتكز على أى أساس من الواقع الموجود ، بل يكون بمثابة خلق لشىء جديد تماماً نتيجة ما يعتمل فى ذهن المبدع الطفْرى من تفاعلات خِبْرية أشبه ما تكون بالتفاعلات الكيميائية التى يتأتى عنها مركبات تتصف بصفات مباينة للصفات التى تتصف بها العناصر أو المركبات التى انخرطت فى تلك التفاعلات الكيميائية .

ولعلنا نقوم بتقديم الخصائص التى يتسم بها الإبداع الطفرى على النحو التالى :

أولاً — إنه ترجمة عملية للثمار الذهنية الجاهزة :

فالإبداع الطفرى عبارة عن تعبير عن قوام ذهنى صار جاهزاً فى ذهن الشخص المبدع . صحيح إن ذلك القوام الذهنى مستمد من حيث عناصره من الواقع الخارجى ، ولكنه يُهْضم بدخيلة الشخص المبدع هضماً تاماً كهضمه للمواد الغذائية التى يستمدها من الواقع الخارجى ، ولكنها تستحيل بالهضم إلى قوام من قوامه ، وإلى مقومات جديدة مباينة للمواد الغذائية قبل هضمها .

ثانياً — فردانية الإبداع الطفرى :

وما يقوم به المبدع الطفرى من إبداع ، لايكون مسبوقاً أو متزامناً ، بل يكون نسيج وَحْدِه ومتفرِّداً . ذلك أنه كما قلنا تعبير عن ذاتية المرء المبدع . فهو وإن كان مستمَداً من حيث عناصره من الواقع الخارجى ، فإنه بعد انخراطه فى عمليات داخلية خاصة بذاتية المرء ، لايكون مركَّباً من العناصر الموضوعية فحسب ، بل يكون مركَّباً من العناصر الموضوعية والعناصر الذاتية جميعاً . فالمِسْحة الشخصية ترتبط بالإبداع الطفرى ارتباطاً وثيقاً .

ثالثاً — تكاملية الإبداع الطفرى :

فالإبداع الطفرى شأنه شأن الطفل الوليد المتسم بالتكامل بين مقوماته المتباينة . فهو ليس بمثابة قطع متراصة لارابط يربط فيما بينها ، بل هى كلٌّ متكامل يشتمل على مقومات متباينة . وأكثر من هذا فإن كل مُقَوِّم من مقوماته يتعامل باستمرار مع الكل فى انسجام وترابط واتساق .

رابعاً — الاستمرار فى النمو :

والإبداع الطفرى يتسم بالاستمرار فى النمو . فالمبدع الطفرى وإن كان يُعبِّر عن ثماره الإبداعية كلما توصل إلى مرحلة تفاعلية يمكن التعبير عنها ، فإنه يعمد على نحو لا شعورى إلى الاستمرار فى العمليات التفاعلية الخِبْرية ، فيتخذ من المركب الخِبْرى الذى انتهى إليه ، نقطة انطلاق جديدة للتفاعلات الخِبْرية التالية ، وذلك بأن يستمد من الواقع الخارجى عناصر ومقومات جديدة يدخلها فى نطاق تفاعلاته الخبرية الجديدة . وهكذا يتصف الشخص المبدع طفرياً بأنه شخصية دائبة على تقديم ثمار إبداعية طفرية مستمرة بلا توقف .

خامساً — التوسع فى التطبيق بعد جنى الثمار :

فالواقع أن المبدع الطفرى لا يبحث عن مجالات لتطبيق وتوظيف ما انتهى إليه من إبداع فى مجالات الحياة العملية المتباينة ، ذلك أنه لا يربط فيما بين نشاطه الإبداعى وبين ما يمكن أن يفيده من ذلك النشاط ، بل يستقل ذهنياً فى دخيلته بحيث تتأتى له الثمار الإبداعية كما تتأتى تلقائياً دون أن يضع أمام عينيه هدفاً يصوِّب نحوه ما يتأتى له من ثمار إبداعية طفرية ، ولعله يستعين بغيره من خبراء فى توظيف ما انتهى إليه من ثمار إبداعية طفرية ، أو قل إن التكنولوجيين أو رجال الصناعة أو التطبيقيين عموماً ، يُشَكِّلون الصف الثانى الذى يتلقف ما ينتهى إليه المبدعون الطَّفْرِيُّون ، فيمتدون بما توصلوا إليه من النطاق الضيق إلى النطاق الواسع ، ومن طفولة الإبداع الطفرى إلى مراحل عمره التالية ، فيوفِّرون له فرص النمو والممارسة العملية ، والتوظيف على نطاق واسع وفى أشكال متعددة .

وبعد أن قمنا بتقديم هذه الخصائص الخمس التى يتصف بها الإبداع الطفرى ، فإن علينا أن نقوم بإلقاء الضوء على العلاقة القائمة فيما بين هذا النوع من الإبداع الطفرى وبين الإنتاج ، فنجد أن هذه العلاقة يمكن أن تتحدد على النحو التالى :

أولاً — إحالة الخيال إلى واقع :

فالكثير مما كان يجول بخيال الأجيال السابقة من أخيلة تراودهم فى المنام أو خلال أحلام اليقظة ، قد صار واقعاً بالفعل . وما كان خاصًّا بشخصية الحالم فى النوم أو فى اليقظة ، صار معروضاً بالأسواق لمن يرغب فى الحصول عليه أو الاستفادة منه أو توظيفه فى الواقع العملى .

ثانياً — شمولية الإبداع الطفرى :

وهذا النوع من الإبداع لاينحصر فى نطاق معين ، أو فى فئة إنتاجية معينة ، بل يتصف بالشمولية ، أى أنه يغطى جميع المجالات الإنتاجية ، سواء المحسوس منها أم المعنوى أو الرمزى . فثمة إذن أنواع عديدة من المنتجين الطَّفْريين الذين يغطون جميع المجالات الإنتاجية التى عرضنا لها بالفصل الأول من هذا الكتاب .

ثالثاً — تصارع الإبداعات الطفرية :

فالواقع أن كل إنتاج طَفْرى فى أى مجال من المجالات الإبداعية لايظل فى حالة استقلال وهدوء ، بل تنشب معارك بينه وبين النتاجات الطَّفْرية الأخرى ، ينجم عنها إما فَقْد الحياة تماماً ، وإما الضَّعف والخَوَر ، وإما الانتصار على الخصوم المنافسين له فى ساحة الصراع على البقاء . فالحنطور كان ثمرة لإبداع طَفْرى ولكنه تصارع مع ثمرة إبداعية طفرية أخرى هى السيارة ، فانهزم هزيمة منكرة أمامها ، ويكاد يترك مكانه تماماً للسيارة . والباخرة باعتبارها ثمرة للإبداع الطفرى هُزمت بعد معركتها مع الطائرة ، وهى أيضاً ثمرة للإبداع الطفرى . والآلة الكاتبة هُزِمت أمام الكومبيوتر. وقل الشىء نفسه بإزاء الكثير جداً من ثمار الإبداعات الطفرية التى تدخل فى معارك مستمرة مع ثمار إبداعية أخرى .

رابعاً — تراكبية الإبداعات الطَّفْرية :

فكما سبق أن قلنا فإن كل إبداع طَفْرى ينخرط فى نطاق المواد التى تشترك فى العمليات التفاعلية بدخيلة المبدع الطفرى . وسواء كانت الإبداعات الطفرية السابقة من نتاجاته شخصياً أم من نتاجات غيره

من مبدعين طفريين ، فإن التفاعلات الخِبْرية تستمر معتملة فى قوامه ، وقد اعتبر أن ما سبق من إبداعات طفرية ليس سوى خامة يستعان بها فى العمليات التفاعلية الخِبْرية التى تحدث فى قوامه لكى يتأتى عنها ثمار إبداعية جديدة .

خامساً ــ دور الذكاء والحدس والإلهام :

ولاشك أن المبدعين الطفريين يتمتعون بمستوى مرتفع من الذكاء، أعنى القدرة على إقامة علاقات دقيقة بين مُقَوِّمات الموقف ، والإفادة مما سبق تحصيله من خبرات ، كما أنهم يتمتعون بقدرة حدسية عظيمة ، والحدس هو سَبْر أغوار الحقيقة بغير استناد إلى شواهد محسوسة سابقة، أو هو القيام بدمج مجموعة من العمليات العقلية فى عملية واحدة . ثم إنهم يتمتعون بموهبة الإلهام ، أعنى تَلَقُّف رسائل إلهامية من الواقع الخارجى ، سواء كان واقعاً اجتماعياً ، أم مصدراً غيبياً . فعلى هذه الأسس الثلاثة ، أعنى الذكاء والحدس والإلهام ، ينبنى النشاط الإبداعى الطفرى .

□ الإبداع الفردى والإنتاج :

يتحدد نوع الإبداع من حيث كونه إبداعاً فردياً أم من حيث كونه إبداعاً جمعياً فى ضوء طبيعة النشاط المُؤَدَّى نفسه . فهناك أنشطة فردية بطبيعتها ، كما أن هناك أنشطة جمعية بطبيعتها . وفى ضوء ما سبق أن ذكرناه قبلاً ، فإن الأنشطة الإنتاجية قد تنصب على المحسوسات ، كما أنها قد تنصب على المجرَّدات أو المعنويات . فمن الأنشطة الإبداعية الفردية ما ينصب على المحسوسات ، ومنها ما ينصب على المجردات أو المعنويات . والشىء نفسه ينطبق بإزاء الأنشطة الإبداعية الجمعية .

وحيث إننا نُرَكِّز كلامنا فى هذا الموضوع على الإبداع الفردى فى علاقته بالإنتاج ، فيحسن بنا أن نلقى الضوء على هذا النوع من الإبداع فى علاقته بالإنتاج لكى نستبين خصائصه ، فنجد أن تلك الخصائص يمكن أن تتحدد على النحو التالى :

أولاً — الاصطباغ بالصبغة الذاتية للمبدع :

فالإبداع الفردى وما يتأتى عنه من إنتاج يكون مُنْطبعاً بطابع شخصية المبدع ، فتتبدى فيه سماته الشخصية واتجاهاته المتفرد بها ، وما سبق له اكتسابه من خبرة ، ومن عادات ذهنية ووجدانية وإرادية ، وما يميل إليه من موضوعات ، ويكرِّس جهده وطاقته له . وباختصار فإن ما يقدمه المبدع الفردى من نتاجات غير مَسْبوقة يكون مُعَبِّراً عن شخصيته بالرغم من أنه يكون صدى للبيئة المحيطة به ، ومُعَبِّراً عن الحاجات الاجتماعية المعتملة فى تلك البيئة . ولكن على أية حال فإن الطابع الشخصى يهيمن على الطابع الاجتماعى فيما يقوم المبدع الفردى بتقديمه من أعمال إبداعية .

ثانياً — الأصالة غير المَسْبوقة :

ومن الطبيعى أن تكون النتاجات الإبداعية التى يقدمها المبدع الفردى غير مَسْبوقة ، حتى وإن كان قد تأثر بغيره من المعاصرين أو السابقين . فتأثره لايكون بإزاء جوهر الإنتاج الإبداعى الذى يفرزه ، بل ينصب على الهوامش والفروع . فتأثره بالآخرين لايكون تأثراً نَقْلياً ، بل يكون تأثراً تفاعلياً ، بمعنى أن العناصر الخِبْرية التى يتلقاها عن الآخرين تنخرط فى سياق عمليات تفاعلية ، كتلك التفاعلات الكيميائية التى تتأتى عنها مُرَكَّبات تحمل خصائص غير خصائص

المُقَوِّمات التى انخرطت فى تلك العمليات التفاعلية . فما يفيده المبدع الفردى من غيره لايعمل على طمس الملامح الشخصية لنتاجه الإبداعى. ذلك أنه يشق خطوطاً جديدة فى الإنتاج ثم يقفوه تلاميذه والتابعون له والمتأثرون به ، ويظل علامة فى نطاق الشخصيات المبدعة ، كما يكون نسيجَ وَحْدِه غير مَسْبوق .

ثالثاً — الزعامة الإبداعية :

فالمبدع الفردى يمثل نقطة تَحَوُّل فى المجال الذى يبدع فيه . فهو يكون إماماً لمجموعة من المتأثرين به والتابعين له . وحتى إذا لم يقم بإنشاء مدرسة ، أو لم يلتئم التلاميذ حوله فيأخذون عنه ويعترفون له بأستاذيته لهم ، فإن تأثيره يمتد لأجيال متتابعة أو لقرون عديدة ، بل إنه يترك بصمته على الثقافة بطريقة مُؤبَّدة لاتقبل الاضمحلال أو التلاشى . فهو يمثل مرحلة إبداعية أو بدء مرحلة إبداعية جديدة ، أو قد يكون تمهيداً لنشأة مدرسة جديدة أو اتجاه جديد فى النطاق الإبداعى الذى يعمل به .

رابعاً — الثورة على وضع قائم :

فكل إبداع فردى فى أى مجال من المجالات التى يتم فيها الإبداع ، يشتمل فى الوقت نفسه على ثورة ضد وضع قائم بالفعل ، والمقصود بالثورة الانقضاض على ماهو موجود لإحلال الجديد الذى يبدعه المبدع محله . فالثورة إذن هى هدم من جهة ، وبناء من جهة أخرى . وقد يكون الهدم والبناء مُنْصَبَّين على طريقة فى التفكير ، أو على طريقة فى الأداء ، أو على اتجاه أو عاطفة عامة ، أو على قيَم سائدة أومعتقدات تأخذ بألباب مجموعة من الناس ، كالمربِّين أو الرؤساء أو حتى عامة الشعب .

خامساً — الشجاعة المشفوعة بالحكمة :

فالمبدع الفردى يكون شخصية شجاعة ومُتَّشحة بالحكمة والتعقل والاتزان الوجدانى وعدم التهور. فهو لا يُقْدِم على هدم ما يثور ضده إلا بعد أن يكون قد أعَدَّ العُدَّة للبناء الذى يَحِلّ محل ذلك البناء الذى يقوم بتقويضه والإتيان عليه . ولعلنا نزعم أن الفرق بين الشجاعة وبين التهور يتمثل فى هذه النقطة . فالشخص المتهور يهدم قبل أن يُعِدّ البناء الذى يُحِلّه محل ما يقوم بهدمه ، أو هو يهدم ولا يبنى على الإطلاق . أما الشجاع فإنه يواكب بين عمليتى الهدم والبناء . فكل هدم حتى ولو كان هدماً لجانب ضئيل ، فإنه يكون متبوعاً ببناء بديل . فهو لا يهدم الكل ثم يبدأ فى البناء الجديد ، بل يهدم جزءاً ليبنى جزءاً مكانه ، ثم يهدم جزءاً تالياً ليحل محله جزءاً بديلاً ، وهكذا دواليك إلى أن ينتهى من الهدم وينتهى من البناء فى وقتين متقاربين دون أن تحدث فجوة فيما بين عملية الهدم وعملية البناء .

وعلينا أن نقوم بعد هذا باستعراض العقبات التى تعترض طريق الإبداع الفردى فى علاقته بالإنتاج على النحو التالى :

أولاً — عدم مناسبة الإبداع الفردى للموقف :

فقد يكون المناسب للمقام التذرع بالإبداع الجمعى حتى يتحقق الهدف منه . فالتذرع بالإبداع الفردى بإزاء موقف كهذا لا يُجْدى نفعاً ولا يُفْضى إلى النتيجة المرجوَّة .

ثانياً — الافتقار إلى الخلفية الخِبْرية المناسبة :

قد لا يكون المبدع الفردى حائزاً على قوام خِبْرى كافٍ لتقديم الإبداع الفردى المناسب للموقف الإبداعى ، فيأتى إبداعه فَجًّا ضعيفاً واهناً ، أو خاوياً من المضمون المناسب أو الناجع .

ثالثاً — عدم الصلاحية للتوظيف :

وقد يكون الإبداع الفردى غير قابل للتوظيف ، وذلك لأنه يكون غير مناسب للعصر ، أو غير مناسب للبيئة الاجتماعية الذى يقدم إليها ، أو غير مناسب للمستوى الثقافى للمجتمع الذى يُراد له أن يَفيد منه . بيد أن من الممكن أن يتم توظيف ذلك الإبداع الفردى الذى لم يُلاق النجاح فى مجتمع ما ، فى مجتمع آخر ، أو بالمجتمع نفسه فى عصر تالٍ ، على الرغم من عدم صلاحيته لدى تقديمه أو عدم قابليته للتوظيف وقتئذ .

□ الإبداع الجمعى والإنتاج :

قلنا إن الإبداع قد يكون فردياً أو قد يكون جمعياً تبعاً لطبيعته . فهناك أنشطة يصلح الإبداع الفردى بإزائها ، كما أن هناك أنشطة أخرى يصلح الإبداع الجمعى فى ممارستها . ولعلنا نقوم فيما يلى باستعراض أنواع الأنشطة التى يصلح الإبداع الجمعى فى النهوض بها :

أولاً — الأنشطة البَحْثية :

ففى مراكز البحوث العلمية يعمل الباحثون فى أفرقة ، ويكون هناك رئيس لكل فريق يقوم بتوزيع جوانب البحث الواحد على أفراد فريقه بحيث يضطلع كل باحث بالجانب الذى يُوكل إليه من البحث الكلى . ولكن استقلاله فى النهوض ببحثه لا يُغْنيه عن التعاون مع الأفراد الباقين أو مع بعضهم على الأقل ، وتكون مهمة رئيس الفريق البحثى القيام بالعملية التركيبية التكاملية فيما بين الخلاصات البحثية التى يتوصل إليها أفراد ذلك الفريق . وواضح أن تلك الخلاصة البحثية الإبداعية تنتسب إلى الفريق ككل ، ولا تنتسب إلى أىٍّ من الباحثين ، ولا إلى رئيس المجموعة البحثية . ذلك أن المجموعة البحثية تُشكِّل وحدة قائمة

بذاتها ، كالجسم الذى يتشكل من أعضاء متباينة ، ولكنها تتعامل جميعاً بتكامل لكى تحقق وحدة ذلك الجسم .

ثانياً — درء الخطـر :

فقد تتعرض مجموعة من الناس لخطر داهم يهدد حياتهم أو يقضى على مصدر رزقهم ، ولكن عبقرية الجماعة تلهمهم باعتبارهم كائناً حياً واحداً بمخرج من ذلك الخطر الذى يهدد كيانهم ، فيتكاتف أفرادها جميعاً فى النشاط المشترك فيما بينهم ، مما يؤدى إلى إبعاد الخطر والخروج من المأزق الذى وجدوا به وصار يهددهم بالفناء ، فالعمل الإبداعى الذى تُـلْـهَم به الجماعة لاينسب فى هذه الحالة إلى فرد واحد بعينه ، بل يعزى إلى الجماعة ككل . فالفضل لايناط عندئذ بشخص مُعَيَّن ، بل يناط بالعقل الجمعى الخاص بتلك الجماعة الذى اهتدى إلى ذلك المَـخْـرج من ذلك المأزق الذى كان يهدد كيانها .

ثالثاً — إبداعية الجنس البشرى :

فالنوع البشرى ظل منذ أن بزغ إلى الوجود وهو يبدع . ولعل أوضح مثال على ذلك ما ابتدعه البشر من حضارة . فلقد أنشأ الجنس البشرى البيئة الحضارية التى نافست البيئة الطبيعية وقهرتها وحَـلَّـت محلها . فصار الفرد منذ ميلاده وعَـبْـر مراحل عمره حتى لحظة موته محاطاً بالبيئة الحضارية دون أن يكون له احتكاك مباشر بالبيئة الطبيعية . فحتى الحقول والحدائق والشواطئ التى تَـعُـجُّ بالمصطـافين إن هى سوى بيئات حضارية من صنع الإنسان وإبداعه . بيد أن إبداعية الإنسان بإزاء البيئة الحضارية لا يمكن أن تعزى إلى فرد معين ، بل تعزى إلى الجنس البشرى بأسره .

رابعاً — التقاليد الاجتماعية والأعراف :

كذلك قامت الجماعات البشرية فى شتى أقطار الأرض وعَبْر الأزمان المتباينة بابتداع التقاليد الاجتماعية والأعراف . والعرف هو القانون غير المكتوب الذى تهتدى به الجماعة فى تنظيم العلاقات الاجتماعية وفى التحكم فى تصرفات الأفراد والمجموعات على السواء .

خامساً — القيم المادية والقيم المعنوية :

فمنذ القديم والجماعات البشرية تُبدع فى مجالات التقييم المادى والمعنوى على السواء . ولقد بدأ التقييم المادى بالمقايضة ، ثم حلت العُمْلات النقدية محل المقايضة ، كما صار يرمز للثروة فى السجلات الرسمية بالأرقام أو بالكتابة الهجائية . ولا ننسى بهذه المناسبة أن اللغة المكتوبة إنما هى رموز لوقائع خارجية موضوعية ابتكرها الناس دون تحديد شخص أو أشخاص بالذات قاموا باختراعها . وما يقال عن التقييم المادى ، ينسحب أيضاً بإزاء التقييم المعنوى المتعلق بالخير والشر من جهة ، وبالمناسب وغير المناسب من جهة ثانية ، وبالجميل والقبيح من جهة ثالثة . وجميع التقييمات المعنوية نتاجات للإبداع الجمعى الذى لا يمكن عَزْوه إلى فرد أو إلى أفراد معينين ، بل يعزى إلى المجتمعات البشرية باعتبارها كائنات معنوية مستقلة أقوى وأبقى من حيث استمرار وجودها من الأفراد الذين يمرون فى قوامها كما يمر الماء فى مجرى النهر .

وبعد أن استعرضنا هذه الأنواع الخمسة من الإبداع الجمعى ، فإن علينا أن نقوم بكشف النقاب عن علاقة هذا النوع من الإبداع بالإنتاج ، فنجد أن هذه العلاقة تتبدى على النحو التالى :

أولاً — استثمار الموارد الاقتصادية :

فبفضل هذا النوع من الإبداع الجمعى ، صار بمقدور الإنسان

منذ بزوغ الحضارة البشرية إلى الوجود ، استثمار الإمكانات المطمورة فى طَيَّات الطبيعة . فلقد قام بقطف الثمار من الأشجار ، ثم قام باختراع الزراعة ، ونجح فى استئناس الحيوانات والاغتذاء على ألبانها ولحمها وتسخيرها فى الأعمال التى يتسنى لها القيام بها ، كما استأنس بعض الطيور ليأكل بيضها ولحمها . وكذا فإنه غزا الأنهار والبحار والمحيطات لكى يستغل الثروة السمكية ، ولكى يمخر عبابها بالسفن والبواخر ، كما انتهى إلى غزو قيعان البحار والمحيطات وصار يخطط لإقامة المستعمرات بها . ولم يَفُتْه استثمار الفضاء أيضاً ، فأخذ فى غَزْوِه ، ونجح فى الهبوط على سطح القمر وغيره من كواكب ، مستهدفاً استثمار خيراتها كما استثمر خيرات الأرض .

ثانياً — استنباط خامات جديدة :

وكذا فإن الإنسان كجماعة قد أخذ عَبْر العصور فى استنباط خامات جديدة ليستخدمها فى صناعاته المتباينة . صحيح أن هناك بعض الخامات المستنبطة يعزى استنباطها إلى أفراد بعينهم ، ولكن الكثير جداً من الخامات المستنبطة لا تعزى إلى أفراد معينين ، بل تعزى إلى عبقرية الجماعات البشرية . فالحديد والنحاس والذهب قد استنبطت من باطن الأرض على أيدى الجماعات البشرية . بمعنى أن أشخاصاً كثيرين تعاقبوا فى محاولات الاستنباط عن طريق المحاولة والخطأ بحيث تعزى الإبداعية فى هذا المضمار إلى الجماعات البشرية وليس إلى أفراد بعينهم .

ثالثاً — التربية والتعليم والتدريب :

على الرغم من أن التربية والتعليم والتدريب صارت علوماً معترفاً بها اليوم ، فإنها فى نشأتها وتطورها قد كانت نتاجاً للإبداعية التى تعزى

إلى الجماعات التى ابتدعتها عبر العصور المتعاقبة . ولا شك أن التربية والتعليم والتدريب تُشكِّل المُتَمَوِّمات المعنوية التى يرتكز الإنتاج عليها ، وظلت تمارس وتتطور نتيجة الإبداعات المستمرة التى كانت تتأتى للجماعات البشرية ، فهى بمثابة الوسائل التى يتسنى بها تحقيق الإنتاج بأنواعه المتباينة المادى منه والمعنوى على السواء .

☐ الإبداع الإلكترونى والإنتاج :

يحسن بنا أن نبدأ بإلقاء الضوء على معنى الإبداع الإلكترونى قبل أن نتناول العلاقة بينه وبين الإنتاج ، فنجد أن هذا النوع من الإبداع يتضمن مجموعة من المعانى الفرعية التى نقوم باستعراضها على النحو التالى :

أولاً — اختصار الزمن والجهد :

فالواقع أن الأجهزة الإلكترونية قد عملت على ضغط الزمن الطويل الذى كان يُقْضى فى الأداء قبل اختراعها وانخراطها فى نطاق الأعمال المتباينة . فالوقت الذى كان يقضيه المرء فى حل إحدى المسائل الحسابية قد اختُصِر فى وقت قياسى ، فأكثر العمليات الحسابية تعقيداً صارت تُحَلّ فى ثوان قليلة . ناهيك عن توفير الجهد الذهنى الذى كان يبذل فى حلها .

ثانياً — الدقة وعدم الوقوع فى الخطأ :

وأكثر من هذا فإن من إبداعيات الأجهزة الإلكترونية ، حماية المرء من الوقوع فى الخطأ . فطالما أنه تَمَكَّن من استخدام الطرائق التى ينبغى أن تُتَّبع فى استخدامها ، فإنه يكون إذن معصوماً من الوقوع فى الخطأ .

ثالثاً — الاستقلال فى أداء بعض الأنشطة :

فلقد توصل التكنولوجيون إلى اختراع الروبوتس (الأناسى

الآليون) . فشاهدنا على شاشات التليفزيون كيف أن تلك الأجهزة الإلكترونية المعقدة للغاية تعمل وحدها فى إدارة مصنع للسيارات ، دون اشتراك أى شخص فى الأداء من قريب أو من بعيد . ثم صار بمقدور بعض الأجهزة الإلكترونية توجيه الأداء . فالطائرات الحديثة تعمل بواسطة تلك الأجهزة ، إذ تقوم هى بالتوجيه فى الجو دون الحاجة إلى إلى قيام الطيار بالتوجيه المباشر. وفى المستقبل القريب سوف يتم الاستغناء تماماً عن قادة السيارات والقطارات والطائرات ، لأن تلك الأجهزة الإلكترونية سوف تضطلع بالعمل بغير حاجة إلى مساعدة الإنسان فى عملية القيادة .

رابعاً — فى التخطيط :

ولم يتوقف الإبداع الإلكترونى عند هذه الحدود ، بل امتد إلى مجال التخطيط أيضاً . فلم تعد الخطط التى توضع للأنشطة المستقبلية مَنُوطة بالمخطِّطين من البشر ، بل سُلِّم قطاع كبير منها إلى العقول الإلكترونية التى صارت تقوم بالتخطيط بدقة بالغة لما يجب أن يتم أداؤه فى المستقبل القريب وفى المستقبل البعيد على السواء . فصار اشتراك العقول البشرية فى العمليات التخطيطية اشتراكاً إشرافياً وليس اشتراكاً عملياً .

خامساً — فى حفظ المعلومات وتقديم المطلوب منها :

ولم تتوقف الإلكترونيات عند حدود الاحتفاظ بالمعلومات فى ذاكرتها، بل صارت مُتَحكِّمة فيها ومسيطرة عليها ومقيمة العلاقات الدقيقة بينها ، فلا يتلقى الباحث المعلومات التى يَبْغى الحصول عليها مُبعثرة ومجزَّأة ومقطعة ، بل صار يحصل عليها مترابطة متكاملة وجاهزة

للاستخدام . ولم يتوقف عمل بنوك المعلومات عند هذه الحدود ، بل تخطتها إلى ترجمة المعلومات إلى اللغات المختلفة . فلسوف يكون بمقدور الباحث العربى أن يحصل على المعلومات التى خُزِّنت أصلاً باللغة اليابانية مثلاً مترجمة إلى اللغة العربية. وحتى إذا لم تجهز تلك البنوك بَعْدُ بإمكانية الترجمة إلى جميع لغات العالم ، فإنها فى الطريق إلى ذلك خلال بضع سنوات قليلة .

وبعد أن قدمنا هذه الجوانب الخمسة التى تتبدى فيها الإبداعية الإلكترونية ، فإن علينا أن نقوم بإلقاء الضوء على أثر هذه الإبداعية فى العمليات الإنتاجية ، فنجد أن ذلك الأثر يتبدى على النحو التالى :

أولاً — زيادة الكم الإنتاجى :

فمما لا شك فيه أن تطويع الإلكترونيات للمجالات الإنتاجية المتباينة، يعمل على زيادة الكم الإنتاجى بشكل مذهل . خذ مثالاً لذلك، بدخول الكومبيوتر مجال الطباعة . فبعد أن كان المشتغل بالطباعة يجمع الحروف المصبوبة فى قوالب من الرصاص، فإنه صار يَدُق على لوحة الكتابة المتصلة بالكومبيوتر بطريقة اللمس فتتم الطباعة بالتصوير الإلكترونى . فالكتاب الذى كان فى عصر الجمع اليدوى يجمع فى شهرين أو ثلاثة مثلاً ، صار يُجمع الآن فى أسبوع واحد أو فى أقل من أسبوع . وهكذا صار بمقدور المطبعة أن تقوم بإخراج العديد من الكتب فى وقت قياسى .

ثانياً — جودة المنتجات :

وبالإضافة إلى زيادة الكم الإنتاجى ، فإن المنتجات التى تستخدم فيها الأجهزة الإلكترونية تتمتع بجودة فائقة . فهى ليست مَشُوبة بأى

تَـلَـوُّث أو عيوب فى الصناعة ، وذلك لأنها تخضع للبرمجة الدقيقـة ، فتأتى كلها وَفْـق النَّـمط الذى بُرْمجت وَفـقه ولا تَـحِـيد عنه بحال .

ثالثاً — التطوير والتحسين :

وحيث إن الإلكترونيات قابلة للتطوير والتحسين المستمرين ، لذا فإن العمليات الإنتاجية تتحسن باستمرار ، ولا تقف عند حد لاتتخطاه . وحتى بالنسبة للعيوب التى ربما تشوب أى جهاز إلكترونى ، يكـون من السهل تعديله واستبعاد ما شابه من عيوب بسهولة ويُسْر . وقـد يكون بالجهاز نفسه إمكانية الكشف عن العيوب الموجودة به بواسطة عدّادات معينة أو مُـؤَشرات أو ما يشبه الساعات توضح مكان العيب ووسائل إصلاحه .

رابعاً — توفير الجهد البشرى :

وأكثر من هذا فإن انتشار الإلكترونيات فى مجالات الإنتاج المتباينة ، قد عمل على توفير أسباب الراحة للعاملين . فبدلاً من أن يقوم العامل ببذل طاقته العصبية والعضلية فيما يضطلع به من أعمال ، صارت مسئوليته لا تتعدى الإشراف أو المتابعة والرصد وتوجيه الآلة إلى ما ينبغى عليها القيام به . وبتعبير آخر فإن عمله صار هامشياً وليس أصلياً أو جوهرياً . ناهيك عن أن الإلكترونيات قد استغنت عن الكثير من العاملين فى مجالات الإنتاج المتباينة ، مما تسبب عنه انتشار البطالة عبر العـالم كله . ولكن حل هذه المشكلة ميسور فى الواقع ، وذلك بتقليص ساعات العمـل إلى ساعة أو ساعتين خلال يوم العمل ، بالإضافة إلى جعل أيام الراحة الأسبوعية ثلاثة أيام بدلاً من يوم واحد . وبذلك يتوافر العمل لجميع من هم فى سن العمل . ولكن بالأسف نجد أن المسئولين عن تنظيم العمل

يُصِرّون على الأوضاع التقليدية، وذلك بأن يشتغل العامل ثمانى ساعات كل يوم ، ولا يأخذ راحة أسبوعية سوى يوم واحد فقط .

خامساً — اتساع رقعة وسائل الترفيه :

لقد غزت الإلكترونيات مجالَىْ الترفيه والإعلام أيضاً . وبذا صار من الممكن نشر ألوية السعادة بين الناس . فمع انتشار الإلكترونيات فى مجالات العمل المتباينة وامتداد وقت الفراغ اليومى إلى ساعات كثيرة ، فإن فرص قضاء ذلك الوقت فى أنشطة ترفيهية متعددة وخصبة صارت متاحة أمام الجميع . وبذا فإن أبناء الجيل الحالى وأبناء الأجيال التالية سوف يتمتعون بالرفاهية ولا ينوءون تحت وطأة الإرهاق نتيجة العمل المرهق .

* * *

الفصل الثانى عشر
المناخ الاجتماعى والانتاج

□ **الكبار والصغار :**

نستطيع أن نتناول مفهوم الكِبَر والصِّغَر من عدة زوايا على النحو التالى :

أولاً – من حيث السن :

هذا هو المفهوم الشائع فى الأذهان عندما يذكر الكِبَر والصِّغَر ؛ فينظر إلى الكبير والصغير فى ضوء شهادة الميلاد . ولقد جرت العادة على تقسيم عمر الإنسان إلى طفولة ومراهقة وشباب وكهولة وشيخوخة .

ثانياً – من حيث ما يحوزه المرء من ثروة :

فمن يملك ثروة أكبر يعتبر أكبر من الذى يملك ثروة أقل . وفى ضوء هذا المعيار يكون الأغنياء هم الكبار ، بينما يكون الفقراء هم الصغار .

ثالثاً – من حيث السلطة والرئاسة :

وفى ضوء هذا المعيار ، فإن من يحتل وظيفة أعلى يكون هو الأكبر ، ومن يحتل وظيفة أقل مرتبة يكون هو الأصغر .

رابعاً – من حيث المؤهل الدراسى :

وفى ضوء هذا المعيار ، فإن الحاصل على مؤهل دراسى أعلى يكون هو الأكبر ، وعلى العكس من هذا فإن الحاصل على مؤهل دراسى أقل يكون هو الأصغر .

خامساً – من حيث المهارة :

فقد ينظر إلى الكِبَر والصِّغَر من زاوية المهارة التى يحوزها المرء ويُتْقنها . فميكانيكى السيارات يعتبر أكبر من الطبيب الذى يقوم بإصلاح سيارته ، ولكن عندما يعرض الميكانيكى نفسه على ذلك الطبيب لعلاجه ، فإن الطبيب يعتبر فى هذه الحالة هو الأكبر . فالموقف هو الذى يحدد من هو الأكبر ومن هو الأصغر .

وبعد أن عرضنا هذه المعانى الخمسة لمعنى الكِبَر والصِّغَر ، فإن علينا أن نستعرض العلاقة بين كل معنى من هذه المعانى الخمسة بالإنتاج على النحو التالى :

أولاً – علاقة السن بالإنتاج :

فبالنسبة للطفل ، فإن المفروض أن يظل فى رعاية والديه إلى أن يشب عن الطوق ، وألا يُسْتغل بتكليفه بالعمل الذى يتأتى عنه دخل لصالح أسرته . ولكن الواقع أن هناك الكثير من الأسر التى تعتمد فى دخلها على مايتأتى نتيجة عمل أطفالها من دخول فرعية تُشكِّل بالإضافة إلى دخل الأب ودخل الأم ، الدخل العام للأسرة الذى يكفى بالكاد لتغطية نفقاتها الضرورية فلا تتضور جوعاً . إذن المسألة ليست مجرد قانون يصدر بمنع تشغيل الأطفال ، بل هى مسألة حياة أو موت بالنسبة لكثير من الأسر . فعمل الأطفال بها لا يَصْدر عن طمع من جانب الوالدين ، فيستغلان أطفالها بالزج بهما فى خضم الحياة وهم بَعْدُ صغاراً . بل إن ظروف الحياة وارتفاع الأسعار بشكل رهيب ، هو الذى يجعل من تشغيل الأطفال ضرورة لامحيص عنها بالنسبة لكثير من الأسر الفقيرة ، فالحل الناجع لايكون إذن بفرض العقوبات على من يقوم بتشغيل أبنائه

من الآباء والأمهات ، بل يكون بمدارسة هذه المشكلة من جميع جوانبها ووضع الحلول التى تجمع بين تشغيل الأطفال من جهة ، وبين رعايتهم من جهة أخرى . من ذلك مثلاً تشغيل الأطفال فى نطاق النظام التعليمى نفسه ، فتقوم المدرسة بتوفير مصادر الرزق للطفل ولأسرته من جهة ، وتعليمه ورعايته تربوياً من جهة أخرى .

ثانياً — علاقة الثروة بالإنتاج :

فصاحب الثروة يمكن أن يُوَجِّه ثروته إلى الإنتاج ، كما يمكن أن يوجهها للاستهلاك ، بل ويمكن أن يوجهها لهدم القوى الإنتاجية . فالثرى الذى ينشئ مصنعاً ، يكون منتجاً ، بينما الثرى الذى ينشئ مَطْعماً ، يكون مُسْتهلكاً . أما الثرى الذى ينشئ صالة للقمار ، فإنه يكون عامل هدم للقوى الإنتاجية . ولكن إذا نظرنا إلى موضوع الإنتاج والاستهلاك من زاوية عامة ، فإننا نجد أن ثمة نسبية بإزاء هذين الطرفين. فصاحب المصنع يمكن أن يكون مصنعه منتجاً لسلع استهلاكية ، كما يمكن أن يكون منتجاً لسلع إنتاجية . فصاحب مصنع المياه الغازية يكون مصنعه منتجاً لسلعة استهلاكية . أما صاحب مصنع زجاجات المياه الغازية فيكون مصنعه منتجاً لسلعة إنتاجية . ولكن على الرغم من أن زجاجات المياه الغازية تدخل فى نطاق الإنتاج باستخدامها فى تعبئة المياه الغازية ، فإنها تدخل أيضاً فى نطاق الاستهلاك بطريق غير مباشر ، إذ أنها بعد ملئها بالمياه الغازية تستحيل إلى سلعة استهلاكية وتخرج من نطاق السلع الإنتاجية .

ثالثاً — علاقة السلطة أو الرئاسة بالإنتاج :

الواقع أن الإنتاج قد يتواكب مع توافر السلطة والرئاسة ، كما قد

لا يتواكب معهما . ففى نطاق المصنع مثلاً ، لا بد من وجود ذوى السلطة والرئاسة ، بمعنى أن يكون هناك رؤساء من جهة ، ومرءوسين من جهة أخرى . ولكن بالنسبة للكاتب أو الشاعر كمنتجَيْن للفكر والشعر ، فلا توجد رئاسة أو سلطة تضغط عليهما من الخارج فى سياق إنتاجهما الإبداعى . ولعلنا نقول إن الإنتاج النمطى بحاجة إلى توافر السلطة والرئاسة لتسيير دفته . أما الإنتاج الإبداعى فإن السلطة والرئاسة تفسده ، ويتحتم أن يكون المبدع متحرراً تحرراً تاماً من أى ضغط خارجى يُفْرَض عليه .

رابعاً — علاقة المؤهل الدراسى بالإنتاج :

من الحقائق التى لا تحتاج إلى برهان ، أن المدرسة والمعهد والكلية قد بزغت جميعاً إلى الوجود لكى تؤهل الملتحقين بها لأن يصيروا شخصيات منتجة فى المجتمع . على أننا نُذَكِّر بأن الإنتاج لا يعنى الإنتاج المادى فحسب، بل يمتد إلى المعانى الخمسة التى عرضنا لها بالفصل الأول من هذا الكتاب ، ومن بينها الإنتاج المعنوى . بيد أن عدم ربط التعليم بالحاجات الإنتاجية المستقبلية ، يعمل على تخريج أعداد كبيرة من المنخرطين بالمدارس والمعاهد والكليات غير مطلوبين لسوق العمالة . ناهيك عن أن التكنولوجيا قد عملت على الاستغناء عن الكثير من الأيدى العاملة كما ذكرنا ، وبالتالى فقد استشرت البطالة الصريحة والبطالة المُقَنَّعة بين الشباب من الجنسين .

خامساً — علاقة المهارات بالإنتاج :

وحتى بالنسبة للمهارات ، فإن الكثير منها قد صار غير مطلوب لسوق العمل والإنتاج . فمثلاً بعد انتشار النِّعال الإيطالية ، أُغْلقت

الكثير من محلات إصلاح الأحذية التى كان يتردد عليها الزبائن لتركيب نِعال محلية جديدة لأحذيتهم التى بَليت . وكذا الحال بالنسبة لمحلات الطرابيش التى أُغلقت أبوابها ، وصار صاحب المهارة اليدوية فى هذه المجالات عاطلاً ، أو صار يبحث عن مهارة يدوية جديدة يكتسبها ليتعايش بواسطتها . ولكن مما لا شك فيه أن النظرة الحديثة إلى التعليم بصفة عامة ، صارت ترتكز على أساس اكتساب المهارات التى تحيل المعرفة إلى أداء . وبتعبير آخر فإن المعرفة غير الموظّفة صارت فى نظر المربِّين حالياً كالعملة المزيَّفة . من هنا فإن معاهد التعليم الحديثة تأخذ بالفلسفة البرجماتية التى تؤمن بتوظيف العلم فى مواقف الحياة المتباينة، ومن ثَمَّ فإنها تُقَدِّر المهارات أكبر تقدير ، سواء كانت مهارات يدوية ،أم مهارات اجتماعية ،أم مهارات ثقافية ،أم مهارات سيكولوجية ، أم غير ذلك من مهارات مُؤَثِّرة فى مجريات الحياة الفردية والاجتماعية على السواء .

☐ مكانة المرأة :

علينا أن نبدأ بتحديد ما نقصده من استخدامنا للفظ «مكانة المرأة» فنقدمه فى البنود التالية :

أولاً — المكانة الاقتصادية :

فهل تحصل المرأة على الحقوق المالية بنفس النسبة التى يحظى بها الرجل ، سواء من حيث الميراث ، أم من حيث المرتب إذا احتلت الوظيفة التى يشغلها الرجل ؟

ثانياً — المكانة الأسرية :

فهل تعامل البنت فى الأسرة بالطرق نفسها التى يعامل بها الولد ؟

وهـل تُـقيَّـم البنت بنفس التقيم أو التقدير الذى يقيم به الولد ويُقـدَّر ؟
وهل يعامل الزوج زوجته بنفس الطريقة التى تعامله بها ؟

ثالثاً — المكانة الوظيفية :

فهل هناك وظائف تُـحْـجَـب عن المرأة ، فلا يتسنى لها شغلها برغم حصولها على المؤهل الدراسى الذى يؤهلها لذلك ؟

رابعاً — المكانة التعليمية والثقافية :

فهل تحظى الفتاة بالفرص المتاحة أمام الفتى فيما يتعلق بالتعليم والثقافة ؟

خامساً — المكانة القانونية :

فهل تحظى المرأة بالحقوق القانونية التى يحظى بها الرجل فيما يتعلق بالقوانين الشرعية والقوانين المدنية ؟

إن ما قدمناه من تساؤلات فى البنود الخمسة السابقة يجب ألا تفهم على أنها تساؤلات استنكارية ، كما يجب ألا يشتم منها أننا نتخذ موقفاً أو أننا ننحاز إلى موقف معين ، وننبو عن موقف آخر بشكل مُسْبق . فكل ما نقصده هو أن نوفر الفرصة للمدارسة والوقوف على ما هو موجود وقائم بالفعل دون الدعوة إلى اتجاه معين . وهذا هو المنهج العلمى الذى لا ينحاز ، بل يتخذ موقفاً استقرائياً للواقع كما هو . وبتعبير آخر فإننا نُـنَـحِّى العاطفة الشخصية أو ما نميل إليه فلا نفرضه على القارئ ، بل نحترم حرية كل شخص فى اتخاذ الموقف الذى يناسب شخصيته وفكره واتجاهاته العامة .

بيد أن ما يهمنا فى هذا المقام هو أن نلقى الضوء على علاقة كل بند من البنود السابقة التى عرضنا لها بالإنتاج على النحو التالى :

أولاً – المكانة الاقتصادية للمرأة والإنتاج :

الواقع أن المرأة والرجل صنوان لا يفترقان . فالمفترض أن كل فتاة سوف تصير زوجة بعد أن تَشِبّ عن الطوق . ولا يزال الاعتقاد السائد هو أن الرجل رأس الأسرة والمسئول الأول عن رعايتها من جميع النواحي وعلى رأسها الناحية الاقتصادية . وطالما أن الرجل ينال حظ الأنْثَيَين فى الميراث ، فإنه بالتبعية يجب أن يُحَمَّل بضعف ما يجب أن تتحمله الفتاة فى الشئون المالية المتعلقة بالأسرة . فهو الذى يُكَلَّف بالإنفاق على الأسرة ورعاية شئونها الاقتصادية وتوفير جميع المستلزمات لها . فليس التميز الذى يحظى به الرجل فيما يتعلق بالميراث تفضيلاً له على المرأة ، بل لأنه يتحمل المسئوليات الاقتصادية الرئيسية . ولكن عندما تتولى الفتاة التى لم تتزوج أو المرأة بعد زواجها إحدى الوظائف ، فإنها تحصل على المرتب نفسه الذى يحصل عليه الرجل الذى يحتل الوظيفة نفسها مما يكفل لها المساواة معه ، بل إن ما يتحمله أخوها من واجبات مالية تجاه والديه وإخوته الصغار ، لا تتحمله هى ولا تُكَلَّف بتحمُّله. أضف إلى هذا أن المجالات مفتوحة أمام الفتاة فى أى أسرة لشق طريقها فى الحياة والمشاركة فى المجالات الإنتاجية المتباينة دون تمييز بين الجنسين .

ثانياً – المكانة الأسرية للفتاة والمرأة بالأسرة وعلاقتها بالإنتاج :

كثيراً ما يُفَتّ فى عَضُد الفتاة أو المرأة لما تحس به من عدم المساواة بالإخوة أو بالزوج . فهى لا تحظى بالمكانة التى يحظى بها الذكور ومن ثَمَّ فإنها تحس بالنقص الذى ربما تُعَوِّض نفسها عنه بما تتخذه من مواقف سلبية ، ومن دفن لمواهبها وعدم استثمار إمكاناتها الغزيرة . وربما تتقاعس البنت عن تركيز ذهنها فى الاستذكار ، لأنها تعلم مُقَدماً أن ما يمكن أن تَبزّ فيه إخوتها الذكور ، سوف يقابل باللامبالاة أو

حتى بالتحقير . وما الذى تتوقعه فى المستقبل سوى الخسف والمهانة، سواء كانت زوجة أو موظفة ؟ من هنا فإن إنتاجية المرأة فى كثير من البيئات الاجتماعية لاترقى إلى المستوى الذى يمكن أن تبلغه لو أن المساواة كانت متوافرة لها مع الإخوة أو مع شريك حياة .

ثالثاً – المكانة الوظيفية والإنتاج :

لقد حُجِبت الكثير من الوظائف عن النساء، اعتقاداً من الممسكين بأزمَّة الوظائف أن المرأة لا تستطيع أن تمارسها بكفاءة . ولقد تعاقبت الأجيال والناس يعتقدون أن المرأة أخفض ذكاء وأضعف إرادة من الرجل . ولقد تأتّى عن هذا الاعتقاد السائد أن النساء أنفسهن صِرْن يعتقدن أنهنَّ لسن أكْفاء لشغل تلك الوظائف . بيد أن قلة منهن قد أصْرَرْن بعناد على إثبات جدارتهن فى تولى تلك المناصب التى حُجبت ، فطالبن بها فى بعض الأقطار ، ومن ثَمَّ فإن المجال صار مفتوحاً أمام المرأة هناك لتولى أخطر المناصب ومن بينها منصب رئيس الدولة . وهكذا انفتح مجال إنتاجى جديد أمام المرأة ، لأن الفرصة صارت متاحة أمامها هناك لتولى جميع المناصب والوظائف التى تسند إلى الرجل سواء بسواء .

رابعاً – المكانة التعليمية والثقافية والإنتاج :

على الرغم من أن التعليم متاح أمام الفتاة فى كثير من بقاع العالم ، فإن الأمية أكثر انتشاراً بين الإناث عنها بين الذكور . ناهيك عن عدم مواصلة التعليم حتى نهاية السلم التعليمى . بيد أن من الملاحظ أن المرأة لا تميل بشكل عام إلى الإبداع فى مجال العلوم والتكنولوجيا وغيرهما من مجالات ثقافية . ولكن الواقع أن المرأة لم تأخذ حظها من التحرر من الضغوط التى ظل يفرضها عليها الرجل إلا منذ وقت قريب ؛ بل إنها

لا تزال ترزح تحت الكثير من الضغوط الخارجية التى تَحُول بينها وبين تقديم إنتاجيات إبداعية فى شتى المجالات . ولعل الخوف لا يزال يسيطر عليها من بطش الرجل ومما قد يوجهه إليها من نقد مرير إذا هى أعلنت الثورة على ما هو قائم ، وأخذت تشق خطوطاً إبداعية جديدة غير مَسْبوقة . ومن ثَمَّ فإنها تقوقعت فى نطاق الموجود قبلاً لتستوعبه. فأخذت فى شحن ذاكرتها بالمعلومات والمحفوظات ولم تُعْمل ذكاءها فى المجهول لكشف النقاب عنه ، أو لتقديم مخترعات جديدة لم يسبق لأحد أن قدمها .

خامساً — المكانة القانونية والإنتاج :

من المعروف أن الرجال هم الذين سيطروا على مقاليد الأمور بمعظم المجتمعات البشرية منذ القِدَم . وقد يعود ذلك إلى ما حظى به الرجل من قوة عضلية فاقت القوة العضلية التى حظيت بها المرأة فى بواكير الحياة الحضارية . فكان من نتائج ذلك سيطرة الرجل بواسطة العضلات المفتولة على جميع شئون الحياة وعلى جميع المجالات الإنتاجية ، ثم كُفِل له ذلك على مقاليد الأمور عَبْر العصور التالية بواسطة القوانين . وهكذا صارت للرجل الكلمة العليا فى جميع القوانين . ولكن مع التقدم الحضارى صارت المرأة متمتعة بالحقوق القانونية التى تقترب إلى حد بعيد مما يحظى به الرجل . ولكن حماية الأسرة قد تطلب أن يكون الرجل هو الممسك بزمام الأسرة وقيادها حتى يستمر الانضباط فى نطاقها . ذلك أن المرأة أكثر اندفاعاً من الرجل فى إصدار القرارات . فلو كانت هى الممسكة بزمام مصير الأسرة، إذن لانتشرت حالات الطلاق بشكل جارف منقطع النظير .

□ المكافأة والعقاب :

علينا قبل أن نلقى الضوء على العلاقة بين كل من المكافأة والعقاب وبين الإنتاج ، أن نبدأ أولاً بتناول مفهوم كل منهما واعماله فى السلوك البشرى ، ولنبدأ بمفهوم المكافأة على النحو التالى :

أولاً — من حيث نوعية المكافأة :

فهناك مكافأة محسوسة ، وأخرى معنوية . فبالنسبة للمكافأة المحسوسة ، فمنها مكافأة أحد الوالدين للابن أو للإبنة لأنه تفوق فى الامتحان بأن يقدم إليه هدية يتمنى الحصول عليها . وبالنسبة للمكافأة المعنوية ، فمنها إرسال خطاب شكر إلى أحد الموظفين من المدير لأنه أظهر تفوقاً فى عمله ومواظبةً على أدائه .

ثانياً — من حيث حجم المكافأة :

فقد تكون المكافأة المقدمة مناسِبَة لمن تقدم إليه ، كما أنها قد تكون أضخم من اللازم أو أقل من اللازم ، أو قد تكون غير مناسبة لسنه أو ثقافته أو مقامه . فتقديم مجموعة من الكتب الثقافية رفيعة المستوى إلى أحد الحاصلين على درجة الليسانس فى الآداب بتفوق يكون مناسباً . ولكن تقديم تلك المجموعة من الكتب إلى طفل فى الابتدائى لا يكون مناسباً لمستواه الثقافى .

ثالثاً — من حيث تفسير المكافأة :

فهناك من يفسِّرون تقديم المكافأة بأنه تعويض عما سبق أن بذله الحاصل عليها من جهد ، وعما لاقاه من مشقة فى أداء أعمال معينة . ولكن فى المقابل فإن هناك من يفسرون تقديم المكافأة بأنه وسيلة لتشجيع من تُقَدَّم إليه على تفتيق مواهبه واستعداداته ، فيبذل جهداً أكبر من

الجهد الذى سبق أن بذله . فبينما يكون تقديم المكافأة فى نظر المجموعة الأولى من المفسِّرين بمثابة نتيجة لما بذله المرء من جهد ، فإنه فى نظر المجموعة الثانية وسيلة لبذل جهد أكبر فى المستقبل .

وبعد أن قدمنا هذه المضامين التى يشتمل عليها مفهوم المكافأة ، فإن علينا أن نقدِّم المضامين التى يشتمل عليها مفهوم العقوبة على النحو التالى :

أولاً — من حيث نوعية العقوبة :

فهناك نوعيتان أساسيتان للعقوبة : نوعية مادية محسوسة ، ونوعية معنوية غير محسوسة . فالطفل الذى يُضْرب لمعاقبته ، يحس بالألم فى جسمه . وكذا الموظف أو العامل الذى يخصم من راتبه مبلغ ما ، يحس بأن العقوبة التى أوقعت عليه هى عقوبة محسوسة . أما الشخص الذى لا يُلتفت إليه أو يتحاشاه الناس بسبب سوء سلوكه ، فإن ذلك التحاشى أو الاجتناب يعتبر عقوبة معنوية غير محسوسة مباشرةً ، بل تُحَسّ بطريق غير مباشر ، أو عن طريق عقله وعواطفه .

ثانياً — من حيث شدة العقوبة :

فالعقوبة إما أن تكون عنيفة بحيث قد تصل فى شدتها إلى درجة القضاء على حياة الشخص المعاقَب ، كما قد تكون متدرجة فى الشدة . والواقع أن شدة العقوبة لا تتوقف على طبيعة العقوبة فحسب ، بل تتوقف أيضاً على طبيعة ومشاعر الشخص المعاقَب نفسه وأيضاً على من يقوم بتوقيع العقوبة . فقد تتساوى العقوبة من حيث تأثيرها الجسمى ، ولكن تأثيرها يتباين بتباين الأشخاص الذين تُوَقَّع عليهم . فقد يُغْمَى على طالب لأن أحد المدرسين لَطَمَه على وجهه ، بينما قد يبتسم طالب آخر عندما يلطمه ذلك المدرس على وجهه بنفس الشدة ولنفس السبب

وكأن شيئاً لم يحدث ، أو يكون لتلك العقوبة تأثير ضئيل فى مشاعره أو حتى من حيث مدى إحساسه بالألم .

ثالثاً — من حيث تفسير العقوبة :

فمن الناس من يفسرون العقوبة بأنها تأديب وتهذيب للشخص الذى نوقّع عليه . فالعقوبة فى نظرهم لا تتواكب مع كراهية الشخص المعاقَب بل قد يحس الشخص الذى يوقِّع العقوبة بالحب الشديد تجاه من يقوم بمعاقبته . فهو يزعم أنه لدى قيامه بمعاقبة المخطئ يكون شأنه كشأن الطبيب الذى يُوقع الألم على المريض برغم حبه له . وفى المقابل فإن هناك من يفسِّرون العقوبة بأنها انتقام من الشخص المعاقَب ، لأنه انحرف عن الطريق السليم ، وصار فى زمرة المخطئين ، أو فى زمرة الأشرار الذين يستحقون المخاصمة والعقاب والإيلام والانتقام منهم .

وعلينا بعد هذا أن نقوم بإلقاء الضوء على علاقة كل من المكافأة والعقاب بالإنتاج . ولنبدأ بإلقاء الضوء على علاقة المكافأة بالإنتاج على النحو التالى :

أولاً — من حيث كم الإنتاج وجَوْدته :

مما لا شك فيه أن للمكافأة تأثيراً كبيراً فى إنتاجية معظم الناس . ولكن الواقع أننا لا نستطيع أن نُعَمِّم فنقول إن جميع الناس يقدِّمون إنتاجاً أكثر عندما تقدم إليهم المكافآت . فثمة من الناس من تؤثِّر المكافأة فيهم بطريقة عكسية من حيث حفزهم على تقديم إنتاج أكثر . فإذا ما تلقوا المكافأة فإنهم ينكصون عن مواصلة العمل ، أو ربما يقدِّمون إنتاجاً أقل من الكمية التى دأبوا على تقديمها . أضف إلى ذلك أنهم بعد تلقى المكافأة قد يقدِّمون إنتاجاً أقل جودة مما كانوا يقدِّمونه قبل تقديم المكافأة إليهم .

ثانياً ـ من حيث تجديد الطاقة الحيوية :

وعلى النحو نفسه ، فإن من الناس من تعمل المكافأة على تجديد طاقتهم الحيوية بحيث يتسنى لهم مواصلة الجهد أكثر فأكثر . ولكن فى المقابل هناك أشخاص تعمل المكافأة على استنزاف تلك الطاقة الحيوية أو القضاء عليها قضاءً تاماً ، فيتوقفون عن مواصلة بذل الجهد وقد أحسوا بالخَوَر . وهناك من يفسرون تلك الحالة بأنها نتيجة الحسد الذى يصيب المرء الذى تقدم إليه المكافأة ، وبخاصة إذا كانت المكافأة معنوية ، كالمديح والثناء والتقريظ المبالغ فيه .

ثالثاً ـ من حيث الإبداع غير المَسْبوق :

والشىء نفسه ينسحب بإزاء المبدعين . ولكن الملاحظ أن الغالبية العظمى من المبدعين لا يستجيبون للتأثير الإيجابى الذى كان متوقعاً بعد تقديم المكافأة لهم . فلكأن الطاقة الإبداعية ـ إذا صح التعبير ـ تَفْسد ويصيبها العَطَب إذا ما قدم الثناء إلى صاحبها . فالمبدع يحب أن يعمل بعيداً عن الأضواء . إنه يُقَدِّم إبداعه فى هدوء ، ولا يحب الصَّخَب من حوله أو تسليط الضوء عليه شخصياً . من هنا فإن الكثير من المبدعين ينأون بأنفسهم عن الشهرة ، ويعزون قدرتهم الإبداعية إلى مصدر خارجى قام بإلهامهم ، أو إلى جِنِّى كان يلقنهم ما يُقْدمون على إبداعه . فليسوا هم المبدعون ، بل إن الإبداع خارج نطاقهم ، وأنهم ليسوا سوى مُنَفِّذين أو مترجمين للإلهام أو الرسالة التى وصلت إليهم من خارج قوامهم الشخصى .

وبعد أن قمنا بإلقاء الضوء على تأثير المكافأة فى الإنتاج ، فإن علينا أن نقوم بإلقاء الضوء على تأثير العقوبة فيه على النحو التالى :

أولاً — من حيث كمية الإنتاج وجَوْدته :

نستطيع أن نقرر أن العقوبة يمكن أن تحدث مستوى من التوتر العصبي الذي يَكْفل زيادة كمية الإنتاج الذي يقدمه المرء . ولكن إذا زاد ذلك التوتر عن الحد المناسب ، فإن الشخص المعاقَب يتوقف عن زيادة إنتاجيته ، بل إن تلك الإنتاجية تأخذ في النُّقْصان شيئاً فشيئاً إلى أن يتوقف المرء تماماً عن تقديم أي إنتاج . والشيء نفسه يقال عن مدى جودة الإنتاج . بيد أن العقوبة لا تستطيع أن ترتفع بجودة إنتاجية المرء عن مستوى استعداداته ، وعما سبق له أن حصله من خبرة . فالعقوبة لا تعمل على زيادة الجودة . بل كل ما تستطيع أن تفعله هو الارتفاع بها إلى ما كانت عليه قبلاً ، بشرط عدم المبالغة فيها وإلا فإنها تُفْضِي إلى النتيجة العكسية ، فينخفض مستوى الإنتاج ، أو قد يفسد تماماً .

ثانياً — من حيث الطاقة الحيوية :

فالطاقة الحيوية لدى الشخص المنتِج ، يمكن أن تُحْفَز بواسطة العقوبة التي لا تزيد عن الحد المناسب . وكلما زادت في شدتها عن ذلك الحد المناسب ، فإنها تعمل على إضعاف تلك الطاقة الحيوية .

ثالثاً — من حيث القدرة الإبداعية :

لقد أثبتت البحوث السيكولوجية أن العقوبة لا تعمل على إبراز المواهب الإبداعية في مجالات الإنتاج المتباينة . ذلك أن العقوبة تهدد الأمن الداخلي للمرء كما تفقده هدوءه النفسي ، ومن المعروف أن الإبداع لا يمكن أن يتأتى للمرء المبدع إلا إذا كان متمتعاً بالأمن الداخلي وبالهدوء النفسي . فأي تلويح بالعقوبة يُفْقده القدرة على تقديم نتاجات إبداعية من أي نوع أو من أي مستوى ، سواء كان في أي سن أم في أي موقع .

□ الحرية والقهر :

علينا قبل أن نلقى الضوء على العلاقة بين الحرية والقهر من جهة ، والإنتاج من جهة أخرى ، أن نتفحص معنى كل من الحرية والقهر ، بادئين بمعنى الحرية على النحو التالى :

أولاً – المعنى العلائقى :

فالحرية بهذا المعنى هى التخفف من الضغوط الخارجية التى قد يفرضها الآخرون على المرء . فكلما كانت الضغوط التى يفرضونها عليه أخف وطأة ، فإنه يكون متمتعاً بقدر أكبر من الحرية . وحيث إن المرء لا يستطيع أن يحيا فى نطاق أى مجتمع وهو غير مُعَرَّض لأى ضغوط خارجية من جانب الآخرين المحيطين به والمتعاملين معه ، لذا فإن الحرية بهذا المعنى العلائقى هى حرية نسبية وليست حرية مطلقة .

ثانياً – المعنى السيكولوجى :

والحرية بهذا المعنى تعنى التحرر من الضغوط النفسية الداخلية ، كالتوتر النفسى والاكتئاب والقلق والمخاوف المرضية وجميع الأمراض النفسية التى تُعَدّ بمثابة شكائم تُقَيِّد حرية تفكير المرء وعواطفه وإرادته .

ثالثاً – المعنى السلوكى :

والحرية بهذا المعنى هى إطلاق الاستعدادات والمواهب المتباينة من عقالها والخروج بها من نطاق الكمون إلى نطاق الواقع السلوكى الخارجى . فكلما توافرت للمرء فرص التعبير عن المطمور بدخيلته من استعدادات ومواهب ، كان بالتالى أكثر تمتعاً بالحرية .

رابعاً — المعنى التعبيرى :

والحرية بهذا المعنى هى القدرة على التعبير عما يدور بدخيلة المرء من أفكار وآراء . فكلما كانت الظروف الاجتماعية والسياسية أكثر تسامحاً فى إتاحة الفرصة أمام كل شخص لكى يعبر عما يدور بخلده من أفكار دون فرض قيود عليه ، ودون مصادرة فكره أو معاقبته لأنه عَرَض أفكاراً لا يوافق عليها من بيدهم السلطة والنفوذ ، فإنه يكون بذلك أكثر تمتعاً بالحرية .

خامساً — المعنى الدينى الاعتقادى :

والحرية بهذا المعنى هى عدم فرض عقيدة دينية معينة على المرء ، وعدم مناوأته أو الإلحاح عليه لكى يتنحى عما يعتقده ، وعدم التعرض له بالإيذاء الجسدى أو النفسى ، أو بحرمانه من الحقوق المدنية أو الاقتصادية التى يتمتع بها غيره من المواطنين ، وعدم اضطهاده فى عمله أو غلق مصادر الرزق أمام وجهه ، وباختصار عدم التفرقة بينه وبين غيره بسبب معتقداته الدينية .

وبعد أن عرضنا هذه المعانى الخمسة للحرية ، فإن علينا أن نلقى الضوء على معنى القهر ، فنجد أنه يتضمن المقوِّمات التالية :

أولاً — صب الناس فى قوالب جاهزة :

فالقهر بهذا المعنى يتبدى فى اعتبار الناس بمثابة خامة يمكن صياغتها وَفْق أُطُر أو قوالب مجهَّزة من قبل . فإذا ماخرج أى فرد عن حدود تلك الأطُر أو القوالب ، فإنه يعاقب أو يصادر ما بدا فى سلوكه من خروج عليها .

ثانياً – الاعتماد على النواهى فى تقديم السلوك :

والقهر بهذا المعنى يعنى التذرع بسلاح الخوف المتمثل فى استخدام النواهى التى تتضمن فى الوقت نفسه تحديد عقوبات تُوَقَّع على من يتجرأ بالخروج عن حدود السلوك الذى يُفْترض عدم تجاوزه أو الضرب صفحاً عنه .

ثالثاً – نسبية قيمة الإنسان :

فالقهر بهذا المعنى هو عدم تقييم المرء بطريقة إطلاقية ، بل تقييمه فى ضوء مدى صلاحيته للمجتمع فى الحاضر والمستقبل ، فإذا ما اعتُبر وجوده ضاراً بالمجتمع ، أو أنه سوف يكون عبئاً عليه ، فإنه يعامل عندئذ مثلما يعامل أى كائن حى آخر يعتبره الناس ضاراً أو غير مفيد . ويتمثل القهر بهذا المعنى فى إجهاض الجنين الذى يحمل عيوباً خِلْقية ، وكذا استخدام الأعضاء البشرية الصالحة المستخلصة من المحكوم عليهم بالإعدام أو المستخلصة من المصابين بأمراض سرطانية ميئوس من علاجها ونحو ذلك من أشخاص ، فى ترميم أجساد الذين تَعطَّبت تلك الأعضاء لديهم .

رابعاً – استخدام الوسائل النفسية :

والقهر بهذا المعنى يتمثل فى استخدام سلاح الإيحاء أو التنويم المغنطيسى فى السيطرة على إرادة الآخرين ومشاعرهم وفكرهم . والواقع أن التأثير النفسى والسيطرة النفسية نسبيان . وفى بعض الحالات تكون تلك السيطرة شديدة للغاية إلى درجة فرض الفكر والعواطف والإرادة على الشخص أو الأشخاص الذين تُفْرض عليهم تلك السيطرة النفسية ، فتُحْدث لديهم ما يشبه الشلل النفسى ، فيُسَيَّرون بالطريقة التى

يرغب فيها الشخص المسيطِر ومحققاً الأهداف التى يريدهم على أن يحققوها .

خامساً — استخدام الوسائل الاقتصادية :

والقهر بهذا المعنى يتمثل فى التجويع أو التعطيش أو الحرمان من الكماليات التى صارت مع الاعتياد من ضروريات الحياة . فهذه الوسائل الحِرْمانية تستخدم لتحقيق أغراض معينة كالسُّخْرة والاستغلال الجنسى أو الاستحالة إلى أدوات للانتقام من الأعداء أو نحو ذلك من أهداف يحددها الشخص أو الأشخاص الذين يمارسون القهر الاقتصادى .

وبعد أن عرضنا لمعنى كل من الحرية والقهر ، فإن علينا أن نلقى الضوء على العلاقة بين كل منهما وبين الإنتاج ، ولنبدأ بعلاقة الحرية بالإنتاج على النحو التالى :

أولاً — ابتكار أنواع جديدة من الإنتاج :

فالشخص المتمتع بالحرية يكون خليقاً بأن يبدع فى المجال الإنتاجى الذى يعمل به . فهو لا ينحصر فى نطاق الأنماط الإنتاجية السائدة ، بل يكون بمقدوره أن يفتح آفاقاً إنتاجية جديدة مبتكَرة ليس أمامه شخصياً فحسب ، بل وأمام الآخرين أيضاً . ولا يعزُب عن البال أن المشروعات الإنتاجية الضخمة والتى صارت مشروعات نَمَطية مع انتشارها وذيوعها ، قد بدأت على أيدى أُناس مبدعين كانوا متحرِّرين فكرياً ، فاستثمروا حريتهم الفكرية فيما قاموا بإبداعه من وسائل إنتاجية غير مَسْبوقة .

ثانياً — عدم التعرض للتُّهلكة :

والشخص المتحرر مهما بذل من الجهد والعرق فى المجال الإنتاجى

الذى يعمل به ، فإن بمقدوره أن يستعيد نشاطه من جديد بعد أخذ القسط اللازم من الراحة والنوم . فتمتعه بالحرية يكون خليقاً بتعويضه عن التعب الذى تَـعَـرَّض له أثناء قيامه بالعمل الإنتاجى .

ثالثاً – السيطرة على مقاليد العمل :

فالشخص المتمتع بالحرية لا يكون عبداً للعمل الإنتاجى الذى يشتغل به ، بل يكون سيداً عليه ومسيطراً على مقاليده . فهو الذى يخطط أو يشارك فى التخطيط ، وبالتالى فإنه يُفَلْسف التنفيذ ويَطْبعه بطابعه الشخصى . فلا يكون مجرد نسخة بين النسخ الإنتاجية العديدة من حوله ، بل يكون نسيجَ وَحْدِه حتى وإن التزم بالخطوط العريضة فى الإنتاج .

رابعاً – الحرية فى اتخاذ القرارات :

فالشخص المتمتع بالحرية يكون قادراً على إصدار القرارات التى يراها مناسبة فى نطاق العمل الإنتاجى الذى يضطلع به . فهو لا يكون مجرد أداة تنفيذية لما يؤمر به ، بل يكون مشاركاً مشاركةً إيجابية وفعلية فى تسيير دفة العمل ، وفى اتخاذ القرارات المناسبة لكل موقف يصادفه أو بإزاء أى مشكلة يجابهها فى أثناء التخطيط أو التنفيذ .

خامساً – التمتع بالنظرة المستقبلية :

والشخص المتمتع بالحرية يكون متمتعاً أيضاً بتشوُّف المستقبل . فهو يتوقـع ما يمكن أن يعترض طريق عمله الإنتاجى من مشكلات أو صعاب أو عقبات . وبالتالى فإنه يستطيع أن ينظر إلى عمله الإنتاجى فى ضوء المستقبل الذى يُعتبر انبعاثاً من الحاضر والماضى جميعاً . ومعنى هذا أن الشخص المتمتع بالحرية يكون شخصية متكاملة فى عمله الإنتاجى ،

وذلك بفضل إفادته من خبرات الماضى المتفاعلة مع خبرات الحاضر ، ومع بشائر خبرات المستقبل .

وبعد أن عرضنا لعلاقة الحرية بالإنتاج ، فإن علينا أن نعرض لعلاقة القهر بالإنتاج ، فنجد أن هذه العلاقة تتمثل فيما يلى :

أولاً — استحالة المرء إلى تُرْس فى آلة كبيرة :

فالشخص المقهور يكون بمثابة أداة أو تُرْس فى الآلة الإنتاجية . فهو لا يكون المحرِّك للعمل ، بل المنفذ لما يؤمر به دون أن يجرؤ بالخروج قيد أنملة عن حدود العمليات التى يُجْبر على تنفيذها .

ثانياً — فقدان الثقة بالنفس :

فالشخص المقهور لايستطيع أن يُقَدِّر نفسه أو أن يحترم مواهبه . إنه يعلم أنه يتحرك بواسطة قوة خارجية ، وأنه لولا تلك القوة لما استطاع أن يتحرك أو أن يعمل أى شىء . فهو عديم القيمة فى نظر نفسه كما هو عديم القيمة فى نظر الآخرين من حوله الذين يعلمون أن نشاطه ليس نشاطاً انبعاثياً من دخيلته ، بل نشاطاً مفروضاً عليه من الخارج . فهو إذن كالدُّمْية التى لا تتحرك إلا بواسطة الدفع الخارجى.

ثالثاً — انعدام الطابع الذاتى :

فبينما يتسم عمل الشخص المتمتع بالحرية بالطابع الذاتى ، فإن الشخص المقهور لا يَطْبع عمله بطابعه الشخصى ، بل يكون مجرد مُنَفِّذ فيأتى إنتاجه مصطبغاً بالصبغة التى أضفاها غيره عليه .

رابعاً — التوقف عن الإنتاج بمجرد توقف الضغط الخارجى :

فالشخص المقهور لا يستطيع أن يستمر فى ممارسة العمل إذا

ما توقف الضغط عليه من الخارج . فطالما أن الضغط عليـه مستمراً ، فإنه يعمل وينتج . ولكن ما أن يتـوقف ذلك الضغط لسبب أو آخـر ، فإنـه يتوقف عن العمـل والإنتـاج .

خامساً ــ انعدام الدينامية الخِبْـرية :

فالشخص المقهور لا يستطيع أن ينمو خبرياً بطريقة دينامية تفاعلية ، بل هو يُلَقَّـن من الخارج . فلا بد من أن يُطَعَّـم بالخبرات الجديدة ، وذلك بفرضها عليه . فهو لا يستطيع أن يتسلق السُّلَّم الخِبرى بالنمو من دخيلته ، وبإحداث التفاعلات الخِبْـرية مع المواقف الجديدة .

□ الانفتاحية والانغلاقية :

كدأبنا دائماً بأن نقوم بتعريف المصطلحات التى تعتبر محور الموضوع الذى نتناوله بالمدارسة ، فإن علينا أن نلقى الضوء على معنى الانفتاحية والانغلاقية قبل أن نعرض لعلاقة كل منهما بالعمليات الإنتاجية . ولعلنا نبدأ بإلقاء الضوء على مفهوم الانفتاحية ، فنجد أنها تتضمن المُقَـوِّمات التالية :

أولاً ــ التفاعل مع خبرات الآخرين :

فالانفتاحية بهذا المعنى هى استطلاع ما حازه الآخرون من خبرات تُـعْـوِز المرء وتكون نافعـــة له إذا ما اكتسبها وَوَظَّـفها فى العمليات الإنتاجية . بيد أن هناك نوعين من الانفتاحية الخِبْـرية : نوع نَـقْـلى ، ونوع آخـر تفاعلى . فبمقتضى النوع النَّـقْـلى فإن المرء يتلقى خبرات الآخرين كما هى دون أن يحدث فيها أى تطـويرات أو تعديلات . فهو ينقلها ويظل مستخدماً لها دون أن يُكيِّـفها لظروفه أو لحاجاته أو لمستواه الخِبرى . ولكن بالنسبة للنوع التفاعلى ، فإن المنفتح خبرياً لا يتلقى الخبرات

كما هى ، بل يتفاعل مع ما يصلح لقوامه الخِبرى منها . فهو يضطلع بعمليات تفاعلية أشبه ما تكون بالتفاعلات الكيميائية التى تحيل العناصر أو المركبات إلى مركبات جديدة أكثر تراكباً وتعقداً ، فتحمل خصائص مباينة لخصائص العناصر أو المركبات السابقة على تلك التفاعلات الخِبرية التى انخرطَت فيها .

ثانياً – الأخذ والعطاء :

والانفتاحية الخِبرية بهذا المعنى لا تقتصر على تلقى الخبرات عن الآخرين فحسب ، بل تشتمل على التبادل الخِبرى أيضاً ، بمعنى أن المرء يأخذ ويعطى . فكما أنه يتلقى الخبرات عن الآخرين ، فإنه يقدِّم إليهم الجديد من خبراته . بيد أن المسألة ليست مسألة مقايضة ، بل مسألة مشاركة فى المجالات الخِبرية المشتركة والتى تحظى بالاهتمام المشترك بين طرفين أو أكثر . والواقع أن الاحتكاك الخِبرى الذى يتضمن الأخذ والعطاء يُفْضى فى سياقه إلى نشأة خبرات جديدة لم تكن محسوبة . ذلك أن التفاعلات الخِبرية بين الخبرات المتباينة فيما بين المرء وبين الآخرين تؤدى إلى نشوء مركبات خِبرية جديدة كما قلنا ، وبالتالى فإنها تكون من نصيب الطرفين أو الأطراف المشتركين فى تلك التفاعلات الخِبرية التى تستمد مقوماتها التى تدخل فى إطار تلك العمليات التفاعلية من الطرفين وليس من طرف واحد فحسب . وبذا فلا يكون هناك طرف مُصَدِّر للخبرات وطرف آخر مستقبِل لها ، بل تتم عملية الأخذ والعطاء بطريقة ديناميكية وليس بطريقة ميكانيكية . وبتعبير آخر فإن الأخذ والعطاء يتمَّان بطريقة تلقائية عَفْوية تقترب من مستوى اللاشعور لدى الطرفين المشتركين فيها بطريقة تفاعلية .

ثالثاً ـ التعاون فى حل المشكلات :

والانفتاحية بهذا المعنى تعنى البحث عن الوسائل التى يتسنى بها التوصل إلى حلول ناجعة للمشكلات التى تعترض طريق النشاط وبخاصة النشاط الإنتاجى . وسواء كانت الوسائل متوافرة فى جُعْبة المرء ، أم كانت خارج نطاقه ، فإن الشخصية المنفتحة تستعين بها فى حل مشكلاتها. وحتى إذا كانت الحلول للمشكلات التى يعانيها المرء فى مُكْنة أعدائه ، فإنه يسعى للحصول عليها وتوظيفها لحل تلك المشكلات التى تعترض طريق نشاطه. وبتعبير آخر فإن الشخصية المنفتحة تتسم بالموضوعية والنزعة العملية ، أو بتعبير أدق بالبرجماتية التى تقيس قيمة النشاط المبذول ، لا فى ضوء مجموعة من القيم الجامدة ، بل فى ضوء النتائج التى يمكن أن تترتب على الاضطلاع بذلك النشاط المبذول .

رابعاً ـ الانفتاحية الزمانية :

وبمقتضى هذا النوع من الانفتاحية ، فإن المرء لا يعيش فى إطار ماضيه أو فى إطار حاضره ، أو فى إطار ما يتوقعه فى مستقبله فحسب ، بل يعيش فى هذه الإطارات الثلاثة جميعاً . وبتعبير آخر فإن الشخصية تُحْدث تفاعلات خِبْرية بين الخبرات التى سبق أن اكتسبتها فى الماضى ، والخبرات التى تكتسبها فى الحاضر ، والخبرات التى تتشوف إلى اكتسابها فى المستقبل . ومعنى هذا أنها تحيل الماضى والمستقبل جميعاً إلى حاضر خِبْرى .

خامساً ـ المعنى التسامحى :

وبمقتضى هذا المعنى ، فإن الانفتاحية تعنى تقَبُّل الآخرين كما هم عليه ، أو عدم الانفعال بإزاء ما يرفضه المرء . فيكفى الامتناع عن عدم

التقبُّل أو عدم الانخراط فى العمليات التفاعلية مع تلك المقومات التى لا تلائمه دون استخدام الهجوم أو إشهار عصا النقد والتجريح على من يختلفون عنه أو معه . فالشخصية المتسامحـة لا تغمض عينيها وتصم أُذنيها حتى لا ترى أو حتى لا تسمع ما لا يروق لها مشاهدته أو سماعه ، بل هى تفتح عينيها وتنصت بأذنيهـا ، فتقف بذلك على كل ما يحيط بها ، وعلى كل ما يعتمل فى حيـاة الآخرين دون أن ترضخ لهم ، ودون أن تستحيل إلى ما يشبه الإسفنجة التى تتشرب ما يصادفها من سوائل . وهذا الاتجاه التسامحى tolerance يضمن للمرء الوعى بما يدور حوله دون الرضوخ والامتثال والتقبُّل الأعمى لما يصل إلى علمه . فالمعـرفة شىء وتقبُّل تلك المعرفة والتفاعل معها شىء آخر .

وبعد أن قدمنا هذه المعانى الخمسة للانفتاحية ، فإن علينا أن نقوم بتقديم المعانى التى تتضمنها الانغلاقية على النحو التالى :

أولاً — النظر بتوجس إلى الآخرين :

فالشخصية الانغلاقية لا تحس بالطمأنينة أو بالثقة فى الآخرين . فهى تحس بأن المحيطين بها أعداء يتربصون بها الدوائر ، ويتحينون الفرصة المناسبة للانقضاض عليها واستلاب ما لديها . وإنسان هذا شأنه لايستطيع أن يأخذ عن غيره أى خبرة ، وذلك لأنه يعتقد أن أى خبرة يقدمها إليه غيره ، إنما تكون محشوَّة بالسموم التى سوف تقضى عليه وتنال من جوهر شخصيته .

ثانياً — التلبس بالرجعية :

فالشخصية الانغلاقية تعتقد أن الماضى أفضل من الحاضر ، وأن الحاضر أقل شراً مما سوف يفعم به المستقبل . من هنا فإنها تحاول جاهدة

الرجوع بالحاضر إلى الماضي ، وغلق الطريق أمام المستقبل . وبتعبير آخر فإن على المرء أن يتلبس بأثواب الماضي وأفكاره وقِيَمه ، وأن يضرب صفحاً عن واقع الحاضر . أو عن توقعات المستقبل .

ثالثاً ـ الخوف من الغزو الخِبْرى :

فأى خبرة مستفادة من الآخرين ، تعتبر فى نظر الشخص الانغلاقى بمثابة مؤامرة تُحَاك ضد أصالته الخبرية . فهو يعتقد أن أى خبرة منقولة، لا بد أن تحمل فى طياتها سهاماً مسمومة مُصَوَّبة إلى قلب القوام الخِبْرى الخاص به أو إلى قلب القوام الخبرى للمجموعة التى ينتسب إليها . ومن هنا فإن التراث إذن هو الهدف والغاية، وهو الجنة المفقودة التى إذا ما تم العثور عليها والارتماء فى أحضانها، فإن المرء يكون بذلك قد بلغ قمة النضج الخِبْرى . وأكثر من هذا فإن ما يعتبره البعض خبرات جديدة ما هو ـ فى رأى الشخصية الانغلاقية ـ سوى شذرات مسروقة ومنهوبة من ذلك التراث الذى سرق فى غفلة عن أعين الرقباء من الأجداد .

رابعاً ـ التقييم الأخلاقى للخبرات :

والمتذرع بالنزعة الانغلاقية ينظر بنظرة تقييمية أخلاقية إلى الخبرات . فبينما يعتقد أن الخبرات التى يمتلكها تتسم بالخَيْرية ، فإن خِبْرات الآخرين التى يرغبون فى تشريبها له عنوة أو بالحيلة، إنما هى الشر بعينه. من هنا فلا بد من إشهار السلاح ضد خبرات الآخرين ، والدفاع بكل نفيس وغالٍ عن الخبرات الشخصية، أو بالحَرِىّ عن الخِبْرات التى توارثتها الأمة عن الأجيال السابقة التليدة .

خامساً ـ الاجترار الخبرى :

والشخصية الانغلاقية تنحو إلى اجترار ما سبق أن حصَّلته من

خبرات . فبينما تنأى بنفسها عن تلقى خبرات جديدة يقدمها إليها الآخرون ، فإنها فى الوقت نفسه تقوم بعملية اجترار لما ترسب فى قوامها من خبرات . وهى فى هذا الموقف الاجترارى تعتقد أن اجترار الموجود بالفعل من تلك الخبرات ، كفيل باستمرار بقائها ، بل ويكون ضامناً لتقدمها وازدهارها . وربما يكون الدافع إلى التذرع بهذه النزعة الاجترارية هو ضخامة الموجود بين يدى المرء من حصيلة خبرية تراثية . فهو يقول بينه وبين نفسه : « إن الباقى من العمر لا يتسع لاستيعاب ما بين يدىَّ من تراث ، فما الداعى إذن لاستقبال أى خبرة جديدة من أى مصدر خارجى ؟ » .

وبعد أن قمنا بإلقاء الضوء على كل من الانفتاحية والانغلاقية ، فإن علينا أن نتدارس تأثير كل من هذين الاتجاهين فى إنتاجية المرء . ولنبدأ بتأثير النزعة الانفتاحية على النحو التالى :

أولاً — مسايرة التطورات الإنتاجية :

فالواقع أن الشخصية المتذرعة بالنزعة الانفتاحية ، تكون خليقة بمماشاة إيقاع العصر فيما يتعلق بالتغيُّرات والتطورات الإنتاجية السريعة والمتدفقة . ومما لا شك فيه أن التلاحمات العالمية صارت حميمة ، ولم يَعُد من الممكن أن ينطوى أى قطر على نفسه ، أو أن يغلق حدوده فلا يكون له شأن بأى قطر آخر قريب أو بعيد ، بل صار من المحتم أن تكون الاتصالات وثيقة فيما بين الأقطار المتباينة بعضها وبعض ، سواء كانت قريبة بعضها من بعض ، أم كانت بعيدة بعضها عن بعض . فالمنتَج اليابانى صار له شأن خطير فى حياتنا برغم أن المسافة بيننا وبين اليابان كبيرة جداً . وأكثر من هذا فإن ما يحدث فى أمريكا أو استراليا يُرجِّع صداه عندنا . وكذا الشأن بالنسبة للأحداث التى يمكن أن تقع لنا . إنها بلا شك تؤثر بشكل أو بآخر فى كل بقعة من بقاع العالم . من هنا فإن

العلاقات الإنتاجية بين الدول صارت علاقات حميمة . والدولة التى تستطيع أن تساير التطورات الإنتاجية المتلاحقة ، يكون لها الأسبقية فى احتلال المكانة الرفيعة بين الدول . وبتعبير آخر فإن البقاء صار لمن يتسنى له ملاحقة التطورات الإنتاجية المتدفقة .

ثانياً – التقدم الحضارى :

فمما لا شك فيه أن الشعوب تقاس اليوم بمدى قدرتها على إحراز التقدم فى المجالات الحضارية المتباينة التى تتمثل فى العلوم والتكنولوجيات والفنون والآداب ونحوها . ومن الطبيعى أن إحراز قصب السبق فى تلك المجالات الحضارية لا يتأتى إلا بالتذرع بالنزعة الانفتاحية .

ثالثاً – دعم الهوية الشخصية والهوية القومية :

فالواقع أن التذرع بالنزعة الانفتاحية لا يعمل على إضعاف هوية المرء الشخصية أو الهوية القومية ، بل على العكس من هذا فإنه يعمل على دعم تلك الهوية والشد من أزرها وتقويتها وتأكيد بقائها . فكلما كانت التفاعلات الخِبْرية بين المرء وبين غيره ، أو بين الأمة وبين غيرها من أمم أكثر فاعلية ، فإن ذلك يؤدى إلى دعم الهوية وتقوية الأصالة . ذلك أن ما يتلقاه المرء أو تتلقاه الأمة من خبرات خارجية ، يستحيل عن طريق التفاعلات الخِبْرية إلى عصارة من دمائها ، وإلى قوام من قوامها وإلى نسيج من شخصيتها .

رابعاً – إحراز العُزْوة والشعور بالجماعية :

فمن يتذرع بالنزعة الانفتاحية يحس بالقوة التى يستمدها من تعاونه مع الآخرين . فبدلاً من أن يقول « أنا » فإنه يقول « نحن » . وليس من شك فى أن الشعور بالعُزْوة هو فى الوقت نفسه شعور بالطمأنينة ، كما

أن الشعور بالجماعية هو شعور بالتضامن والتكافل . فالشخصية المنفتحة على الواقع من حولها ، وكذا الأمة المنفتحة على غيرها من الأمم ، تكون فى مأمن من الأخطار التى قد تحيق بها . فالتكافل يضمن درء الأخطار ، والتغلب على المشكلات ، والتخلص من المفاجآت الشريرة التى تهدد القوام الشخصى أو القوام الجماعى ، كالكوارث الطبيعية أو القحط أو التصحُّر أو نحو ذلك من مشكلات أو نوائب .

خامساً — الرخاء مع السلام :

فمن الحقائق التى لا تخفى على أحد أن التسلح بالنزعة الانفتاحية يعمل على نشر ألوية السلام بين المرء وبين غيره من أفراد ، أو بين الأمة وبين غيرها من الأمم . ويترتب على انتشار السلام بين الناس ضمان رخائهم ورفاهيتهم . ذلك أن روح الانفتاح تتعارض مع روح العداء ، وبالتالى فإن الأفراد أو الشعوب المتذرِّعة بالنزعة الانفتاحية يتمتعون بالرخاء وبسْطة العيش والرفاهية .

وعلينا بعد أن عرضنا لعلاقة النزعة الانفتاحية بالإنتاج ، أن نعرض لما يمكن أن يترتب على الأخذ بالنزعة الانغلاقية من نتائج فى إنتاجية المرء أو فى إنتاجية الأمة على النحو التالى :

أولاً — تقهقر مستوى الإنتاج :

فمما لا شك فيه أن تقييم المنتجات لم يَعُد تقييماً محلياً انغلاقياً ، بل صار تقييماً عالمياً يتصف بالعمومية . فإذا ما تمسك المرء أو تمسكت أى دولة بالنزعة الانغلاقية ، فانكفأت على نفسها ولم تتفاعل مع خبرات غيرها ، فإن منتجاتها تهبط إلى الحضيض ، ولا يتسنى لها مواكبة المعايير

الدولية العالمية . وبتعبير آخر فإنها تُفْلس فى معركة التنافس فى الأسواق العالميـة .

ثانياً – هجرة المتفتحين خِبْرياً :

ولعل من أخطر النتائج التى تترتب على شيوع النزعة الانغلاقيـة ، هجرة المتفتحين خِبْرياً إلى خارج البلاد حيث يجدون الفرصة متاحة أمامهم للانفتاح خِبْرياً على خبرات الآخرين ، فالبلاد التى يشيع فيها الانغلاق الخِبْرى أو بتعبير آخر الرجعية الخبرية ، تشجع بطريق غير مباشر أولئك الأشخاص من ذوى الميول الانفتاحية على خبرات الآخرين ، على ترك البلاد والهجرة إلى أقطار نائية لعلهم يجدون فيها مُبْتغاهم من الخبرات التى يتفاعلون معها ، فيقدمون إلى أهلها ثمار تلك التفاعلات الخبرية بدلاً من تقديمها إلى أهلهم فى البلد الذى نشأوا فى ظله .

ثالثاً – دفن المواهب والاستعدادات :

ويتأتى عن الأخذ بالنزعة الانغلاقية ضياع الكثير من المواهب والاستعدادات التى كان من الممكن استثمارها لو أن النزعة الانفتاحية كانت هى النزعة السائدة وليس النزعة الانغلاقية . فبدلاً من اشتعال جذوة التفاعلات الخِبْرية بين الخبرات الموجودة والخبرات التى يتم استقبالها ، فإن الركود الخِبْرى هو الذى يسود الآفاق ، ويأخذ بأزِمَّة الحياة الشخصية والعامة على السواء .

رابعاً – الاضطرار إلى الاستيراد دون التصدير :

ويتأتى عن الأخذ بالنزعة الانغلاقية ، بوار الإنتاج ، وبالتـالى اضطرار الممسكين بأزمَّة الاقتصاد فى البلاد إلى استيراد الضروريات كالمنتجات الزراعية أو الأجهزة التكنولوجية من الأقطار التى تأخـذ

بمبدأ الانفتاح الخِبْرى مع عدم القدرة على تصدير المنتجات المحلية لرداءتها أو لسوء الإدارة أو للعجز عن استثمار الأيدى العاملة .

خامساً - الإحساس العام بالتخلف الإنتاجى :

أخيراً فإن الأخذ بالنزعة الانغلاقية يؤدى إلى إشاعة المشاعر بالتخلف الاقتصادى نتيجة التخلف فى المجالات الإنتاجية المتباينة . ومن المؤكد أن هذه المشاعر تتواكب مع مشاعر الكراهية والبغضاء والحسد والحقد تجاه الشعوب التى تأخذ بالنزعة الانفتاحية . ولكن بدلاً من تقليدها ، فإن اللوم يكال لها لأنها هى التى تسببت فيما وصلت إليه البلاد من تقهقر فى المجالات الإنتاجية المتباينة .

* * *

الفصل الثالث عشر
التربية الانتاجية

◻ معنى التربيـة الإنتاجيـة :

نقصـد بالتربية الإنتاجية تلك التربية التى تنبنى أساساً على تنشئة الأطفال والمراهقين والشباب على أن يكونوا شخصيات مُنْتجة فى مجتمعهم . وعلى هذا فإن التربية الإنتاجية تتضمن مجموعة من المعانى التى نستطيع أن نقدمها على النحو التالى :

أولاً – المعنى التأثيرى :

فالتربية الإنتاجية هى تلك التربية التى تعترف لمن تقوم بتنشئتهم بأنهم كائنات مُؤَثِّـرة فى البيئة المحيطة بهم ، سواء كانت بيئة طبيعية أم بيئة اجتماعية . فالإنتاج يستلزم التأثير . ولكى يكون المرء كائناً مُؤَثِّـراً لا بد أن يكون متأثراً أيضاً . إذن فالتربية الإنتاجية تعتمد على هـذين القطبين المتكاملين ، أعنى قطب التأثر من جهة ، وقطب التأثير من جهة أخرى . وبتعبير آخر فإن هذه التربية تعتمد على قطبي الاستقبال الخِبْرى من جهة ، والتصدير الخِبْـرى من جهة أخرى . فهى تؤكد مبدأ المشاركة فى العمليات التعليمية المتباينة ، فلا يكون المعلم فيها مُلَـقِّـناً المعلومات كما يحدث ويشيع اليوم ، بل يكون مُهَـيِّـئاً الفرص والمناسبات التربوية التى تسمح للمتعـلم بأن يكون شريكاً فى المواقف التربوية مشاركة إيجابية إلى جانب تَـلَـقِّـيه واستيعابه للخبرات المتباينة .

ثانياً – المعنى المهارى :

فالواقع أن التربية الإنتاجية تنحو إلى كسب الناشئة مجموعة من المهارات الحركية ، والمهارات التعبيرية ، والمهارات العلائقية ، والمهارات الاقتصادية ، والمهارات الأخلاقية وغير ذلك من مهارات . ونعنى بالمهارات تلك العادات التى يكتسبها المرء بحيث تكون مُوَظَّفة توظيفاً إيجابياً فى المجتمع أو فى المجتمعات التى يتعامل معها ويساهم فى خدمتها . وهناك فرق بين العادات الشخصية والمهارات . فالعادات الشخصية قد تكون حركية أو عقلية أو وجدانية أو كلامية أو إرادية . فإذا ما اصطبغت تلك العادات الشخصية بالصبغة الاجتماعية ، فإنها تستحيل إلى مهارات . والواقع أن التربية الإنتاجية تهتم بالمهارات لا بكَسْبها للناشئة كهدف فى ذاته ، بل كخبرة مُوَظَّفة فى الواقع الاجتماعى . وبتعبير آخر فإن هذه التربية الإنتاجية تهتم بالمهارات ، لا من حيث إنها هدف تربوى له قيمة مطلقة ، بل من حيث إنها أدوات أو وسائل لها قيمها النسبية التى تساهم فى ممارسة الحياة والعلاقات الاجتماعية .

ثالثاً – المعنى التطورى :

والتربية الإنتاجية بهذا المعنى تعمل على حمل الناشئة على أن يكونوا على أُهْبة الاستعداد بصفة دائمة للتطور مع ما يحدث من تطورات فى المجتمع الذى يعيشون فى إطاره . فهى لا تَرْكَن إلى ما يتم اكتسابه من وسائل إنتاجية ثم تتوقف بعد ذلك عند حدود ما تم كَسْبه من تلك الوسائل ، بل هى تربية تتسم بالاستمرارية التطورية . ذلك أن المجتمع يَنْهج وَفْق مبدأ تطورى متدفق فيما يتعلق بالمتغيِّرات الإنتاجية التى تعتمل فى قوامه . فثمة ما يشبه النهر الذى تتغير المياه التى تجرى فى مجراه ،

فلا تظل هى هى بغير تغيُّر. فما يكون صالحاً من الوسائل الإنتاجية اليوم، لا يستمر صالحاً بعد وقت يَقْصُر أو يطول. فالمهارات الإنتاجية التى كانت ملائمة للمجتمع فى الأمس القريب، لم تعد صالحة للمجتمع نفسه فى الوقت الراهن. كذا فإن المهارات الإنتاجية الملائمة للوقت الراهن، سوف لا تكون ملائمة فى الغد القريب.

من هنا فإن التربية الإنتاجية تهتم بإعداد الناشئة مِزَاجياً، بمعنى أنها تبث روح التطوير الذاتى فى عقول وقلوب الناشئة. وبتعبير آخر إنها تحاول حَمْل الشباب على إمساك قياد أنفسهم بأنفسهم، لكى يظلوا على أهْبة الاستعداد لتربية ذواتهم توافقياً تبعاً للمتغيرات التى تستجد خلال حياتهم الإنتاجية. فالمدرسة والمعهد والكلية ليست سوى وسائل مؤقتة أو وسائل مساعدة لكسب المهارات الإنتاجية فحسب. أما التربية الإنتاجية الذاتية فإنها مَنُوطة بالمرء نفسه الذى يستمر بعد تخرُّجه فى معاهد التعليم فى التلاحم مع المتطلبات الإنتاجية المتجددة. فيُكيِّف نفسه وإمكاناته تبعاً لها ووَفْقها، ويظل مستعداً لتطوير نفسه بنفسه بغير توقف على الإطلاق.

رابعاً – المعنى البرجماسى :

والتربية الإنتاجية بهذا المعنى هى التربية التى تهتم بنتائج السلوك وليس ببواعثه أو بالمبادئ الإطلاقية. فالمهم فيما يتم تعليمه للناشئة، أن يكون قابلاً للتوظيف، وما تتأتى عنه نتائج مفيدة، سواء للمرء نفسه، أم للمجتمع الذى يحيا تحت لوائه. وبتعبير آخر فإن التربية الإنتاجية لا تَتكلف بالحقائق التى يتعلمها التلميذ أو الطالب لأن لها قيمة فى ذاتها، بل تَتكلف بالحقائق التى يمكن تشغيلها والإفادة منها فى الواقع العملى. فالعلم الذى

لا يمكن إحالته إلى عمل ، أو الذى لا يتسنى ممارسته فى الحياة العملية ، هو علم أجوف لا طائل وراءه ، ومن العبث اكتسابه . من هنا فإن التربية الإنتاجية تحاول بصفة دائمة رَبْطَ الفكرة بالممارسة . وبتعبير آخر فإنها التربية التى تبدأ بالممارسة وتنتهى إلى الفكرة . فمثلاً لدى تعلم الطفل الحساب ، فإن التربية الإنتاجية تَحْمله على ممارسة عمليات البيع والشراء . ولكن لكى يتسنى له أن يقوم بذلك ، فلا بد أن يقيم العلاقات بين الأشياء المباعة والمشتراة . فالعلم الخليق بأن يكون إنتاجياً هو ذلك الذى يتأتى للمرء نتيجة العمل ، فتكون النظرية مستمدة من التطبيق ومن الممارسة العملية .

خامساً — المعنى العلاجى :

والتربية الإنتاجية بهذا المعنى هى التربية التى تقوم بتدريب الناشئة على مجابهة المشكلات التى تجابههم فى الحياة العملية ، فيقفون على الحلول المناسبة لعلاجها ، أو للتخفف من وطأتها ، أو للتخلص من النتائج السيئة التى يمكن أن تترتب على اعتمالها . فالتربية الإنتاجية بهذا المعنى العلاجى تهتم بكسب الناشئة القدرة على تشخيص المواقف الصعبة التى تعتور حياتهم ، كما تهتم بتَوقُّع المراحل أو التطورات التى تمر بها تلك المواقف ، وتهتم أيضاً بتقييم النتائج التى يمكن أن تُفْضى إليها ، والوقوف على الإمكانات المتاحة لمجابهتها ، كما تكسبهم إرادة التنفيذ ، وذلك بعدم الوقوف عند حدود التفكير وما يتواكب معه من عاطفة ، بل تحملهم على المسارعة إلى التذرع بالخطوات العملية التنفيذية العلاجية التى تكون على مقاس الموقف وليست أكبر أو أصغر من حجمه . فهذه التربية الإنتاجية لا تتناول الإنتاج من الزاوية الإيجابية فحسب ، بل تتناوله من الزاوية السلبية العلاجية أيضاً . فمن يدرأ خطراً ، أو من يعالج

مشكلة وشيكة الوقوع ، لا تقل إنتاجيته عن إنتاجية العامل فى المصنع الذى يقدم منتجات محسوسة قابلة للعد والإحصاء .

سادساً ــ المعنى الدفاعى الهجومى :

وكما أن التربية الإنتاجية تَكْلف بعلاج المشكلات وتذليل الصعاب ، فإنها تَكْلف أيضاً بتسليح الناشئة بأسلحة الدفاع وبأسلحة الهجوم . ونحن هنا لا نقصد من استخدامنا للفظ « أسلحة » تلك الأسلحة التى يستخدمها الجنود فحسب ، بل نعنى المعنى العام والشامل لهذا اللفظ . فالسلاح الدفاعى أو السلاح الهجومى يمكن أن يكون كلاماً ، كما يمكن أن يكون مواقف أو تصرفات . فالتربية الإنتاجية تهتم بتسليح الناشئة بمقومات الشخصية القوية التى تستطيع أن تدافع عن حقوقها ، بل وأن تهاجم الأعداء عندما يتطلب الموقف استخدام الهجوم . فلا يكون المرء غير قادر على الدفاع عن حياضه ، أو غير قادر على ممارسة الهجوم إذا ما تطلب الموقف ذلك ، بل يكون مُحَنَّكاً فى التصدى لمواقف الحياة المختلفة ، بحيث يَخْلص من كل موقف بالنتائج التى تعتبر ظَفَراً فى معركة الحياة ، وبالتالى فإنه يكون شخصية منتجة بهذا المعنى الدفاعى الهجومى .

□ مجالات التربية الإنتاجية :

علينا بادئ ذى بدء أن نلقى الضوء على مجالات التربية العامة قبل أن نحدد المجالات التى تغزوها التربية الإنتاجية ، فنجد أن مجالات التربية العامة يمكن أن تتحدد على النحو التالى :

أولاً ــ المجال الجسمى :

فالتربية تهتم بالناشئة من حيث كونهم كائنات حية بحاجة إلى رعاية

مستمرة . وترتكز تلك الرعاية الجسمية فى التغذية ، وفى تكييف الجسم لحالة الطقس من حيث نوع الملابس التى يرتديها المرء ، وضمان استمرار الجسم فى حالة نشيطة ، وذلك بممارسة التدريبات الرياضية واستنشاق الهواء النقى وتحاشى أسباب الإصابة بالعاهات أو الكسل الجسمى ، وأيضاً درء أسباب المرض عنه ، والعـــلاج منه إذا ما أصيب المرء بأى من الأمراض المعدية أو بغيرها من أمراض ، ونحو ذلك من وسائل الحفاظ على الجسم وضمان استمرار حيويته ونشاطه ، وذلك لأن الجسم يعتبر القوام الذى ينبعث منه كل نشاط آخر .

ثانياً — المجال الذهنى :

والتربية العامة تهتم بالنشاط الذهنى لدى الناشئة ، فهى تقوم بتموين الذاكرة بالمختارات من المعلومات المتباينة، سواء كانت مختارات علمية، أم مختارات تاريخية ، أم مختارات دينية ، أم مختارات اجتماعية ، أم غير ذلك من مختارات . ثم إنها تهتم بتنمية ذكاء الفرد عن طريق التدريبات المتعلقة بإقامة العلاقات بين مفردات الأشياء ، أو بين العلاقات القائمة بالفعل بعضها وبعض ، ثم إنها تهتم باللغة ، سواء كانت لغة قومية أم لغة أجنبية ، كما تهتم بالمفاهيم الذهنية المجردة ، وبالاستقبال والتصدير الذهنيين . فهى تشجع الناشىء عـلى أن يشارك فى العمليات الثقافية المعرفية ، وذلك بأن يقدّم ثمـاراً ذهنيـة نتيجة التفاعلات الخِبْرية التى تعتمل فيما بين الخبرات المستفادة من الخـارج بعضها وبعض ، ثم التعبير عن نتائج تلك التفاعلات التى حدثت بدخيلته ..

ثالثاً — تربية التذوق الدينى والأخلاقى :

والتربية العامة تهتم ببث الروح الدينية والأخلاقية فى قلوب الناشئة . فهى تهتم ببث القدرة على التميز بين الخير والشر من جهة ، وبين المناسب

وغير المناسب من الكلام والتصرفات والمواقف من جهة أخـرى ، والتمسك بالخير والمناسب فى جميع المواقف التى يوجد بها المرء .

رابعاً - تربية الذوق الفنى :

والتربية العامة تهتم بتنمية الشعور بالجمال لدى الناشئة ، وذلك عن طريق الحواس الخمس ، وبخاصة حاستى البصر والسمع . ولكنها لاتكتفى بالتذوق الجمالى ، بل تهتم أيضاً بالتصـدير الفنى ، أعنى المشاركة فى دعم الجمال الموضوعى الخارجى فى نطاق الأشياء المحيطة بهم ، وأن يعبر كل فرد عن تذوقه الشخصى للجمال فيما يتناوله من موضـوعات ، فتكون له نظرته الجمالية الخاصة به التى تتكامل مع التذوقات الجمالية لدى غيره من أشخاص .

خامساً - التدرب على المهارات المتباينة :

والتربية العامة تهتم بتدريب الناشئة على التمرس بالمهارات المتباينة ، وبخاصة المهارات الحركية والمهارات العلائقية التى تنحو إلى إقـامة علاقات تستهدف أهـدافاً معينة بين الأفـراد بعضهم وبعض ، وبين المجموعات بعضها وبعض . ثم هى تهتم بالمهارات الكلامية المنطوقـة والمهارات الكلامية المكتوبة ، كما تهتم بالمهارات التقنية التى تنحو إلى إحالة النظريات العلمية إلى ممارسات عملية متباينة .

وبعد أن عرضنا لمجالات التربية العامة ، علينا أن نعرض لمجالات التربية الإنتاجية ، فنجد أنها تتحدد على النحو التالى :

أولاً - المساهمة الإيجابية :

فالتربية الإنتاجية تهتم بأن تَـحْـمل الناشئة منذ نعومة الأظفار على يكونوا إيجابيين فى المجتمع الذى يوجـدون به ، وألا يكونوا مجـرد

مستقبلين للخبرات التى يريد الكبار مدَّهم بها . فالناشئة ، سواء بالبيت أم بالمدرسة أم بالمعهد أم بالكلية ، يجب أن يتشربوا مبدأ المشاركة الإيجابية فى الحياة . فلا يكون البيت أو المؤسسة لإعداد الناشىء للحياة ، بل لممارسة الحياة ، لا كما هى فى الواقع بالفعل فحسب ، بل ولما سوف تكون عليه فى المستقبل أيضاً . ومعنى هذا أن المساهمة الإيجابية الآنية لاتكون عائقاً أمام النظرة المستقبلية إلى تلك المساهمة الإيجابية المستقبلية. فكما أن المربى يُدَرِّب الناشىء على ممارسة الحياة الراهنة ، فإنه يُعِدّه أيضاً لممارسة الحياة كما سوف تكون عليه فى المستقبل .

ثانياً – مواكبة العمل للعلم والأداء للنظرية :

والتربية الإنتاجية لا تقسِّم المعرفة إلى شطرين منفصلين : شطر نظرى وشطر آخر عملى ، بل تحقق التكامل بين العلم والعمل ، أو بين النظرية والتطبيق . وبتعبير آخر فإنها لا تنحو وَفْق ما تفعله التربية التقليدية بتقسيم عمر المرء إلى قسم استقبالى معرفى ، وقسم آخر تصديرى أدائى ، بل تنحو إلى توحيد العلم والعمل فى كُلٍّ متكامل . فهى تحقق تفاعلاً بين الممارسة العملية وبين الفكر ، فيتأتى عن ذلك التفاعل موقف أو اتجاه جديد هو حصيلة ذلك التفاعل . فكل معرفة يقف عليها المتعلم تتفاعل مع الأداء والتوظيف .

ثالثاً – القدرة على إقامة العلاقات الخِبْرية :

فالتربية الإنتاجية تهتم بحمل الناشئة على الإفادة من الخبرات الأدائية التى سبق لهم اكتسابها ، بحيث تتفاعل الخبرات الجديدة مع الخبرات القديمة . فلا تكون الخبرات بمثابة تراكمات ترص بعضها فوق بعض ، بل تكون بمثابة عناصر أو مركبات تتفاعل بعضها مع بعض بحيث يتأتى

عن تفاعلها مركباتٌ خِبْرية على جانب أكبر من التعقد . وأكثر من هذا فإن التربية الإنتاجية تهتم بتحقيق تفاعلات خِبْرية فيما بين الخبرات التى حصَّلها الأفراد المتباينون . فهى لا تعمد إلى إقامة فواصل بين المتعلمين ، أو أن تقيم عازلاً بين كل واحد منهم وزميله كما تفعل التربية التقليدية التى تجعل من كل تلميذ أو طالب منافساً لزميله ، دون أن تحاول توفير المناخ المناسب لتحقيق التفاعلات الخِبْرية بينهما ، بل تهتم بالتبادل الخبْرى الذى تتأتى عنه تلك التفاعلات بين خِبْرات الأفراد المتباينين .

☐ وسائل التربية الإنتاجية :

عندما نَعْرض لوسائل التربية الإنتاجية ، فإن علينا أن نبدأ بالمنهج . ولا نعنى بلفظ « المنهج » المقررات الدراسية ، بل نعنى الفلسفة الأدائية التربوية التى يؤمن بها القائمون بهذا النوع من التربية والتى يعكفون على ترجمتها إلى واقع تربوى مُؤثِّر فى تربية الناشئة . والمنهج الذى تتذرع به التربية الإنتاجية يتَّسم بمجموعة من السمات التى نستطيع تحديدها على الوجه التالى :

أولاً - إحلال الكيفات محل الماذات :

فالسِّمة الأولى التى يتسم بها منهج التربية الإنتاجية هى إحلال مبدأ « كيف تتعامل مع الحياة » محل مبدأ « ماذا تعرف عن الحياة » . وبتعبير آخر فإن هذه التربية تهتم بالوسائل والمهارات التى يستعين بها المتعلم فى ممارسة الحياة ، بدلاً من الاهتمام بشحن الذاكرة بالمعارف والمعلومات . وعلى هذا فإنها تستبعد من النشاط التعليمى الكثير جداً من المقررات التى تستهدف الاستيعاب الذهنى ، وهى المقررات التى تؤكد على التلقى

والاستيعاب ، بينما هى تفعم ذلك النشاط بالكثير جداً من المواقف التى تقبل الممارسة والخبرة العملية .

ثانياً — إحلال التدريب محل التعليم :

والتربية الإنتاجية تؤمن بممارسة الحياة وليس بالتفرج على الحياة . ذلك أن التعليم التقليدى يجعل من التلاميذ والطلاب متفرجين على الحياة ، وبالتالى فإنهم يظلون غرباء عن ممارسة الحياة ، أو هم لا يمارسون النشاط المتعلق بصميم الحياة إلا بعد الخروج إلى الحياة العملية . ولكن التربية الإنتاجية تجعل من المدرسة والمعهد والكلية مجالات لممارسة الحياة بالفعل . فالسنوات التى يقضيها التلميذ أو الطالب بالمؤسسات التعليمية تعتبر من صميم ممارسة الأعمال المتباينة تحت إشراف مدرِّبين محنَّكين فى المجالات التدريبية المتباينة .

ثالثاً — التذرع بمبدأ المحاولة والخطأ :

وبينما نجد أن التربية التقليدية تعتمد على تشريب الناشئة القوالب السلوكية والأدائية التى لا تشوبها أخطاء من قريب أو بعيد ، فإن التربية الإنتاجية تعتمد على التعليم بالممارسة المباشِرة التى تكون فيها الأخطاء هى السائدة فى بداية الأمر ، ثم يتخلص الناشىء من أخطائه شيئاً فشيئاً إلى أن يتم تدَرُّبه بدون أخطاء تُذكَر . ولعلنا نضرب مثلاً لذلك بالتدرُّب على لوحة المفاتيح بالكومبيوتر . فالتلميذ الذى يبدأ تدَرُّبه على استخدام الكومبيوتر لا يمارس العمل خلواً من الأخطاء ، بل إن الأخطاء تكون هى السائدة فى بداية الأمر ، ثم تأخذ فى التملص شيئاً فشيئاً حتى يتمكن من استخدامه على نحو سديد .

رابعاً — استمرارية التدريب :

وحيث إن الحضارة دائبة التدفق فى شتى المجالات وبإزاء فنون

الأداء المتباينة ؛ لذا فإن التربية الإنتاجية تؤمن باستمرارية التدريب على المستَحْدثات التكنولوجية التى تحل محل التكنولوجيات القديمة التى تتضاءل أهميتها وتَقْبع فى الظل بعيداً عن الضوء .

خامساً — تطوير المبانى التعليمية :

ومن الطبيعى أن تستدعى التربية الإنتاجية تطويراً هائلاً فى المبانى المدرسية . ذلك أن المبانى التقليدية للمدارس والمعاهد والكليات قد صُمِّمت وَفْقاً لفلسفة التلقين والمحاضرات ، أى لنقل المعلومات من ذهن المعلم إلى أذهان التلاميذ والطلاب ، ولم تصمَّم كمراكز تدريبية على « الكيفات » ، بل صممت لكى تدرس بها « الماذات » ، أعنى المناهج المعرفية المقررة والتى على التلميذ أو الطالب شحنها بذاكرته .

وحيث إننا قد تعرضنا للمِعْمار الذى يجب أن يتواكب مع التطورات التكنولوجية المتدفقة والمستمرة فى التدفق بغير توقف ، فإن علينا أن نعرض بعد ذلك لتلك التكنولوجيات من حيث سماتها الرئيسية التى تتصف بها على النحو التالى :

أولاً — النماذج المبسَّطة بالتصغير أو بالتكبير :

فالواقع أن التكنولوجيات المستخدمة بالمؤسسات التعليمية — أو بالأصح المؤسسات التدريبية — تحاول أن تتكيف وَفْقاً لقدرة المتدرب على التواؤم معها وتناولها بالممارسة . ومعنى هذا أن التكنولوجيات التى يُدَرَّب عليها المتعلم تتَّسم بالبساطة ، أو هى تبدأ من البسيط إلى المعقد ، حتى يتسنى التدرج فى التدرب عليها شيئاً فشيئاً ويتم التمكن من تشغيل الأجهزة والمعدات ونحوها .

ثانياً — توازى العلم والعمل :

وفى التدرب على التكنولوجيات المتطورة ، فإن ما يُقدَّم من

معرفة علمية ، يكون على مقاس الموقف التدريبى وليس أقل أو أكثر منه . فلا يطلب من التلميذ أو الطالب استيعاب الأسس النظرية التى تقوم عليها التكنولوجيا باستفاضة ومع التطرق إلى المناحى غير التطبيقية ، بل تقدم إليه الجُرْعات العلمية بقدر ما يتناسب مع الممارسات العلمية التى سوف تستخدم فيها التكنولوجيا .

ثالثاً – التدرب على التكنولوجيات الحديثة بواسطة الخبراء :

فكل تكنولوجيا تستجد يجب أن يتم التدرب عليها على أيدى أصحابها أو على أيدى من تدربوا عليها بالفعل وتمكنوا من تشغيلها. وبتعبير آخر فإن المعلم التقليدى الذى تُقَيَّم كفاءته فى ضوء المؤهل الدراسى الذى حصل عليه منذ عدة سنوات ، لا يصلح لهذا النوع من التربية الإنتاجية. فهذه التربية لا تثق إلا فى أصحاب الممارسات الذين تشرَّبوها من أربابها بشكل مباشر أو بشكل حميم . ومعنى هذا أن هذه التربية الإنتاجية تستعين بأصحاب الخبرات المتطورة باستمرار ، ولا تركن إلى أصحاب المؤهلات الذين حصلوا على مؤهلاتهم قبل بزوغ التكنولوجيات الحديثة إلى الوجود .

□ استمرارية التربية الإنتاجية :

سبق أن ألمحنا إلى أن الحياة فى تَدَفُّق مستمر ، وأن تكنولوجيا الأمس لم تَعُد ملائمة لمتطلبات اليوم ، كما أن تكنولوجيا اليوم سوف لا تكون ملائمة لمتطلبات الغد . ناهيك عن أن التدفقات التكنولوجية تنهج وَفْق متتالية هندسية تضاعفية على هذا النحو : ٢–٤–٨–١٦ إلخ. من هنا فإن التوقف عن استمرار التدرُّب على ما يستجد من تكنولوجيات متباينة معناه التخلف الشديد ، وعدم مسايرة الحياة ذاتها أو التوافق مع إيقاع العصر .

وهناك فى الواقع مجموعة من الوسائل التى يجب الاستعانة بها لضمان استمرار التربية الإنتاجية وعدم توقُّفها أو تقاعسها عن مسايرة إيقاع العصر ، لعلنا نقوم بتقديمها على النحو التالى :

أولاً — الاتصال المباشر بمنتجى التكنولوجيات الجديدة :

فحتى يتسنى تلَقُّف ما يستجد على الساحة العالمية من تكنولوجيات ، فإن من المحتم إزالة جميع العقبات أو السدود التى تقف حائلاً بين مستخدمى التكنولوجيا وبين ما يستجد بإزائها من منتجات جديدة . فالواقع أنه بدون مواصلة الاتصال بتلك الجهات المنتجة للتكنولوجيات الجديدة ، فإن استمرارية التربية الإنتاجية تكون مستحيلة ، أو تكون مهددة بالتوقف .

ثانياً — توفير الاعتمادات المالية :

فثمة معادلة فيما بين نفقات التجديد التكنولوجى وبين استمرارية التربية الإنتاجية . فإذا ما تقلصت النفقات أو شَحَّت الاعتمادات اللازمة لذلك التجديد التكنولوجى ، فإن التربية الإنتاجية تصير مُهَدَّدة بالتوقف عن مسايرة عجلة التقدم ، أو أنها تعمل فى حَلْقة مُفْرَغة ، إذ تستمر فى تشريب التلاميذ والطلاب ما بطُل استخدامه على مستوى العالم المتقدم .

ثالثاً — إعداد رواد القائمين بالتدريب :

فحتى يتسنى ملاحقة مايستجد من مستجدات تكنولوجية والاستمرار فى تدريب الناشئين من التلاميذ والطلاب عليها ، لا بد من إعداد رواد من المدرِّبين الذين يتجددون باستمرار بحيث يلاحقون المستجدات التكنولوجية أولاً بأول من المصادر الأصلية للإنتاج التكنولوجى .

ومعنى هذا أن من الضرورى إرسال البعثات المشكَّلة من أولئك الرواد، وكذا استقدام أصحاب الخبرة من الأقطار صاحبة تلك التكنولوجيات لكى يقوموا بعقد التدريبات لأولئك الرواد ، ثم يقوم المتدرِّبون من أولئك الرواد بنقل ما تدربوا عليه إلى الصف الثانى ، ومن ذلك الصف الثانى تنتقل الخبرات إلى الصفوف التالية حتى يتم التعميم الخِبْرى المتعلق باستخدام تلك التكنولوجيات الجديدة .

رابعاً — إحلال التكنولوجيات الجديدة محل التكنولوجيات القديمة :

وحتى يتسنى استمرار التربية الإنتاجية فى عملها ، لا بد من الأخذ بمبدأ الإحلال . فالواقع أن من الخطأ الاستمرار فى الأخذ بالتكنولوجيات الجديدة إلى جانب الاستمرار فى استخدام التكنولوجيات القديمة والعمل بهما جنباً لجنب . من ذلك مثلاً استمرار بعض الجهات فى استخدام الأضابير (الدوسيهات) جنباً لجنب مع استخدام الكومبيوتر ، أو استخدام الآلة الكاتبة جنباً لجنب مع استخدام الكومبيوتر . فمن عوائق استمرارية التربية الإنتاجية التمسك بالوسائل القديمة وإضافة الوسائل الجديدة إليها ، مع أن المنطق يقول إن الوسيلة الجديدة يجب أن تستبعد الوسيلة القديمة التى عملت الوسيلة الجديدة على الاستغناء عنها تماماً .

خامساً — التقييم المستمر للنتائج :

فاستمرارية التربية الإنتاجية يجب أن تتوازى مع التقييم المستمر وعقد المقارنات فيما بين التطبيقات المتباينة للتكنولوجيات القديمة والتكنولوجيات الجديدة من حيث الكم والكيف الإنتاجيين . وكذا الوقوف على مدى الصعوبة فى ممارسة العمليات التدريبية على التكنولوجيات الحديثة ، وعلى العقبات أو الصعاب التى تعتور طريق التدريب .

سادساً — وضع الخطط التدريبية المستقبلية :

وحتى تتحقق استمرارية التربية الإنتاجية ، فإن من المحتم تشَوُّف المستقبل القريب والبعيد نسبياً ، ثم وضع الخطط الملائمة لاستقبال ما يتم توقع قدومه من تكنولوجيات مستحدثة فى ضوء المكتشفات العلمية الجديدة واستيعابها ، وأيضاً فى ضوء بشائر التكنولوجيات التى بدأت طلائعها فى البزوغ ولم يتم تعميمها بعد . فكلما كان المرء واقفاً على تلك البشائر أو الطلائع ، فإنه يكون خليقاً بالتالى باستقبالها لدى تعميمها والأخذ بها واستخدامها ، وأيضاً القيام بتدريب التلاميذ والطلاب عليها بعد إحرازها والعمل على نشرها على المستوى المحلى ثم على المستوى القومى على السواء .

على أن هناك مجموعة من الصعاب التى تعترض طريق استمرارية التدريب على التكنولوجيات المستحدثة فى العالم المتقدم ، لعلنا نقوم بإيرادها فيما يلى :

أولاً — سرِّية المستحدثات التكنولوجية :

فالواقع أنه على الرغم من أن الشركات المنتجة للتكنولوجيات المستحدثة بالعالم المتقدِّم يهمها أن تنشر تكنولوجياتها على مستوى العالم ، فإنها تحاول جاهدة إخفاء الأسرار أو المكتشفات العلمية المتعلقة بإنتاجية تلك التكنولوجيات . فهى تعلم جيداً أن مفتاح تلك الأسرار أو المكتشفات العلمية إذا ما صار متداولاً بين الأقطار المتباينة ، فإن القيادة التكنولوجية سوف تفلت إذن من يدها ، بل إن الأقطار المستهلِكة لتلك التكنولوجيات سوف تتنافس معها فيما يتعلق بإنتاج التكنولوجيات المتجددة على الدوام .

ثانياً — صعوبة توفير الاعتمادات المالية :

فالكثير من الممسكين بزمام الاقتصاد يقولون إنه ما دامت التكنولوجيات التى نستخدمها اليوم تقدم الإنتاج المعقول ، فلماذا العمل على إبدال غيرها بها وبخاصة أن هناك أبواباً للإنفاق أولى مما ينفق على ذلك التجديد ؟ من هنا فإن الكثير من الأقطار التى لا تتمتع بمستوى مرتفع من الثراء تظل على حالها من استخدام التكنولوجيات القديمة بينما تصرف النظر عن إحلال التكنولوجيات المستحدثة محلها .

ثالثاً — بيروقراطية العاملين :

فالواقع أن الممسكين بأزِمَّة العمل والذين بأيديهم إعداد الرواد الجدد المُدَرَّبين على أحدث ما يظهر بالسوق العالمية من تكنولوجيات مستحدثة ، يتمسكون بالقديم ويَنْبون عن الجديد الذى لم يحصلوا على الخبرات المتعلقة به . فهم يخشون من تَفَوُّق الرواد الجدد عليهم ، ومن مصلحتهم أن يظل الحال على ما هو عليه ، وأن يستمروا مُتَفوِّقين على شباب العاملين بما لديهم من خبرات قديمة تَمَكَّنوا منها وتَمرَّسوا بها وأتقنوا استخدامها . لذا فإنهم يناهضون إحلال التكنولوجيات الجديدة محل التكنولوجيات القديمة ، زاعمين أن ما يعتبر ضمن التكنولوجيات القديمة لم يمر على استيراده واستخدامه سوى بضع سنوات قليلة ، وأنه لا يزال يقدم إنتاجاً جيداً .

□ مشكلات التربية الإنتاجية :

هناك العديد من المشكلات التى تعترض طريق الأخذ بوسائل التربية الإنتاجية ، والعمل على إعداد أجيال من المنتجين فى شتى المجالات الإنتاجية ، لعلنا نقوم باستعراضها على النحو التالى :

أولاً – سيطرة الإيديولوجية التربوية التقليدية :

فمنذ قديم الزمان والناس يعتقدون أن التربية الخليقة بالاتباع هى تلك التربية التى تَشْحن الذاكرة بالمعلومات ، ولقد ساد الاعتقاد بأن من يَعْرف يستطيع إذن أن يترجم ماعرفه إلى سلوك عملى . وبتعبير آخر فإن العمل فى أنظارهم إنما هو نتيجة للعلم ، كما أن التطبيق هو نتيجة للوقوف على النظريات العلمية وهضمها . وحتى بالنسبة للأخلاق ، فقد ساد الاعتقاد منذ عهد سقراط فى القرن الرابع قبل الميلاد بأن الفضيلة علم والرذيلة جهل . فالطريق إلى السلوك الأخلاقى السليم هو المعرفة .

ولقد ذهب أفلاطون تلميذ سقراط إلى أن المعرفة بمثابة غريزة فى دخيلة الإنسان ، لأنه كان يعيش مع الآلهة فى عالم المُثُل ، فكان لذلك على علم بكل شيء . بيد أن تلبُّسه بالجسد قد عماه عما كان يعرفه قبلاً . فالمعرفة عن طريق التذكر والتخفف من ضغوط العالم المادى هى الكفيلة بوَقْفه على ما كان متمتعاً به قبل انخراطه فى الحياة الأرضية وتلبُّسه بالجسد الذى يعتبر بمثابة كهف سقط فيه ، فلا يتسنى له وهو فى أغواره رؤية ما هوموجود خارج نطاق ذلك الكهف، فهولا يرى سوى ظل الحقيقة ، ولا يعاين الحقيقة فى ذاتها .

وبناء على هذا فإن التربية الخليقة بالاتباع هى التربية المعرفية التى تعمل على التخفف من عوامل الجهل . بيد أن هذه التربية التقليدية تتنافى تنافياً تاماً مع ما تذهب إليه التربية الإنتاجية التى تقول إن التربية الخليقة بالاتباع تعتمد على التدرب على ممارسة التأثير فى الواقع الخارجى، حيث يتعانق العمل مع العلم ويتحدان سوياً فى مركَّب متكامل ، لا هو عمل بحت ولا هو علم بحت .

ثانياً — ترجيح الذاتية على الموضوعية :

والإيديولوجية التقليدية تعمد إلى ترجيح كفة الذاتيـة على كفـة الموضوعية . بمعنى أنها تهتم باستعدادات الناشئة واستثمارها ، وليكن ما يكون من نتـائج سلوكية بعد الاستمرار فى ذلك الاستثمار . ذلك أن الإيديولوجية الإنتاجية تذهب إلى إخضـاع دخيلة المـرء للمتطلبات الخارجيـة . فالخـارج يجب أن يسيطر على الداخـل . وعلى الناشئة أن يُكَيِّفوا أنفسهم للمطالب الاجتماعية الخارجية . وحتى بالنسبة للسوية النفسية ، فإنهـا يجب أن تتحدد فى ضوء مدى النجاح فى التكيف للمتطلبات الاجتماعية الواقعية الموضوعية الخارجية .

ثالثاً — احتقار الإنتـاج :

فالاتجاه الذى ظل معتملاً فى الأوساط التربوية منذ أفلاطون ، يذهب إلى اعتبار الإنتاج اليدوى حقيراً قياساً إلى ما يمكن أن يتأتى عن إعمال الفكر والوجدان . فلقد قسم أفلاطون الناس إلى ثلاث فئات : فئة الفلاسفة وهم يناظرون الرأس وعملهم هو التفكير العقلانى ، وفئـة الجنود وهم يناظرون القلب وعملهم هواستخدام السلاحالدفاعى والسلاح الهجومى ، وفئة العمال والفلاحين وهم يناظرون البطن وعملهم هوالإنتاج اليدوى . ولقد اهتم أفلاطون بتربية الفلاسفة والجنود ، ولكنه لم يهتم بتربية العمال والفلاحين .

ولقـد ظل تأثير أفلاطون وغيره سائداً فى الأوساط التربوية عَـبْـر العصور المتعاقبة مُدَعَّـماً بما ذهب إليه على النحونفسه غيره من مفكرين تربويين ، فلم تأخذ التربية الإنتاجية حظها منالرعاية والعناية من جانبهم ، بل على العكس فقـد حظيت التربية العقلانية والوجدانية بكل الاهتمام .

على أن مفهوم التربية الإنتاجية لم يقف عند حدود الأنشطة اليدوية ، بل اتسع نطاقها لكى تشمل الإنتاج بكافة المعانى التى عرضنا لها بالفصل الأول من هذا الكتاب . وبذا فقد صارت الشخصية المنتجة لا ترتبط بالعمل اليدوى فحسب ، بل صار ينظر إلى المشتغلين بالإنتاج العقلى من فلاسفة وعلماء وأدباء وفنانين باعتبارهم منتجين أيضاً ؛ بل إن الإنتاج بهذا المعنى الواسع صار هدفاً تربوياً تُبْذر بذوره الأولى فى عقول وقلوب الناشئة منذ الطفولة وعَبْر مراحل أعمارهم التالية ، بل لقد صارت التربية الإنتاجية مستمرة فى اعتمالها فى حياة المرء حتى نهاية العمر .

رابعاً – التكنولوجيا كبديل للمنتجين :

وبينما ينادى بعض المفكرين بضرورة نشر الوعى الإنتاجى بين الناشئة ، فإن التكنولوجيا الحديثة تحل باطِّراد متزايد محل الأيدى العاملة ، بل ومحل المنتجين بصفة عامة . فالآلات الإلكترونية بالمصانع قد أخذت فى الاستغناء عن الكثير جداً من العاملين بها . وصارت العقول الإلكترونية والروبوتس تضطلع بالإنتاج المتنوِّع والخصب . فبدلاً من إعمال الفكر ثم تقديم الإنتاج ، فإن العقل الإلكترونى أو الروبوت صار يقوم هو بالأعمال العقلانية بما فى ذلك الترجمة من لغة إلى لغة أخرى وتجميع المعلومات وتصنيفها وتقديمها جاهزة للراغبين فى الحصول عليها . ناهيك عن البيانات والإحصاءات والمخططات المتباينة فى شتى المجالات ، وبالتالى فإن البشرية صارت مُقْدِمة على عصر الفراغ الإنتاجى بالنسبة لكثير جداً من الناس ، عدا الصفوة المتمثلة فى أعداد قليلة من المفكرين والمخططين والمشرفين على تلك العقول الإلكترونية والروبوتس والعاملين على تطويرها وتحسين أدائها . وبتعبير آخر فإن المستقبل الإنتاجى

سوف ينحصر فى نطاق صفوة قليلة العدد تعمل بطريق غير مباشر على نشر الفراغ والبطالة على أوسع نطاق ممكن .

خامساً — التفجر السكانى :

ومن العوامل المناهضة للتربية الإنتاجية ، ذلك الفائض الكبير من السكان الزائدين عن حاجة المجتمعات إلى الوظائف الإنتاجية المتباينة . فالإنتاج المتوافر بالأسواق أكثر من الحاجة إلى ما يمكن أن تقدمه أيدٍ عاملة منتجة جديدة ، بل إن الفائض من المنتجين فى شتى المجالات أكثر بكثير مما يمكن القيام بإحصائه . ولقد ترتب على الزيادة المستمرة فى ذلك الفائض ، وجود تلك الأعداد الهائلة من المتعطِّلين الذين لا عمل لهم . فالكثير من خريجى الجامعات يتسكَّعون على نواصى الشوارع أو فى الأندية ، وقد رفضت جهات العمل تشغيلهم فى أى عمل ، سواء كان فى نطاق تخصصاتهم أم خارج نطاق تلك التخصصات . فكيف إذن يتسع نطاق التربية الإنتاجية والحال هكذا ، وأعداد العاطلين فى زيادة مستمرة سنة بعد أخرى ، كما أن السكان على المستوى العالمى فى تزايد مستمر ، ولا جدوى من انعقاد المؤتمرات ونشر الدعايات لوقف التفجر السكانى ؟

سادساً — التضخم والأزمات الاقتصادية :

ومن الطبيعى أن التفجر السكانى من جهة ، وارتفاع مستوى المعيشة بالنسبة لجميع طبقات الشعب فى جميع أنحاء العالم تقريباً من جهة ثانية ، والارتفاع المتزايد فى نفقات الدفاع وفى تكلفة المعدَّات الحربية المتقدمة والمتزايدة فى التقدم ، مع تقدم تكنولوجيات السلاح من جهة ثالثة ، وازدياد الإنفاق على الأمن الداخلى بالأقطار المتباينة بسبب ازدياد معدلات الإجرام ، والأخذ بالوسائل الحديثة فى الضرب على

أيدى المجرمين بأسلحة متطورة فى مقابل أسلحتهم ومعداتهم وأجهزتهم المتطورة أيضاً من جهة رابعة ، ونقص الموارد الغذائية والمعدنية المتاحة على المستوى العالمى من جهة خامسة ... إلخ ، نقول إن كل هذا وغيره قد جعل الكثير من أقطار العالم توجِّه الإنفاق إلى ما هو أكثر أهمية من الأخذ بالتربية الإنتاجية ونشرها بين الناشئة ، والعمل على هدم صروح التربية التقليدية التى بُنيت ركائزها عَبْر عصور كثيرة متعاقبة . وبالتالى فإن الطريق أمام إحلال التربية الإنتاجية محل التربية التقليدية طويل جداً ومفروش بالأشواك .



الفصل الرابع عشر
التعاون والانتاج

□ علاقة التعاون بالإنتاج :

سبق أن ألمحنا إلى أن طبيعة الشيء المنتَج هي التي تحدد ما إذا كان بحاجة إلى تعاون أم لا . وقلنا إن الشاعر أو الفيلسوف أو الفنان ينعكفون على ذواتهم ، ويتعاملون مع النشاط الذي يُكَرِّسون له حياتهم وهم في حالة اعتكاف أو عزلة ، نابين عن إقامة العلاقات بالآخرين من حولهم . ولكن بتأملنا لحقيقة النشاط الذهني والوجداني الذي يمارسه الأديب أو الفيلسوف أو الفنان أو غيرهم ممن ينكفئون على أنفسهم ويمارسون نشاطهم بعيداً عن الناس ، فإننا نجد أن ثمة نشاطاً تعاونياً نفسياً داخلياً على المستوى الشعوري والمستوى اللاشعوري معاً يعتمل في دخيلة المرء من هذه الفئة . فثمة ما يمكن أن نسميه المسرح النفسي الداخلي يلعب عليه الآخرون أدوارهم المتباينة، فتحل الرموز أو الصور الذهنية محل الأشخاص المحسوسين .

وليس من شك في أن الرموز والصور الذهنية لدى الشاعر أو الفيلسوف أو الفنان المتعلقة بالأشخاص الذين يتعاملون معهم ذهنياً وما ينشأ بينهم من علاقات ، ليست أقل حيوية من الأشخاص المُجَسَّمين أو العلاقات التي تقوم على مسرح الواقع العلائقي بالفعل . ولعل أن عمليات التكثيف والتشذيب والتنقية التي يقوم بها المبدع تجعل لتلك

الصور الذهنية بهاءً خاصاً وحيوية متدفقة أقوى بكثير من بهاء وحيوية الواقع المحسوس المتعلق بالأشخاص الواقعيين .

وعلى هذا فإننا نستطيع أن نقول إن ثمة نوعين من التعاون هما : التعاون الحسى الواقعى من جهة ، والتعاون الرمزى من جهة أخرى . ومن ثَمَّ فإننا نستطيع أن نقرر أن أى نشاط يضطلع به المرء ، يكون مشفوعاً بقدر ما من التعاون ، سواء كان تعاوناً حسياً مجسَّماً متَّصفاً بالواقعية الموضوعية من جهة ، أم كان تعاوناً رمزياً مجرداً من جهة أخرى .

ويحسن بنا أن نستبين علاقة كل من هذين النوعين من التعاون بالإنتاج ، ولنبدأ بعلاقة التعاون الحسِّى المجسَّم المتصف بالواقعية الموضوعية ، فنجد أن هذه العلاقة يمكن أن تتحدد على النحو التالى :

أولاً — مشاركة الأطراف المتعاونة فى النشاط التعاونى :

ففى هذا النوع من التعاون يتم توزيع النشاط التعاونى على جميع الأشخاص المشتركين فيه بقدر أو آخر. ذلك أن هناك تبايناً فى القَدْر أو المدى الذى يبديه كل منهم من التعاون فى ذلك النوع من النشاط الذى يشترك فيه مع الآخرين .

ثانياً — احتمال تقاعس البعض عن القيام بالدور المطلوب منهم :

ففى ممارسة النشاط التعاونى ، قد يتباطأ البعض من المشتركين فيه أو يتقاعسون فى النهوض بالدور المطلوب قيامهم به . ومن ثَمَّ فإما أن يضطلع بعض المشتركين معهم فى النشاط التعاونى بدورهم نيابة عنهم ، وبذا يستمر الإنتاج على نفس المستوى من حيث الكم والكيف ، وإما أن تحدث فجوة فى العملية التعاونية الإنتاجية ، فيصاب العمل بالخلل أو بهبوط المستوى من حيث الكم والكيف جميعاً .

ثالثاً — وقوع أحداث طارئة لبعض الممارسين للعمل التعاونى :

فقد يصاب بعض المشتركين فى الأنشطة التعاونية الإنتاجية بالمرض أو ببعض الحوادث ، فيترتب على ذلك غيابهم عن مقر العمل وتوقفهم عن مواصلة نشاطهم ، فيحدث بالتالى خلل فى الإنتاج التعاونى الكلى ، أو قد يعوَّض عن غيابهم بمن يحلون محلهم من أشخاص فى مستوى قدرتهم الأدائية ، أو أكثر منهم حُنْكة فيرتفع مستوى الإنتاج ، أو أقل منهم حُنْكة فيهبط مستوى الإنتاج .

رابعاً — التفاوت فى المهارات الإنتاجية :

فقد لا يكون الأشخاص المشتركون فى العمليات الإنتاجية على نفس المستوى بإزاء المهارات التى يتذرعون بها فى أداء العمل ، ومن ثَمَّ فإن الإنتاج المتأتى عن تعاونهم بعضهم مع بعض لا يكون على المستوى المطلوب من حيث الجودة .

خامساً — تضارب القيم والنزاعات :

فقد لا تكون القيم السائدة بين الأشخاص المشتركين فى النشاط الإنتاجى التعاونى منسجمة بعضها مع بعض ، بل متضاربة بعضها مع بعض ، أو قد تنشأ النزاعات والشجارات بينهم ، فيترتب على ذلك توقف الإنتاج أو تعثره أو الانحطاط بمستواه .

وبعد أن عرضنا لهذه الخصائص الخمس للتعاون المحسوس أو الموضوعى القائم بين الأفراد المشتركين بالفعل فى أداء عمليات تعاونية إنتاجية معينة بعضهم مع بعض ، فإن علينا أن نعرض بعد هذا للخصائص التى يتسم بها ما أسميناه بالتعاون على المستوى السيكولوجى الذى ينشأ فيما بين المبدع وبين الصور الذهنية التى يُحِلها محل الأشخاص والعلاقات

الواقعية على مسرحه الذهنى ، فنجد أن تلك الخصائص يمكن أن تتحدد على النحو التالى :

أولاً — من حيث التعاون أو العصيان :

فعلى الرغم من أن الأشخاص الذين يتعامل معهم الأديب أو الفنان أو الفيلسوف ليسوا أشخاصاً حقيقيين ، بل أشخاصاً من نَسْج خياله ونتيجة للعمليات التكثيفية اللاشعورية التى يضطلع بها قبل انخراطه فى عمله الإبداعى أو فى أثنائه . فإن ما يُدْلى به المبدعون من اعترافات تؤكد أن تلك الشخصيات الرمزية لا تتعاون معهم بنفس القدر أو المستوى . فمن تلك الشخصيات الرمزية شخصيات عنيدة تتأبى على التعاون ، فيصعب على المبدع التعاون معها بالطريقة التى يريدها لها لأنها صعبة المِراس . فهى تفرض نفسها وتصر على التعبير عن اتجاهاتها بالطريقة التى تريدها هى لا بالطريقة التى يريدها هو لها . فالمبدع الخليق بهذه الصفة هو ذاك الذى يُخْضِع نفسه لما تريده تلك الشخصيات التى يقدمها فى أعماله . ومن المعروف أن الكثير من الشعراء العرب كانوا يَعْزُون إبداعاتهم الشعرية إلى جِنِّىّ يقبع فى دخيلة الواحد منهم ويملى عليه ما يريده هو لا ما يريده الشاعر نفسه .

ثانياً — خضوع المبدع لمشيئة الشخصيات التى يقدمها :

والتعاون فى الإطار الرمزى يكون بالدرجة الأولى تعاون المبدع مع الشخصيات التى يترسَّمها ويقدمها فى أعماله . فهو يقدم تنازلات كثيرة بإزائها . وبتعبير آخر فإنه لايكون المسيطر على تلك الشخصيات ، بل يكون متعاوناً معها ومكيِّفاً نفسه لها . فهو لايفرض فكره واتجاهاته عليها . من هنا فإن ثمة بعض التناقضات تبدو فى إنتاج المبدع ، وذلك

لأنه ينهج وَفْق مزاج الشخصيات المتباينة التى تحتل ذهنه ، وهى بالطبع ليست صاحبة مزاج واحد ، بل لكل منها مزاجه الخاص به الذى يصر على فرضه على العمل الإبداعى ، فلا ينصهر فى بوتقة أعدها له المبدع فتضيع معالم شخصيته وتتلاشى اتجاهاته المتمايزة ، ولا تبدو سوى معالم شخصية المبدع واتجاهاته .

ثالثاً — العصيان والثورة :

وكما أن المشتغلين فى عمل تعاونى مشترك فى الواقع الحى قد يُعْلنون العصيان والثورة على الوضع القائم ، فيتوقفون من ثَمَّ عن الإنتاج ، كذا الحال بالنسبة للشخصيات التى تعتمل فى ذهن المبدع من حيث انسجامها بعضها مع بعض فى بعض الأحيان ، وتنافرها وتعاركها بعضها مع بعض فى أحيان أخرى . من هنا فإنك كثيراً ما تجد المبدع وقد توقف عن تقديم أى إنتاج جديد لفترة من حياته تقصر أو تطول . وقد يبدو النزاع بين تلك الشخصيات المتعاركة رمزياً فى ذهن المبدع ، فيكون على هيئة أزمات نفسية وانحرافات مزاجية . وقد يصل العراك فى ذهن المبدع إلى حد التخريب والتدمير ، فيصاب بالجنون كما حدث لنيتشة الفيلسوف الذى قضى سنواته الأخيرة من عمره فى إحدى مستشفيات الأمراض العقلية . وبالتالى فإن إنتاجية المبدع فى مثل هذه الحالة تتوقف تماماً .

□ تكاملية التعاون والتنافس :

على الرغم من أن التعاون والتنافس يبدوان متعارضين ومتنابذين ، فإن الواقع أنهما متواكبان ومتآزران ، وأنه حيثما يكون هناك تعاون ، يكون هناك تنافس أيضاً . وهذا يتبدى فى حالة المجموعات المتنافسة .

ففى إطار الأنشطة التى تتنافس فيها مجموعتان أو أكثر ، فإن التعاون يكون على أشُدّه فى نطاق كل مجموعة، بينما يكون التنافس فى الوقت نفسه على أشُدّه بينها وبين المجموعة أو المجموعات المتنافسة معها . خذ مثالاً لذلك بمباراة بين فريقين لكرة القدم ، إن كل فريق منهما يتعاون بعضه مع بعض من جهة ، بينما يتنافس مع الفريق المضاد الذى يلعب معه من جهة أخرى .

ويتصف الموقف التعاونى التنافسى بالتكامل إذا ما توافرت فيه مجموعة من الشروط التى نستعرضها على النحو التالى :

أولاً — تكافؤ قوتى المجموعتين المتنافستين :

فمثلاً بالنسبة لفريقى كرة القدم . فإذا كانت قوة كل فريق متقاربة مع قوة الفريق الآخر ، فإن التعاون فى نطاق كل فريق يكون متكافئاً مع التنافس الذى يبديه مع الفريق الآخر . ولكن إذا كان أحد الفريقين ضعيفاً ومنخفض المستوى فى أدائه الكروى ، فإن التعاون فى نطاق كلا الفريقين يهبط . فالفريق الأقوى فى حقيقة الأمر قد يُتّهم بالتخاذل والميوعة وعدم الجِدّية فى الأداء . ولكن الواقع أن الخلل الذى يحدث فى التنافس بسبب ضعف أحد الفريقين بشكل صارخ ، هو الذى يؤدى إلى انخفاض مستوى التعاون فى نطاق الفريقين جميعاً .

ثانياً — وضوح الهدف :

فكلما كان الهدف من قيام الموقف التعاونى التنافسى على جانب أكبر من الوضوح ، فإن التكامل يتحقق فيما بين التعاون فى نطاق كل فريق من الفرقتين المتنافستين ، وبين التنافس بينهما أو بين الفرق المتنافسة لتحقيق ذلك الهدف . فالمدرس الذى يقوم بتقسيم تلاميذ فصله

إلى مجموعات ولتكن خمس مجموعات ، ثم يحدد الهدف التنافسى أمامها جميعاً ، ولنفرض أنه القيام بحل أكبر عدد من المسائل الحسابية المطروحة أمام المجموعات الخمس ، فإن وضوح الهدف يحمل أفراد كل مجموعة على التعاون بعضهم مع بعض فى القيام بحل أكبر عدد من المسائل الحسابية من جهة ، وفى التنافس مع المجموعات الأخرى لإحراز قصب السَّبْق بصدد تحقيق الهدف من المسابقة من جهة أخرى .

ثالثاً — توافر الانسجام فى نطاق كل مجموعة :

فكلما كان الانسجام متوافراً بدرجة أكبر بين أفراد كل مجموعة من المجموعات المتنافسة ، فإن هذا يكون أدعى إلى تحقيق تنافس أقوى بينها ، وبالتالى فإن التكامل يتحقق بإزاء الموقف التعاونى التنافسى . لذا يحسن بالنسبة لتقسيم الفصل إلى مجموعات تتنافس بعضها مع بعض ، أن يقوم التلاميذ أنفسهم بتشكيل المجموعات على أساس ما يربط بينهم من صداقة وألفة وانسجام ، وذلك حتى يتحقق الانسجام فى نطاق كل مجموعة إلى أكبر درجة ممكنة .

رابعاً — توفير الحافز :

فكلما كان الحافز أكثر فاعلية فى قلوب المجموعات المتنافسة ، كان أكثر فاعلية فى تحقيق التكامل بين التعاون والتنافس . والحافز قد يكون مادياً يتمثل فى المكافآت المالية ، وقد يكون أدبياً يتمثل فى الحصول على شارات أو إيقونات أوأعلام تهدى للمجموعة الفائزة فى حَلْبة المنافسة . وقد يكون الحافز جامعاً فيما بين المكافآت المالية والجوائز الأدبية فى الوقت نفسه .

خامساً — تحديد الإطار المكانى والزمانى للتنافس :

فكلما كان تحـديد المكان والزمان اللذين سوف يتم فيهما التعاون

والتنافس دقيقاً ، كان ذلك أدعى إلى تحقيق التكامل فيما بين التعاون والتنافس . ناهيك عن تحديد العمليات أو الأنشطة التى تكون هدف الموقف التعاونى التنافسى . وبتعبير آخر فإن القوالب المحسوسة والمعنوية يجب أن تكون محدَّدة ومنضبطة ومُعْلنة بطريقة موضوعية وراسخة البنيان ، ولا تكون قابلة للتعديل وَفْق هوى المسئول عن الإشراف العام على المباراة ؛ كما يجب ألا يكون للتحيزات الشخصية أو الميول العاطفية لدى القادة المهيمنين على سير العمل التنافسى التعاونى أى دخل أو تأثير فى مسيرة ذلك العمل . فالحيادية شرط أساسى لتوفير فرص التكامل بين التعاون والتنافس فى الأنشطة الجماعية .

ولعلنا نتساءل بعد هذا عن أهمية تحقيق التكامل فيما بين التعاون والتنافس فى العمليات الإنتاجية ، فنجد أن هذه الأهمية يمكن أن تتحدد على النحو التالى :

أولاً — بذل أقصى الجهد :

فكلما تحقق التكامل بين التعاون والتنافس ، فإن كل شخص وكل مجموعة يبذلان أقصى ما فى طاقتهما لتحقيق أكبر قدر وأرقى نوعية من العائد الإنتاجى .

ثانياً — الشعور بقيمة الوقت :

فكلما تحقق التكامل فيما بين التعاون والتنافس ، فإن كل فرد وكل جماعة يُحِسَّان بقيمة كل ثانية من ثوانى المباراة ، فلا يتبدد الوقت سُدى ، بل تستثمر كل لحظة لتحقيق إنتاج أكثر وأفضل .

ثالثاً — التذرع بأفضل وسائل الإنتاج :

ويترتب على توافر التكامل فيما بين التعاون والتنافس فى الموقف ،

اجتهاد كل فريق من الأفرقة المتنافسة فى التذرع بأفضل الوسائل المؤدية إلى إحراز إنتاج أغزر وبمستوى أفضل .

رابعاً — التخفف من توقيع العقوبات :

فكلما تحقق التكامل فيما بين التعاون والتنافس بإزاء الأنشطة الإنتاجية ، فإن المديرين والرؤساء لا يكونون بحاجة إلى توقيع العقوبات على العاملين . ذلك أن الانخراط فى النشاط الذى يتحقق فيه التكامل فيما بين التعاون فى نطاق كل مجموعة من جهة ، والتنافس فيما بين المجموعات بعضها وبعض من جهة أخرى ، كفيل بالتخلص من كثير من الأخطاء ، وعدم الركون إلى الكسل أو التهرب من المشاركة فى العمل . فالتعاون الذى يشيع فى نطاق كل مجموعة يجعل منها كائناً حياً اجتماعياً متكاملاً تتعاون فيه جميع أعضائه بعضها مع بعض ، وتحاول التغلب والانتصار فى معركة التنافس مع المجموعات الأخرى .

□ آفاق التعاون :

من الممكن أن ننظر إلى آفاق التعاون من عدة زوايا يتبدى فيها الإنتاج بمعانيه التى عرضنا لها بالفصل الأول من هذا الكتاب ، لعلنا نقدم أهمها على النحو التالى :

أولاً — التعاون الإيجابى :

وهذا النوع من التعاون يتبدى فى قيام شخصين أو أكثر بإنجاز عمل مشترك فيما بينهما . وهذا المفهوم هو الشائع فى الأذهان لدى ذكر التعاون فى إحدى المناسبات ، وهو يتطلب اتفاق الأطراف المتعاونة على ما يخص كلا منها من مهام ، وما عليه أن يؤديه من واجبات . وقد يُقَسَّم العمل المشترك إلى وحدات وتسند كل وحدة منها إلى

واحد أو أكثر من المشتركين فى النهوض بذلك العمل المشترك . ولكن حتى فى حالة تقسيم العمل إلى وحدات وتوزيعها على المشتركين فيه ، فلابد أن يقف جميع المشتركين على الهدف العام المرجو تحقيقه للعمل ككل ، كما يجب تحديد المواصفات والشروط الواجب توافرها فى النتائج المتأتية عنه بعد الانتهاء منه لكى يتحرَّاها جميع المشتركين فى التنفيذ ويضعوها نُصْب أعينهم . ولا بد أيضاً من اقتناع جميع المشتركين فى العمل به وإيمانهم بجدواه ، وأن يكونوا على يقين من أنه يخدم مصالحهم جميعاً ويعود عليهم بالفائدة المادية أو الفائدة المعنوية .

ثانياً – التعاون السلبى :

وهذا النوع من التعاون يتبدى فى اللامبالاة التى تبديها مجموعة من الناس بإزاء موقف ما أو بإزاء حالة أو تصرف صدر عن شخص أو جماعة . من ذلك مثلاً الإضراب العام عن الطعام ، أو الاعتصام فى مبنى ، أو مقاطعة بعض المؤسسات أو إحدى السلع . فالمشتركون فى هذه المواقف يتَّصفون بالتعاون السلبى . فالظلم الذى يقع على شعب مغلوب على أمره من جانب المستعمر أو من حاكم مستبد ، أو المعاملة القاسية أو غير اللائقة التى يعانى منها تلاميذ أو طلبة إحدى المدارس أو المعاهد أو الكليات ، يمكن أن يُعْلَن بين صفوفهم هذا النوع من التعاون السلبى ، وذلك بعدم تجاوبهم مع الناظر أو العميد أو المدرِّس أو الأستاذ الظالم . ولقد ثبت أن هذا النوع من التعاون الذى يتبدى فى بعض المناسبات ذو فاعلية كبيرة فى قهر الظلم ، وعودة الحقوق المسلوبة إلى أصحابها .

ثالثاً – التعاون الإجرامى :

فقد تتعاون مجموعة من اللصوص لارتكاب جرائمهم بالتنسيق

فيما بينهم ، وذلك بتعاونهم بعضهم مع بعض فى إلقاء الرعب فى قلوب المواطنين الآمنين ، ومحاولة التغلب على الشرطة التى تقف لهم بالمرصاد. وقد يتبنى بعض المجرمين قضية مشتركة فيما بينهم ، أو قد يتَّحدون بعضهم مع بعض حول محور أو شعار معين . من ذلك مثلاً اتهام طبقة الأثرياء بأنهم مغتصبين لحقوقهم ، فصاروا معرَّضين هم وأُسرهم للتشرد والجوع . وقد يتمَحَّكون فى أسباب تاريخية بأنهم أصحاب الحق فى الثروة التى سُلِبت من أجدادهم، أو قد ينتحلون عقيدة دينية يُوهمون التابعين لهم والملتثمين فى صفوفهم بأنها خليقة بالاتباع والدفاع عنها ، حتى ولو كان ذلك الدفاع يتطلب نهب الأموال وقتل من يقفون فى طريق دفاعهم عن تلك العقيدة .

رابعاً — التعاون الدفاعى :

وفى هذا النوع من التعاون يترابط الناس بعضهم مع بعض للدفاع عن حياضهم وأرواحهم وممتلكاتهم . فالناس لا يقفون فى العادة مكتوفى الأيدى بإزاء من يتربصون بهم ويهاجمونهم فى عُقْر دارهم، بل إنهم يتسلحون بأسلحة الدفاع عن النفس التى يتسنَّى لهم التسلح بها . فقد يتعاونون مع الشرطة فى القبض على اللصوص الخارجين على القانون ، كما قد يتخذون من الصحافة ووسائل الإعلام المختلفة أبواقاً يناهضون بها مزاعم المعتدين عليهم والسالبين لحقوقهم ، إلى غير ذلك من وسائل الدفاع التى يتعاونون فى حشدها والتذرع بها فى الرد على عدوان المعتدين على حقوقهم .

خامساً — التعاون الإعلامى والثقافى :

وهذا النوع من التعاون يلتئم فيه رجال الإعلام والمفكرون والفنانون حول بعض القضايا ويُنَسِّقون فيما بينهم لتوجيه الاهتمام إليها ، وتكوين

رأى عـام مُوَحَّـد أو مشترك بإزائها . من ذلك مثـلاً قضية الحجاب والنقاب بالنسبة للمرأة ، واشتراكها فى ممارسة الحياة العملية ، وحقوقها المدنية بصفة عامة . وكذا قضية السكان وتحديد النسل ، وقضية تشغيل الشباب فى الأعمال الحرة والوظائف ، وقضية هجرة المثقفين وامتصاص الدول المتقدمة للنُّخْـبة منهم ، وقضية الكِتاب وتزييفه وارتفاع سعره ، إلى غير ذلك من قضايا تتعاون أجهزة الإعلام والمؤسسات الثقافيـة فى بلورة الرأى العام حولها .

سادساً — التعاون النفسى :

وهذا النوع من التعاون يسمى عادة بالمشاركة الوجدانية . فعندما تقع مصيبة لإحدى الأسر ، فإن الأقرباء والأصدقاء والجيران يتجاوبون وجدانياً مع أفرادها ، فيكون التعاون فى هذه الحالة تعاوناً نفسياً ، إذ أن التئـام القـلوب حول أفراد تلك الأسرة يعمـل على التخفيف نفسياً مما ابتليت به . وقد يكون التعاون النفسى بالمشاركة الوجدانية بسبب ظلم وقع على أحد الأبرياء ، أو بسبب اعتداء غاشم على شخصية عامة تلتف القلوب حولها بفضل جهادها وتبريزها فى مجال ما من المجالات كالمجال الأدبى مثلاً . ولنضرب مثالاً بالتعاون النفسى أو التجاوب الوجدانى الذى حدث حول شخصية الكاتب الكبير نجيب محفوظ عندما امتدت يد آثمة إليه تريد اغتياله ، ولكن يد العناية الإلهية حفظته ونال من رعاية محبيه من الشعب ومن كبار المسئولين بالدولة ما يستحقه من تعاطف وتجاوب نفسى ، وهو الذى اعترف به العالـم أديباً ممتازاً وطوَّق جبينه بجائزة نوبل .

سابعاً — التعـاون الحربى :

ففى حالة الحرب ، يتعاون الجنود جميعاً فى ساحة الوغى لإحراز

النصر . وكل من اشترك فى المعارك الحربية يذكر من قصص البطولات والتضحيات ما لا يكاد يُصَدِّقه عقل . فحتى الأشخاص الذين لم يكن يتوقع منهم إبداء الكثير من الشجاعة ، يُذكَر عنهم أنهم اتخذوا الكثير من المواقف المُتَّصفة بالشهامة ، والتى تدل على أن التعاون الحربى يَخْلق حتى من الناس العاديين أبطالاً مغاوير يشار إليهم بالبنان، وتسجل لهم مواقف البطولة والتضحية التى اتخذوها فى ساحة الوغى وقد أقدموا على الموت بقلوب صُلْبة كالفولاذ الذى لا يلين .

□ **معوِّقات التعاون :**

هناك فى الواقع مجموعة من المُعَوِّقات التى تحول دون تحقيق التعاون على الوجه الأمثل . وبتأمل تلك المُعَوِّقات فإننا نستطيع أن نُصَنِّفها إلى مُعَوِّقات نفسية ، وأخرى موضوعية . ولنبدأ بالمعوقات النفسية التى تحول دون تحقيق التعاون — كما يجب — على النحو التالى :

أولاً — الكراهية والحقد :

فالمشتركون فى عمل إنتاجى ما ، قد يُحِسُّون بعضهم نحو بعض بالكراهية والحقد لأسباب متباينة قد يتبينونها ، وقد تعتمل فى قلوبهم على نحو لا شعورى . فالتنافس على احتلال المناصب الرفيعة ، أو الحصول على الأجر المرتفع ، أو إحراز الرضى من جانب الرؤساء ، أو غير ذلك من أسباب ، قد يُشْعِل جذوة الكراهية والحقد فى قلوب المشتغلين فى عمل تعاونى مشترك فيما بينهم .

ثانياً — تغَلُّب التنافس على التعاون :

وقد يشتعل التنافس فى نطاق الجماعة التى يُفترض أن يهيمن عليها

التعاون لا التنافس . فيتأتى عن تغلُّب التنافس على التعاون تعطيل العمل التعاونى أو انهياره . فبدلاً من تبادل الخبرات بين أفراد المجموعة المتعاونة ، فإن كل واحد من أفرادها يُخَبِّئ عن الآخرين ما فى جعبته من خبرات ، وبالتالى فإن الجمود الخِبْرى يسيطر على نشاط تلك الجماعة .

ثالثاً : تربُّص أعضاء الجماعة بعضهم ببعض :

وقد يؤدى التنافس المحتدم بين أفراد الجماعة التى يُفترض أن يسود التعاون أجواءها، إلى تربص كل فرد فيها بزميله لعله يكتشف تَرَدِّيه فى بعض الأخطاء أو المخالفات أو الانحرافات فيبلِّغ عنه ، وبالتالى يقع تحت طائلة العقوبة أو يُفْصل من العمل . ومن هنا فإن كل واحد بالجماعة يحاول أن يلتزم بالحدود الضيِّقة لنطاق مهامه ، أو قد يتمسك بالروتين ويجعل منه عائقاً أمام تحريك دفة العمل أو تآزر مقوماته بعضها مع بعض .

رابعاً — الرئاسة الغاشمة :

ولقد تبتلى الجماعة التى تشترك فى عمل تعاونى برئيس مُتَجبِّر لا همّ له سوى توقيع العقوبات على من يخطئ أو من يتهاون أو من يقصِّر فى عمله دون أن يتحرَّى عن أسباب ذلك التقصير . وبتعبير آخر فإن الرئيس المتصف بهذه الصفات يكون معزولاً من الناحية النفسية عن أفراد الجماعة التى يرأسها ، وبالتالى فإن حركة تبادل الخبرات بينه وبين مرءوسيه تكون متوقفة أو حتى متضاربة ومتعاكسة .

خامساً : ضمور الأهداف :

ولقد يعزى هبوط مستوى التعاون فى نطاق الجماعة التى كانت

متعاونة قبلاً إلى ضمور الأهداف وعدم تجددها . فعندما يحس أفراد الجماعة أن الأهداف التى كانوا يتوخونها فى تعاونهم قد تحققت ، وأنه لاتوجد أهداف جديدة قد حلّت محلها ، فإن حماسهم للتعاون يفتر ويأخذ بهم الملل كل مأخذ ، ويصيرون كالجسم الذى استحال إلى أشلاء ممزقة ، فلا تنبض فيه الدماء ، ولا يستبين اتجاهاً ينحو إليه ، ولا تعتمل فى قوامه رغبة لبذل الجهد وإبداء النشاط .

وبعد أن عرضنا لهذه العوامل السيكولوجية التى تعمل على الفتّ فى عَضُد الجماعة وتفكك أوصالها ، وعدم تعاون أفرادها بعضهم مع بعض ، فإن علينا أن نقوم باستعراض العوامل الموضوعية التى تعمل على تفككها وانخفاض مستوى التعاون بين أفرادها على النحو التالى :

أولاً – نقص الإمكانات والمعدّات :

فالتعاون بين أفراد أى جماعة تستهدف القيام بأنشطة معينة ، يستلزم توافر إمكانات العمل والمعدات اللازمة لإنجازه . فإذا ما توقف إمدادها بما يلزمها من إمكانات ومعدات لسبب أو آخر ، فإن النتيجة التى تتبع ذلك حتماً هى حدوث خلل فى التعاون بين أفرادها أو بين أجهزتها المسئولة عن تحقيق التعاون . ومعنى هذا أن الإمكانات والمُعِدّات لابد أن تتجدد باستمرار وأن تستمر صيانتها والحفاظ عليها وتوفير وسائل أداء العمل الخليقة بالاتباع .

ثانياً – عدم مسايرة عجلة التقدم :

فالواقع أن الحياة بعامة ، والحياة الحضارية بخاصة ، فى تطور مستمر . فما كان يصلح للاستخدام ويحقق التعاون بين العاملين فى الأمس ، قد لا يصلح للاستخدام ولتحقيق التعاون بين العاملين اليوم .

وما يصلح لاستخدامه اليوم قد لا يصلح غداً . من هنا فإن التقاعس عن التطوير المستمر ، سواء فى الأجهزة والآلات ، أم فى نظام العمل ووسائل أدائه، يؤدى حتماً إلى نقص الكفاءة التعاونية للجماعة ككل .

ثالثاً — القهر الاقتصادى :

فإذا ما أحس أفراد الجماعة أن ثمة هزيمة قد لحقت بهم نتيجة قهر جماعة أخرى لجماعتهم ، فإن معنويتهم تهبط إلى الحضيض ، وبالتالى فإن جذوة التعاون فيما بينهم تخمد وتنطفئ .

رابعاً — المصائب والكوارث :

ومما يعمل على هبوط مستوى التعاون بين أفراد الجماعة، تعَرُّضها لمصيبة أو كارثة تضرب قوامها فى الصميم . من ذلك مثلاً اشتعال حريق فى الموقع الذى تمارس فيه نشاطها ، أو حدوث زلزال يُقَوِّض أركان المبنى ، أو هبوط أسهم منتجاتها فى السوق ، وانصراف الزبائن عن شراء منتجاتها ، أو بزوغ تكنولوجيا جديدة تعمل على الاستغناء عن التكنولوجيا التى تستعين بها فى إنتاجها ، أو نحو ذلك من عوائق فجائية غير متوقَّعة تعمل على خلخلة التعاون بين أفرادها ، والقضاء على الحماسة فى بذل الجهد كما كان الحال فى السابق .

خامساً — انتشار الأوبئة :

ومما يعمل على زلزلة النشاط التعاونى فى نطاق أى جماعة ، انتشار الأوبئة ، كالطاعون والسل ونحو ذلك من أمراض تفتك بالأهلين ، فيتأتى عن ذلك تَوَقُّف الجماعات التى كان يسودها روح التعاون فى ممارسة نشاطها عن الاستمرار فى بذل الجهد ، وفى الترابط والحيوية اللذين كانا سائدين بين أفرادها . وبدلاً من ذلك ينتشر التفرُّق والتمزُّق وضياع الأهداف التعاونية التى كانت الجماعة تتوخاها قبلاً .

□ الوعى التعاونى :

ما المقصود بالوعى التعاونى ؟ إننا فى الواقع عندما نستخدم هـذا اللفظ ، فإننا نعنى به مجموعة من الاتجاهات التى نستطيع تقديمها على على النحو التالى :

أولاً — إدراك معنى العلاقات الاجتماعية :

فالكثير من اللبس والغموض يكتنف معنى العلاقات الاجتماعية . فبعض الناس يعتقدون أن المجتمع هو العدو اللدود للحرية الفردية ، وأن المرء كلما تحرر من القيود الاجتماعية ، كان بالتالى أكثر قدرة على الاستمتاع بالحياة وباستثمار الفرص المتاحة أمامه لإشباع نَهَمه من الملذات . ولكن إذا تسنى للمرء أن يفهم العلاقات الاجتماعية كما هى على حقيقتها فى الواقع ، فإنه سوف يدرك عندئذ أن من الممكن تحقيق الانسجام والوئام بين المطالب الفردية والمطالب الاجتماعية . وأكثر من هذا فإنه سوف يدرك أن المطالب الفردية إنما هى فى حقيقة الأمر عبارة عن مطالب اجتماعية تتعلق بشخصه أكثر من تعلقها بالآخرين ، فهو إذن ليس منسلخاً عن المجتمع الذى يتعامل معه ويحيا فى رحابه ، بل إنه مرتبط به أشد ارتباط وأوثقه .

ثانياً — التغلب على المشكلات الصعبة :

فالوعى التعاونى بهذا المعنى ، إنما هو إدراك أنه إذا ما تآزرت مجموعة من الأشخاص الأكْفاء للتصدى لحل إحدى المشكلات الكأداء ، فإن الطريق إلى حلها يكون مفتوحاً ، بعد أن يكون قد أغلق تماماً أمام كل فرد منهم وهو على حِدَة . وهذا يعنى أن القوة التى تتهيأ لمجموعة متآزرة من الأشخاص ، تكون فى الواقع أمضى أثراً من القوة التى تتاح

لكل منهم . وأكثر من هذا فإن القوة التى تتمتع بها الجماعة ، تكون أقوى وأمضى من مجموع القوى الفردية المتاحة للأفراد الذين تتكون منهم تلك الجماعة . ذلك أن الجماعة المتآزرة تكون شبيهة بالمركب الكيميائى الذى يفوق فى قوته مجموع قوى عناصره إذا ما جُمِعت فرادى بعضها إلى بعض .

ثالثاً – ترجيح كفة الحاجات needs على كفة الرغبات desires :

ومن المعروف أن الحاجات التى يحس بها المرء تتعلق بشخصيته الاجتماعية ، بينما تتعلق الرغبات بشخصيته البيولوجية . فالمطلوب فى الوعى التعاونى إعطاء الأولوية للمطالب الاجتماعية المنوطة بالمرء على ما يلذه ويشبع نهمه البيولوجى . فتناول الطعام مثلاً إذا كان عاملاً على مد المرء بالقوة والصحة ، فإنه يقع عندئذ فى نطاق الحاجات . ولكن إذا كان المرء راغباً فى تناوله برغم أنه يضره صحياً، فإنه يقع عندئذ فى نطاق الرغبات ، وكلما كان المرء مُرَجِّحاً كفة الحاجات على كفة الرغبات ، فإنه يكون بالتالى على جانب أكبر من الوعى التعاونى . ذلك أنه بهذا النَّهْج يكون مسانداً لنفسه باعتباره عضواً فعَّالاً وإيجابياً المجتمع .

رابعاً – الوقوف على أولويات الأهداف الاجتماعية :

فثمة مجموعة كبيرة من الأهداف الاجتماعية . ولكن تلك الأهداف ليست جميعها بنفس الدرجة من الأهمية ، وبالتالى فإنها ليست على مستوى واحد من حيث الأولوية . فكلما كان المرء أكثر دراية بتلك الأولويات ، وقد قام بترتيبها أمام ذهنه ترتيباً دقيقاً وَفْق أولوية كل منها ، فإنه يكون بالتالى أكثر تمكُّناً من الوعى التعاونى .

خامساً — الوقوف على وسائل التنفيذ والتمكُّن من ممارستها :

ولكى يكون المرء متمتعاً بالوعى التعاونى ، فإن عليه أن يكون مُتَفَهِّماً ما يجب الأخذ به من وسائل يتسنى له عن طريقها تحقيق أولويات الأهداف الاجتماعية . ولكن لا يكفى أن يتمتع المرء بالتفهم فحسب ، بل يجب أن يكون ذلك التفهم متفاعلاً مع الأداء، بمعنى أن يكون المرء برجماسياً ، أى أنه يكون متخذاً موقفاً ذهنياً وعملياً تطبيقياً وذا فائدة ونجوع فى آن واحد ، فلا يسلخ ماهو عقلى عما هو تنفيذى فعَّال ، كما أنه لا يعمل بغير فكر واضح مُتَبصِّر ومستنير .

وبعد أن قدمنا هذه المعانى الخمسة للوعى التعاونى ، فإن علينا أن نلقى الضوء على علاقة هذا الوعى التعاونى بالإنتاج ، فنجد أن هذه العلاقة تتمثل فيما يلى :

أولاً — عدم إضاعة الجهود سُدَى :

فكلما كان الوعى التعاونى أشد وأقوى ، فإن الجهود التى تبذل فى العمليات الإنتاجية تكون أكثر فاعلية . وبتعبير آخر فإن الفاقد من تلك الجهود يكون فى أضيق نطاق ممكن وبأقل قدر مستطاع . صحيح أن بعض الجهـود المبذولة تبوء بالفشل لأسباب خارجة عن إرادة المشتركين فى العمليات الإنتاجية . ولكن إذا ما كان الوعى التعاونى متوافراً ، عندئذ لايتسرب من الجهود المبذولة سوى قدر قليل لا يُذكَر.

ثانياً — زيادة الإنتاجية وتحسينها :

وكلما كان الوعى التعاونى أكثر نضجاً وأرسخ قدماً فى العقول والأفئدة ، فإن الإنتاج يكون أكثر وَفْرة وأجود نوعاً . ذلك أن هذا التعاون يعمل على تحقيق التناسق والتآزر بين الأفراد بعضهم وبعض ،

وبين المجموعات الفرعية بعضها وبعض ، بل وبين الجماعة الإنتاجية ككل وبين الجماعات الأخرى المتعاملة معها .

ثالثاً — إدراك كل عضو لمدى صلاحياته :

فكلما كان المرء أكثر تمتعاً بالوعي التعاونى ، فإنه يكون بالتالى أكثر تفهُّماً لمدى صلاحياته وللمسئوليات المخوَّلة له . فهو بهذا الوعى التعاونى لاينكُص عن استثمار تلك الصلاحيات وهذه المسئوليات ، كما أنه لا يتعداها فيستلب بذلك صلاحيات ومسئوليات غيره من العاملين معه . فهو يقف على حدوده المسموح له بها فلا يتنازل عنها ولا يتخطاها فى الوقت نفسه بالاستيلاء على الحدود المسموح بها لغيره من العاملين معه .

رابعاً — الاستعداد لمد يد العون :

فالمتمتع بالوعى التعاونى يكون على استعداد للمساهمة فى سد الفراغات التى يمكن أن تحدث فى سياق القيام بالعمليات الإنتاجية المتباينة . فإذا ما مرض أحد العاملين أو تخَلَّف أو انقطع عن العمل أو فصِل منه ، فإن زميله المتمتع بالوعى التعاونى يقوم مقامه بالإضافة إلى نهوضه بمسئولياته الإنتاجية . وبتعبير آخر فإنه يضاعف من جهده المبذول بحيث لايبدو مقصِّراً فى أداء الواجبات الإنتاجية المنوطة به من جهة ، كما لايبدو مقصِّراً فى القيام بعمل الزميل الذى تخلَّف عن العمل من جهة أخرى .

خامساً — تحمُّل جانب من الخسارة الجمعية :

وصاحب الوعى التعاونى يكون قادراً على التعاون مع زملائه على اجتياز الأزمات التى تُحِيق بشركتهم أو مصنعهم بتحمل الخسائر التى

توزع عليهم . فهو يتقبل بصبر الخسائر التى تتطلب تخفيض أجره أو حجب المكافآت والحوافز عنه ، بل إنه يشحذ همته وهمم زملائه لكى يُعَوِّضوا عن الخسارة ببذل جهد أكبر وبتعديل استراتيجيات العمل وتخطى الظروف والمواقف التى أدت إلى تلك الخسارة . فالمرء المتمتع بالوعى التعاونى يكون مستعداً لتقبل المواقف الصعبة وهضمها والبدء من جديد بنشاط أوفر وبجهد مضاعف حتى لاتتكرر المواقف المؤلمة التى تواكبت وقوع الخسارة وإمعنقاص الدخل بالتالى .

* * *

الفصل الخامس عشر
الادارة والانتاج

□ الإدارة بالأهداف :

عندما نستخدم لفظ « الإدارة بالأهداف » ، فإننا نعني مجموعة من المعاني ، لعلنا نقوم باستعراضها على النحو التالى :

أولاً — المعنى الاستراتيجى :

ونعنى به التصويب إلى مرمى بعيد أو إلى هدف لا يمكن تحقيقه بالكامل ولكن يمكن الاقتراب منه فحسب ، فإذا ما تَرَسَّم مدير إحدى المؤسسات هدفاً لإدارته مُؤَداه أن تنفذ جميع خطوات العمل بدقة ، وأن يستتب النظام فى إدارته استتباباً تاماً ، وأن لا ينقطع أى من العاملين عن مقر العمل أو يتوانى فى أدائه وفى النهوض بمهام وظيفته ، وأن يقرّ جميع المتعاملين من الخارج مع إدارته بأنه لا يوجد أى اعوجاج أو ما يضايق أو يَحْمل على الشكوى ، فإن مثل هذه المجموعة من الأهداف التى يتوخاها مثل هذا المدير يمكن الاقتراب من تحقيقها فحسب ، ولكن من المستحيل تحقيقها بالكامل . فيكون المدير فى هذه الحالة قد تَرَسَّم أهدافاً استراتيجية . والفرق بين الهدف الاستراتيجى وبين الهدف الرومانسى ، هو أن الهدف الاستراتيجى يمكن قطع شوط بعيد فى تحقيقه . أما الهدف الرومانسى فإنه يكون بعيد المنال تماماً ومتَّسماً بالخيال غير الواقعى .

ثانياً — المعنى التكتيكى :

ونقصد بالمعنى التكتيكى للإدارة بالأهداف تحديد أهداف قريبة المنال وقصيرة الأمد وقليلة الخطوات ، بل وقليلة التكاليف ، ولا تحتاج إلى جهود كبيرة فى سبيل النهوض بها وتحقيقها . فالمدير الذى يستعين بالتكتيك لا يضع خطة طويلة الأمد ، كأن تكون عشر أو خمس سنوات ، بل يضع خطة أسبوعية أو نصف شهرية ، فيكون بذلك مُلِماً بالظروف والملابسات التى يمكن أن تقع خلال هـذه الفترة القصيرة ، كما أنه لا يكون بحاجة فى هـذه الحالة إلى حشد الجهود الضخمة أو إعداد النفقات التى يتعذر جمعها أو حتى التنبؤ بمقدارها ، بل يكون واقعياً إلى أعلى درجة ممكنة فى تقديراته ، سواء من حيث التكلفة أو من حيث الإمكانات أو وسائل التنفيذ أو ترقب الأحداث التى يتوقع حدوثها خلال تلك الفترة الوجيزة .

ثالثاً — المعنى الكمِّى :

وهذا المعنى يعنى أن المدير الذى يضطلع بالإدارة بالأهداف يهتم بالكم ، أعنى بالإحصاء . فهو يحدد كمية أو عدد القطع التى يبغى إنتاجها فى المستقبل . فهو يقوم بتحديد كمية أو عـدد يعتزم تحقيقه خلال فترة معينة . فمدير المصنع مثلاً قد يعمد إلى تحديد عدد القطع التى سوف ينتجها مصنعه خلال شهر أو ستة أشهر ، أو قد يقوم بتحديد الأوزان أو الطاقات التى يبغى التوصل إليها بما سوف يوفره من إمكانات إنتاجية.

رابعاً — المعنى الكَيْفى :

وفى مقابل المعنى الكمى ، نجد هذا المعنى الكيفى ، وهو المعنى الذى قـد يتَوخَّاه بعض المديرين فى إدارتهم بالأهداف . فقـد يَعْـمـد

أحد مديرى المدارس إلى تحديد هدف يرغب فى تحقيقه خلال فترة معينة قد تكون عاماً دراسياً ، بمقتضاه تكون مدرسته على أعلى درجة من النظافة والنظام ، مؤكداً أن النظافة والنظام سوف يحملان التلاميذ على تغيير نمط حياتهم ، سواء بالمدرسة أم بالبيت أم بالشارع أم بأى مكان عام . وحتى فى علاقاتهم الفردية وعلاقاتهم الجمعية ، فإن ما سوف يراعونه فى أنشطتهم المتباينة من نظافة ونظام ، سوف يحملهم على اتِّباع طريق الفضيلة والرقى والتمدن . فمثل هذا الناظر يهمه بالدرجة الأولى صقل شخصيات تلاميذه ، وهو يُرَجِّح كفة الكيف السلوكى ، على كفة إحراز المجاميع المرتفعة فى الامتحانات ، وعلى غير ذلك من تقييمات كمية .

خامساً — المعنى الانتمائى :

وفى هذا المعنى نجد أن المدير يهتم بتحقيق روح الانتماء فيمن يقوم بإدارة جماعتهم . فناظر المدرسة المؤمن بهذا الهدف يحاول جاهداً أن يحقق روح الانتماء فى تلاميذه أو طلبته ، سواء كان الانتماء الذى يعنيه هذا المدير انتماءً دينياً ، أم كان انتماءً سياسياً . فالمهم فى نظره أن يغرس فى قلوب تلاميذه أو طلبته روح الانتماء ، مؤكداً أن أهم مطلب ذى أهمية فى أنظار إدارته هو تحقيق هذا الهدف الانتمائى فى شخصيات من يقوم بإدارة دفة نشاطهم ، سواء فى نطاق المؤسسة التعليمية أم خارجها .

وبعد أن قمنا باستعراض هذه المعانى الخمسة للإدارة بالأهداف ، فإن علينا أن نقوم بإلقاء الضوء على علاقة هذا النوع من الإدارة بالإنتاج فنجد أن هذه العلاقة يمكن أن تتحدد على النحو التالى :

أولاً — الوقوف على مدى النجاح :

فالمدير الذى يتَوخَّى فى إدارته تحقيق أهداف معينة ، سواء كان

واحداً أو أكثر من الأهداف الخمسة التى ذكرناها ، يكون بمستطاعه أن يقوم بحساب مدى النجاح الذى حققه ، كما يتسنى له الوقوف على أسباب الفشل فى تحقيق بعض أهدافه ، وأيضاً تحديد المُعَوِّقات التى اعترضت طريق محاولاته فى سبيل تحقيق أهدافه التى تَرَسَّمها لإدارته .

ثانياً — استبعاد المعوِّقات :

وطالما استطاع المدير الذى يتَوخَّى الإدارة بالأهداف أن يحدد العوامل التى تَعُوق تحقيق الأهداف التى تَرَسَّمها ، فإنه يكون بالتالى قادراً على تحديد العوامل التى يتسنى بها استبعاد تلك العوامل المُعَوِّقة ، وإحلال عوامل مساعدة ومؤدية إلى تحقيق الأهداف المرجوة محلها .

ثالثاً — الإفادة من الخبرات السابقة :

والواقع أن المدير الذى يتذرع بالإدارة بالأهداف خليق بأن يفيد من عوامل النجاح وعوامل الفشل التى حاقت بالتجارب التى خاضها . وبتعبير آخر فإنه يقوم بعمليات تفاعلية خِبْرية بين ما ترسَّب لديه من تلك الخبرات ، وذلك بأن يجعل من خِبْرات النجاح عوامل دافعة ومشجعة ، كما يجعل من عوامل الفشل عوامل تصحيح لمسار إدارته . فهو لا يتخلص من أخطائه فحسب ، بل يفيد أيضاً من وقوعه فيها ، وذلك بالوقوف على الأسباب التى دفعت إلى التردِّى فيها ، فيجعل منها نقط انطلاق للتقدم والإصلاح ، بل ولدعم أسباب النجاح أيضاً .

رابعاً — تَرَسُّم أهداف جديدة :

وكلما توصل المدير المتذرع بالإدارة بالأهداف إلى تحقيق الأهداف التى سبق أن ترسَّمها ، فإنه يعمِد إلى إضافة أهداف جديدة إلى الأهداف السابقة . وقد يجد أن بعض الأهداف التى سبق أن حدَّدها

وترسَّم تنفيـذها قد تحققت وصارت مُستنفَدة ولم تعد لها قيمة ، فيستبعدها ويُحِلّ محلها الأهداف الجديدة التى يرى أنها جديرة بالتَّرَسُّم والاستهداف .

خامساً — تطوير الأهداف الموجودة :

وقد يعمِد المدير المتذرع بالإدارة بالأهداف إلى تطوير الأهداف التى سبق أن ترسَّمها وحاول تحقيقها ، ولكنه وجد بعد تلك المحاولات أنها بحاجة إلى تطوير ، وذلك بمدّها بمقومات جديدة تعمل على تنشيطها وتقويتها ، فتكون بذلك خليقة بتقديم نتائج أفضل من النتائج التى سبق أن قدمتها من خلال العمليات الإنتاجية السابقة .

□ الإدارة بالوسائل :

علينا قبل أن نعرض للإدارة بالوسائل أن نُلْقى الضوء على هذا النوع من الإدارة لنتبين ملامحه ومقوماته ، فنجد أن هذه الملامح والمقوِّمات يمكن أن تتحدد على النحو التالى :

أولاً — الكلام المنطوق وتعبيرات الوجه وإشارات اليدين :

فالتعليمات والأوامر والتهديدات والعبارات التشجيعية ، وما قد يستخدمه المدير من تعبير غير منطوق عن مشاعره بما يرتسم على وجهه من ملامح ، وبما يأتيه من إيماءات ، وبما يصدر عنه من حركات ، إنما تنخرط جميعاً فى إطار الوسائل التى يمكن أن يستخدمها فى إدارته .

ثانياً — المكافآت والعقوبات :

ومن الوسائل التى تنخرط فى إطار الإدارة بالوسائل ، ما يمكن أن يستخدمه بعض المديرين فى إدارتهم من مكافآت وعقوبات . والمكافآت والعقوبات قد تكون مالية ، كما أنها قد تكون أدبية ، فالترقية إلى منصب أعلى يعتبر مكافأة أدبية ، كما أن التنزيل إلى وظيفة أقل يعتبر عقوبة أدبية .

ثالثاً – توفير الإمكانات :

ومن الوسائل التى تساعد على حسن الإدارة ، توفير الإمكانات التى تسمح بإنجاز العمل . ولعل أهم شىء بهذا الصدد هو المكان الذى ينجز فيه العمل ومدى مناسبته لممارسته . فمدير المدرسة المهتم بوسائل الإدارة ، يجب أن يوفر لكل تخصص من تخصصات هيئة التدريس ، المكان المناسب لممارسة الأنشطة المتعلقة به . فما يناسب مدرسى العلوم يتباين عما يناسب مدرسى التربية الفنية ، وما يناسب مدرسى التربية الفنية يتباين عما يناسب مدرسى التربية الرياضية ، وهكذا دواليك . ناهيك عن الأجهزة والخامات والمراجع ونحو ذلك من إمكانات يجب أن تتوافر أمام كل مدرس حسب مادة تخصصه .

رابعاً – التجديدات والتطويرات المستمرة :

فمن الأهمية بمكان قيام المدير بمواكبة ما يستجد فى نطاق المجال الذى تنخرط فيه إدارته من تجديدات وتطورات . وعلينا أن نذكر أن العصور الحديثة تشاهد تجديدات وتطورات متسارعة بل ومتضاعفة. فما كان يصلح لممارسته منذ خمس سنوات لم يعد صالحاً للعمل به اليوم ، وما يصلح للعمل به اليوم ، سوف لايصلح للعمل به بعد خمس سنوات أو حتى بعد أقل من خمس سنوات .

خامساً – التغلب على المشكلات وإزالة العقبات :

ومن وسائل الإدارة بالوسائل : العمل على حل المشكلات وإزالة العقبات التى تحيق بالعاملين تحت إمرة المدير المؤمن بهذا النوع من الإدارة بالوسائل ، وهو الذى لا يُفَرِّق بين المشكلات والعقبات الشخصية التى تعتور الحياة الشخصية لأى من العاملين تحت إمرته ، وبين

المشكلات والعقبات الإدارية التي تعتور طريق ممارسة العمل نفسه . ذلك أن ثمـة تداخلاً وتفاعلاً فيما بين المشكلات والعقبات الشخصية ، والمشكلات والعقبات المتعلقة بالعمل . فما يتعلق بشخصية العامل ينعكس على العمل ، كما أن ما يتعلق بالعمل ينعكس على شخصية العامل سواء بسواء .

وبعـد أن عرضنا للمُـقَـوِّمات التي يشتمل عليها هـذا النوع من الإدارة ، فإن علينا أن نقوم باستعراض أثره في الإنتاج على النحو التالي :

أولاً — تعبيد الطريق أمام العاملين :

فالواقع أن الكثير جداً من المشكلات التي تعترض طريق الإنتاج ، إنما تتأتى عن عدم توافر الوسائل المناسبة للإنتاج . فإذا ما ركّز المدير جهده في توفير الوسائل المناسبة لإنجاز العمل ، فإن ذلك سوف يساعده جداً في ممارسة إدارته بكفاءة واقتدار ، بل إنه يذلل الكثير من الصعوبات التي يمكن أن تعتور طريق التنفيذ والاضطلاع بالمسئوليات المتباينـة بالنسبة للعاملين تحت إمرته .

ثانياً — إشاعة السعادة في قلوب العاملين :

فالمدير الذي يهتم بوسائل العمل ويقوم بتذليل الصعوبات وتوفير إمكانات العمل ، إنما يكون قد عمل على إقبال العاملين تحت إمرته على ممارسة العمل بهمة ونشاط وسعادة وخلو من التبرم والامتعاض . ولعلنا نزعم أن المرء محب بالطبع لممارسة النشاط ، ولكن بشرط أن تتوافر أمامه فرص العمل بيسر وسهولة وعدم وقوف العقبات الكأداء في طريق ما يبذله من جهد وممارسة للعمل . ناهيك عن أن العامل عندما يحس بأن جهده المبذول يُفْضي إلى إنتاج غزير ورفيع المستوى ، فإنه يحس عندئذ بالسعادة والغبطة والثقة بالنفس تملأ جنباته .

ثالثاً — تقلص الخلافات بين العاملين :

ويتواكب مع إشاعة السعادة في قلوب العاملين ، حسن المعاملة فيما بينهم ، وملاشاة الكثير جداً من الأسباب التى تثور المنازعات وتحدث المصادمات فى العادة بسببها ، ولسنا نغالى إذا ما قلنا إن المنازعات والمصادمات لا تستشرى إلا فى المناخ المُلبَّد بالشقاء وهروب السعادة من أنحائه . ولكن المناخ المفعم بالغبطة والبهجة ، يكون بالتالى مفعماً بالحب والإقبال والتعاون والتفاؤل والإيجابية .

رابعاً — النمو الخِبْرى المستمر :

فالمدير الذى يستمر فى تجديد وسائل الإنتاج ، إنما يكون عاملاً على حمل العاملين تحت إمرته على زيادة خبراتهم باستمرار ، على نقيض المدير الذى لا يجدد فى وسائل العمل ، والذى يجعل من العاملين تحت إمرته مجرد تروس جامدة متحجِّرة تعمل بطريقة نمطية لا تتعدل ولا تتطور على الإطلاق .

خامساً — زيادة كم الإنتاج والارتفاع بمستواه :

فمما لا شك فيه أن المدير الذى يدأب على تجديد الوسائل التى يستعان بها فى ممارسة العمل وتوفير أفضل الظروف أمام العاملين ، إنما يكون خليقاً بأن تحظى إدارته بالكم الإنتاجى الغزير من جهة ، وبالمستوى الرفيع لذلك الإنتاج من جهة أخرى . فطالما أن وسائل العمل تكون مناسبة لأدائه ، فإن الإنتاج يكون بالتالى غزيراً ومرتفع المستوى فى الوقت نفسه .

□ **الإدارة بالمبادئ والقيم :**

قد يستهدى بعض المديرين بمجموعة من المبادئ والقيم فى تسيير

ـفة العمل فى الإدارات المسئولين عنها ، فلا يكون أمامهم سوى إنعاش تلك المبادئ والقيم بحيث تستولى على عقول وأفئدة العاملين تحت إمرتهم . وهم يعتقدون أن اتّباع هذا المنهج فى الإدارة ، كفيلٌ بالتوصل إلى أفضل إنتاجية من جانب كل واحد منهم . ولعلنا نبدأ بسَوْق عيِّنة من تلك المبادئ والقيم التى يتوخاها هذا النوع من المديرين فى إدارتهم على النحو التالى :

أولاً — الالتزام بالصدق والصراحة :

فالتعامل فى داخل المؤسسة أو خارجها يجب أن يقوم على أساس قول الصدق والصراحة فى كل كلمة تقال . فكل شىء يجب أن يكون كالكتاب المفتوح أمام الجميع ، فإذا ما التزم جميع العاملين بهذا المبدأ ، فإن ذلك يكون كفيلاً بحسن سير العمل وبتقديم أفضل إنتاجية من جانب العاملين . وفى المقابل فإن الكذب وإخفاء الحقائق هما من أخطر عوامل الهدم والتعويق ووضع العراقيل فى سبيل الإنتاج الوفير والجيد .

ثانياً — الحفاظ على حقوق الآخرين :

ومن المبادئ الهامة التى يترسَّمها المدير من هذه الفئة ويجتهد فى نشرها وتأصيلها فى عقول وقلوب العاملين تحت إمرته ، مبدأ الحفاظ على حقوق الآخرين ، والحيلولة بينها وبين الضياع ، فإذا ما حرص كل واحد من العاملين على الحفاظ على حقوق غيره ، فإن ذلك الغير سوف يحافظ بالتالى على حقوقه . ويترتب على هذا إشاعة الثقة فى عقول وقلوب جميع من لهم صلات بالمؤسسة التى يشيع بها هذا المبدأ ويسيطر عليها ، سواء كانوا من العاملين بها ، أم كانوا من المتعاملين معها من الخارج . ويترتب على هذا بالطبع زيادة إنتاجية كل واحد من العاملين من جهة ، وزيادة إنتاجية المؤسسة ككل من جهة أخرى .

ثالثاً — الطاعة المتبصِّرة :

ومن المبادئ التى يعمل المدير المؤمن بمبدأ الإدارة بالمبادئ والقيم على إشاعتها فى سلوك العاملين معه ومن هم تحت إمرته ، الالتزام بمبدأ الطاعة المتبصرة ، بمعنى أن كل أمر يصدر إلى العاملين من الرؤساء يكون ملزماً لهم بتنفيذه . ولكن إذا وجد أحد العاملين أن الأمر الذى صدر إليه منافٍ للأصول المَرْعية ، أوسوف يجلب الخسائر على المؤسسة ، فإن عليه أن يمتنع عن التنفيذ ، وأن يقدِّم اعتراضاً مكتوباً موضحاً فيه أسباب اعتراضه . فإذا ثبت عدم صدقه وأنه يَلْوى عنق الحقائق ، فإن العقوبة الصارمة توقَّع عليه ، بل ويستبعد من الموقع الذى يشغله إلى موقع هامشى . فالأساس فى العلاقات هو طاعة الرئيس ، والاستثناء هو العصيان لأسباب يراها وجيهة ويسجلها .

رابعاً — الاقتصاد فى الجهد والنفقات :

ومن المبادئ التى يمكن أن يعلنها المدير المؤمن بمبدأ الإدارة بالمبادئ والقيم ، مبدأ مراعاة الاقتصاد فى الجهد المبذول وفى الأموال التى تنفق على المشروعات . وبتعبير آخر فإن هذا المبدأ يصبو إلى التوصل إلى أكبر قدر من الإنتاج ، وأفضل نوعية منه ، بأقل تكلفة ، وفى أقصر وقت ، وبأقل جهد ممكن ، وبأقصر طريق ، وبأقل عدد من العاملين . فإذا ما توافرت هذه الشروط واجتهد العاملون جميعاً فى مراعاتها وتطبيقها عملياً ، فإن إنتاجية المؤسسة تكون بالتالى عظيمة ويشار إليها بالبنان .

خامساً — التطوير المستمر وَفْق المستجدات :

والمدير الحريص على الأخذ بمبدأ الإدارة بالمبادئ والقيم ، يضع

نصب أعين العاملين معه وتحت إمرته ، ضرورة تطوير وسائل التخطيط والتنفيذ باستمرار ، والتكيف المستمر مع المستجِدات التى تظهر فى الأفق . فكلما توصَّل العلماء والتقنيون إلى حقائق جديدة أو إلى وسائل تخطيط وتنفيذ أفضل من المأخوذ بها آنياً والمطبقة بالفعل ، فلا بد من المسارعة إلى اجتلابها والأخذ بها بعد هضمها واستيعابها والتدرب عليها هضماً وتدرُّباً جيدين وإحلالها محل الحقائق والوسائل الراهنة .

وعلى الرغم من إيمان المدير المتذرع بالإدارة بالمبادئ والقيم بفاعلية هذا النوع من الإدارة ، فإننا نلاحظ أن هناك مجموعة من الصعاب أو العقبات التى تعترض طريق الإنتاج إذا ما طبق هذا المنهج فى الإدارة نوردها على النحو التالى :

أولاً — بالنسبة للالتزام بالصدق والصراحة :

فإن الواقع أن الصدق والصراحة قد يُشَكِّلان الطريق إلى الإفلاس وتوقف الإنتاج أو تعويقه . فرجال الأعمال يأخذون بمبدأ (ماكيافيللى) القائل إن الغاية تبرر الوسيلة . فإذا كان انتعاش الإنتاج يتأتى عن قول الكذب والتغطية على الحقائق والابتعاد عن الصراحة ، فلا بد من قول الكذب أو المراوغة . وعلى هذا فقد نقول إن قول الصدق والتزام الصراحة قد يتعارضان تعارضاً صارخاً مع مبدأ التكتم على أسرار العمل ، وهو المبدأ المأخوذ به فى المؤسسات المتباينة .

ثانياً — بالنسبة للحفاظ على حقوق الآخرين :

فالواقع أن ما يصح بإزاء الأخلاق الشخصية ، وفى الحدود الضيقة للعلاقات الوجدانية الحميمة ، قد لا يصح على الإطلاق فى نطاق السياسة والاقتصاد . فالعلاقات القائمة بين المؤسسات التى تعمل فى المجال الواحد ،

هى علاقات تنافس وتناحر ، بمعنى أن كل مؤسسة تستعين بجميع الوسائل التى تضمن لها التفوق على الأخريات . وبتعبير آخر فإن المبدأ الذى قرره ماكيافيللى هو الخليق بالاتباع فى مجال الأعمال ، أعنى بين المؤسسات بعضها وبعض ، بل وبين العاملين فى كل مؤسسة بعضهم وبعض .

وإنك لتجد هذا بجلاء بإزاء عنق الزجاجة ، أعنى الوظائف العليا أو الوظيفة الواحدة التى يهفو إلى الترقى إليها عدد كبير من العاملين ، فلا يرقى إليها سوى واحد منهم دون الباقين . فكل واحد منهم يستعين بجميع الطرق المتاحة التى تفتح له مجال الانتصار فى معركة البقاء الوظيفى ، إذا صح التعبير . من هنا فإن المدير الذى يريد أن يحمل العاملين تحت إمرته على أن يراعوا الحفاظ على حقوق الآخرين ، إنما يكون شخصاً رومانسياً ، إذ أنه لا يطالب بما يمكن ممارسته على أرض الواقع فى نطاق المؤسسة التى يقوم بإدارتها ، بل يكون المبدأ الذى يصبو إليه بلا رصيد من الواقع الأدائى .

ثالثاً — بالنسبة للطاعة المتبصرة :

فإن الأوامر التى تصدر من المدير أو من الرؤساء الذين يمنحهم حق إصدار الأوامر إلى المرءوسين ، لا تكون فى الغالب منزَّهة عن الهوى . فمهما تذرَّع مُصْـدر الأمر بالموضوعية ، فإن البطانة الوجدانية المعتملة فى شخصيته تعمل عملها بلا مفر ، وتؤثر فى قوامها إلى حد بعيد . وإنك لتجد الرئيس الحقود يُصْـدر الأوامر إلى مرءوسيه وهو متأكد من أنها مُتَـعذِّرة التنفيذ . فمهما حاول المرءوس تنفيذ الأمر ، فإنه يجد أن تنفيذه من المستحيلات . فماذا تكون النتيجة ؟ توقيع العقوبات الظالمة على ذلك

المرءوس المسكين . وهو الذى إذا أعلن تسفيهه للأمر الصادر إليه ، فإنه يعرض نفسه عندئذ للمساءلة ثم للجزاءات التى لا ترحم ، بل وللإبعاد عن الوظيفة التى يحتلها وركنه على الهامش الوظيفى . فمبدأ الطاعة المتبصرة يبدو إذن وجيهاً من حيث الظاهر ، ولكنه فى الواقع مبدأ أجوف لا طائل من ورائه .

رابعاً — بالنسبة لمبدأ الاقتصاد فى النفقات :

فهذا المبدأ ليس سوى حبر على ورق ، بمعنى أن الإنفاق على أية عملية يحسب على أساس أن هناك نسبة من الفاقد . وبتعبير آخر فإن العملية التى تحتاج إلى ألف جنيه مثلاً ، يجب أن يعتمد لها ألف وخمسون جنيهاً على الأقل ، وذلك لأن ظروف الأداء لا يمكن الإمساك بجميع خيوطها . فثمة طوارئ تقع ، أو عوائق أو مصاريف لا يمكن الإحجام عن إنفاقها ، بل إن بعض تلك المصاريف يخرج عن دائرة القانون . فقد تدفع بعض الرشاوى على هيئة إكراميات ، وقد تقيد بعض المصاريف على أنها ثمن شراء أشياء من صميم العملية ، مع أن الواقع أنها أُنْفقت فى أبواب لا تعترف بها المؤسسة . ناهيك عن أن أسعار السوق لا تثبت على حال ، بل ترتفع فجأة وبغير سابق إنذار .

خامساً — بالنسبة لمبدأ التطوير المستمر وَفْقاً للمستجدات :

فهذا المبدأ يتعارض مع المبدأ السابق ، ذلك أن التطوير المستمر يتطلب الاستغناء عن مُعِدات وآلات لا تزال صالحة للاستعمال : فكيف يتسنى للمدير التخلص مثلاً من الآلات الكاتبة التى تعد بالعشرات فى مؤسسته لكى يُحِل محلها أجهزة الكومبيوتر التى يبلغ ثمن الجهاز الواحد منها ثمن خمس أو ست آلات كاتبة ؟ ألا يُتَّهم مدير كهذا

بالتبديد لأن تلك الآلات الكاتبة التى يعرضها للبيع لا تساوى شيئاً يُذكر. فالتطوير المستمر وَفْقاً للمستجدات مبدأ طنَّان رنَّان ، ولكنه مبدأ عسير التنفيذ .

□ الإدارة بالاستعدادات والقدرات :

ما المقصود بالإدارة بالاستعدادات والقدرات ؟ إننا عندما نتناول هذا النوع من الإدارة ، فإننا نعنى مجموعة من المفاهيم التى نقدمها على النحو التالى :

أولاً — بالنسبة لتوزيع المسئوليات :

فالمدير الذى يتذرَّع بهذا النوع من الإدارة لا يوزِّع مسئوليات العمل على العاملين إلا بعد أن يكون على وعى تام بأن من تناط به إحدى المسئوليات ، يكون جديراً بالقيام بها على خير وجه ، وأنه قادر على ذلك بما أُهِّل به من استعدادات وبما حازه من قدرات .

ثانياً — الوقوف على ماتتطلبه كل مسئولية من استعدادات وقدرات :

ولكن لكى يتسنى القيام بمثل هذا التوزيع للمسئوليات على العاملين فى ضوء ما لدى كل منهم من استعدادات وقدرات ، فلا بد أن يسبق ذلك الوقوف على ما تحتاجه كل مسئولية من استعدادات وقدرات معينة . فهذه المعرفة والوعى بما تحتاجه كل مسئولية من استعدادات وقدرات معيَّنة ، تعتبر الخطوة الأولى التى ينبغى أن يتخذها المدير المؤمن بهذا النوع من الإدارة .

ثالثاً — التعديل الفترى فى توزيع المسئوليات :

ومن الحقائق التى يجب ألا تعْزُب عن البال أن الاستعدادات والقدرات التى يتمتع بها العاملون ليست مواهب استاتيكية ، وإنما هى

مواهب ديناميكية . وبتعبير آخر فإنها بمثابة عمليات متغيِّرة وليست أشياء ثابتة . فمن لديه استعدادات ومواهب معينة ، يكون معَرَّضاً لأن تشتعل فى قوامه ولأن تنطفئ ، ولأن تزدهر ولأن تذبل . وبتعبير آخر فإن صاحب الاستعدادات أو القدرات قد تنشط لديه تلك الاستعدادات والقدرات وقد تخبو أو تندثر تماماً . ومن جهة أخرى فإن بعضاً من العاملين الذين لم تكن تبدو لديهم تلك الاستعدادات والقدرات وإذ بهم يُبْدونها متوهجة قوية . من هنا فإن على المدير المؤمن بهذا النوع من الإدارة ، أن يكون على استعداد دائم لأن يعيد توزيع المسئوليات على العاملين وَفْق ما يبديه كل منهم من استعدادات وقدرات .

رابعاً ــ تدريب العاملين :

بيد أن المدير المؤمن بهذا النوع من الاستعدادات والقدرات لا يترك مسألة بزوغ تلك الاستعدادات والقدرات لدى العاملين تحت إمرته للمصادفات السعيدة أو للتلقائية ، بل يعمِد إلى توفير الظروف المناسبة لبزوغها واعتمالها . من هنا فإنه يدأب على عقد التدريبات المستمرة للعاملين فى كَنَفه . وهذه التدريبات بمثابة المثيرات التى تحْفِز من لديهم استعدادات وقدرات على إبرازها للعيان . وبعد أن يعطى الفرصة لجميع العاملين لتنمية ما لدى كل منهم منها ، فإنه يكون بعد ذلك خليقاً بأن ينتقى من بينهم من بزغت وتوهجت لديه ، ويكون بالتالى كفئاً للنهوض بالمهمام والمسئوليات المتباينة ، فيقدم على توزيعها عليهم حسب ما تبدّى لدى كل منهم منها .

خامساً ــ التقييم الفترى للحصائل الإنتاجية :

وأخيراً فإن المدير المؤمن بهذا النوع من الإدارة يدأب على تقييم

ما قام كل واحد من العاملين تحت إمرته بتقديمه من إنتاج. ومن الطبيعي أن يقوم المدير بإعادة توزيع المسئوليات والمهام فى ضوء هذا التقييم الفترى للإنتاج . ومعنى هذا أن المسئوليات التى توكل إلى العاملين ، ليست حقوقاً ثابتة كحق مطلق لكل منهم ، بل هى حقوق متغيِّرة تَبَعاً لما يقدمه كل منهم من إنتاج بإزاء ما أوكل إليه من مسئوليات .

وبعد أن قمنا باستعراض هذه المعانى الخمسة التى يتضمنها هذا النوع من الإدارة ، فإن علينا أن نقوم بإلقاء الضوء على مزايا هذا النوع من الإدارة على النحو التالى :

أولاً — تحقيق مبدأ تكافؤ الفرص :

فهذا النوع من الإدارة يحقق مبدأ تكافؤ الفرص إلى أقصى درجة ممكنة . فهو يقدِّم إلى كل واحد من العاملين ما يستطيع أن يضطلع به بالفعل من مسئوليات فى ضوء ما يبديه من استعدادات وقدرات . فلا تُوَزَّع المسئوليات عليهم حسب الأقدمية ، أو فى ضوء أى اعتبار آخر سوى القدرة بالفعل على تحمل المسئولية المنوطة به .

ثانياً — العمل على إبراز المواهب :

وهذا النوع من الإدارة لا يقف عند حدود تكافؤ الفرص فى ضوء الظاهر من السلوك ، بل يحاول إخراج المخبوء من تلك الاستعدادات والقدرات التى لم يتسن لها أن تبزغ إلى سطح السلوك بما يقدم إلى جميع العاملين من تدريبات ومواقف تسمح ببزوغ المطمور لديهم من الاستعدادات والقدرات .

ثالثاً — تحقيق الدينامية للعمل :

فهذا النوع من الإدارة يحقق مبدأ الدينامية للعمل . فليس هناك

ركود وخمود فى المسئوليات التى يضطلع بها العاملون ، بل هناك ما يشبه النهر الجارى الذى لا يتعرض ماؤه للأسُون أو الركود ، وذلك بفضل الحركة الدائبة للماء وتجدده باستمرار . فسكون المسئوليات وعدم إعادة توزيعها على العاملين باستمرار يؤدى إلى عَطَبها وفسادها . وعلى العكس من هذا فإن التجديد فى التوزيع وَفْق متطلبات العمل من جهة ، ووَفْق ما يباديه كل واحد من العاملين من قدرة على الأداء من جهة أخرى ، يُعَد الكفيل باستمرار التقدم بعجلة الإنتاج فى مجال العمل الذى يُمْسك بقيادته مدير مؤمن بمبدأ الإدارة بالاستعدادات والقدرات .

□ الإدارة بالعلاقات الاجتماعية :

يحسن بنا أن نبدأ بإلقاء الضوء على مضمون الإدارة بالعلاقات الاجتماعية حتى يتضح لنا أثر هذا النوع من الإدارة فى الإنتاج . فهذا المضمون يحتوى على ما يأتى :

أولاً — التواضع وعدم التعالى :

فالمدير المؤمن بهذا النوع من الإدارة يَتَّخذ من الاتضاع والنزول إلى مستوى المرؤوسين حتى أقلهم وظيفة وسيلةً فعالة فى الإدارة . فهو يرفع الكُلْفة معهم جميعاً حتى يشعروا بأنه لا يَسُوقهم إلى العمل سَوْقاً ، أو أنه يستعبدهم استعباداً ، أو أنه يتخذ من وظيفته الرئاسية وسيلة لاستذلالهم وإشباع ميوله للهيمنة ومصادرة آدميتهم . ناهيك عن أن تذرع المدير بالتواضع يسمح له بالوقوف على مشكلات العمل والإنتاج مباشرة دون أن تكون هناك حواجز قائمة فيما بينه وبين العاملين تحت إمرته .

ثانياً — العزف على أوتار القلوب :

والمدير المؤمن بهذا النوع من الإدارة يجيد العزف على أوتار قلوب

العاملين معه والذين يعملون تحت إمرته، بل إنه يجيد العزف أيضاً على قلوب رؤسائه ، وذلك بما يبديه من تعاطف ومشاركة وجدانية مع الجميع فى المناسبات المتباينة ، سواء كانت مناسبات سارة أم مناسبات مكدِّرة . فهو يعلم جيداً أن تلك المجاملات الشخصية ذات أثر بعيد المدى فى العمل، وفى تسهيل مسارات الأداء ، وفى إحراز قدر أكبر من الإنتاج مع ارتفاع مستواه . والمدير من هذه الفئة يعلم جيداً أن المشاركة الوجدانية فى المواقف المتباينة بحاجة إلى تَـمَـرُّس . وبتعبير آخر فإن تلك المشاركة تتضمَّـن مهارة معينة يجب التمرن عليها بإزاء العلاقات الاجتماعية فالطريقة التى تُـؤَدَّى بها تلك المشاركة هى الجوهر والركن الركين فى تلك المشاركة الوجدانية .

ثالثاً — تجميع فئات العاملين فى مجموعات متناسقة ومتآلفة :

والمدير المؤمن بهذا النوع من الإدارة يعرف يقيناً أن العاملين كلما كانوا على مستوى أكبر من الانسجام والتآلف ، فإن الإنتاج الذى يقدِّمونه يكون أكثر كماً وأجود كيفاً . من هنا فإنه يعمِـد إلى تشكيل مجموعات العاملين فى فئات منسجمة بعضها مع بعض . ذلك أنه كلما شُـكِّـلت كل مجموعة على غرار الكائن الحى المُـتَّـسق فى مقوماته على نحو متكامل، فإنها تكون إذن خليقة بالعمل وَفْـق سيمفونية أدائية خالية من النُّـشُـوز ، أى أنها تكون خالية من المشكلات والمُـنَـغِّـصات التى تعطِّـل عجلة العمل .

رابعاً — المشاركة فى تذليل الصعوبات :

والمدير المؤمن بهذا النوع من الإدارة ، يعمِـد إلى تذليل الصعاب سواء تلك الصعاب التى تعترض طريق ممارسة العمل ، أم تلك التى تعتور الحياة الشخصية لأى من العاملين تحت لوائه . فهو يجعل من نفسه

أداة تساعد على تعبيد طريق الأداء من جهة ، وعلى التخلص من المشكلات النفسية لدى العاملين والتى تنشأ عمَّا يقف حجر عثرة أمام شخصية أى عامل منهم ، بغض النظر عن مكانته الوظيفية من جهة أخرى . ذلك أنه يؤمن إيماناً عميقاً بأن ظروف العامل الشخصية ذات أثر بعيد فى مدى إنتاجيته . فإذا هو عمل على تذليل الصعاب التى تعتور طريقه ، فإنه يكون بذلك وبطريق غير مباشر عاملاً على النهوض بمستوى أدائه وإنتاجيته .

خامساً — دعم الثقة بالنفس فى شخصيات العاملين :

والمدير المؤمن بهذا النوع من الإدارة ، يحاول بصفة مستمرة أن يبث الثقة بالنفس فى عقول وقلوب العاملين معه وتحت إمرته . ذلك أنه يعلم علم اليقين أن المرء كلما كان أكثر ثقة بنفسه ، فإنه يكون بالتالى خليقاً باستثمار استعداداته ومواهبه المطمورة بدخيلته . فما يكون هاجعاً منها وراكداً ، يخرج إلى أرض الواقع السلوكى ، ويتبدى فى الفكر والوجدان و الإرادة ، ثم ينعكس بالتالى على ما يضطلع به العامل من أعمال ، فيقدِّم أفضل إنتاجية تسمح بها استعداداته ومواهبه .

وبعد أن قدمنا هذه الاتجاهات التى يتذرع بها المدير المؤمن بالإدارة بالعلاقات الاجتماعية ، فإن علينا أن نستعرض المزايا والعيوب التى يشتمل عليها هذا النوع من الإدارة ، ولنبدأ باستعراض المزايا على النحو التالى :

أولاً — الدينامية الإنتاجية :

فالواقع أن الإدارة بالعلاقات الاجتماعية لا تعمل بالضغط من الخارج على الداخل ، بل على العكس من هذا فإنها تعمل على أساس

حَفْز الداخل للانعكاس بالنشاط التلقائى إلى الخارج ، بمعنى أن أول الخيط فى العمل الإنتاجى يكون الباعث النفسى الداخلى لدى العاملين. فالمدير فى هذه الحالة لا يكون سوى مهيئ للظروف المناسبة للإنتاج ولا يكون أداة تدفع العاملين دفعاً من الخارج ، ولا تجعل منهم تروساً فى آلة كبيرة تؤدى العمل . وبتعبير آخر فإن هذا النوع من الإدارة يتضمن اعترافاً كاملاً بشخصية كل واحد من العاملين ، بل إنها تعترف فى الوقت نفسه بوجود فروق فردية بين كل عامل وآخر .

ثانياً — ترجيح قيمة العامل على قيمة العمل :

وهذا النوع من الإدارة يرتفع بقيمة العامل إلى مستوى أعلى من قيمة العمل نفسه . فإنسانية الإنسان تعلو فى مقامها على الكم الإنتاجى أو نوعيته . وبتعبير آخر فإن الإنتاج لا يكون سوى ثمرة لإرادة العاملين وليس غاية يتحتم التوصل إليها . ولكن مع هذا فإن الواقع أن العمل بهذا المنهج فى المدى البعيد نسبياً ، يقدم إنتاجاً أوفر كماً وأرفع مستوى : وذلك بعد تذليل الصعاب النفسية الشخصية ، وبعد تناول الإدارة من هذا المنظور الذى يعتمد على إقامة علاقات اجتماعية ونفسية سديدة بين المدير والعاملين معه وتحت إمرته .

ثالثاً — توفير فرص الإبداع أمام العاملين :

والإدارة القائمة على أساس العلاقات الاجتماعية خليقة بالسماح لجميع العاملين فى شتى الجبهات ، وفى جميع المستويات لأن يقدموا إبداعات متباينة فى ممارسة العمل . فالمدير المؤمن بهذا النوع من العلاقات لا يعمد إلى فرض قوالب سلوكية وأدائية يمارس بها العاملون العمل ، بل يترك الحرية لكل عامل للتعبير عن ميوله الشخصية ، وعما يتسنى له

تقديمه من وسائل أداء جديدة مبتكرة . فالطريق نحو خلق مسارات جديدة لممارسة العمل مفتوح أمام جميع العاملين بمن فيهم الصغار منهم من حيث المكانة الوظيفية . ذلك أن المدير من هذه الفئة يؤمن إيماناً أكيداً أن لدى كل امرئ طاقات إبداعية عظيمة تتبدى إذا ما توافرت لها فرص التعبير عن ذاتها بحرية وانطلاق .

رابعاً — القضاء على معظم الخلافات والمنازعات :

وهذا النوع من الإدارة التي ترتكز على العلاقات الاجتماعية السوية المُتَّسمة بالحب والوئام والتعاون والتعاطف والمشاركة الوجدانية ، خليق بالقضاء على معظم العوامل التي تؤدى إلى نشأة الخصومات بين العاملين . ذلك أن المدير المؤمن بهذا النوع من الإدارة يكون بمثابة النور الذى يُزْهق ظلام تلك الخصومات من العلاقات القائمة بين العاملين بعضهم وبعض . فهو نِبْراسهم ومثلهم الأعلى . فطالما أنه يعمل على إشاعة الحب بينه وبينهم ، فإنهم بالأولى يعمِدون إلى إشاعة الحب فيما بينهم . فلا تنشأ الخصومات والمنازعات فى الأغلب باستثناء بعض الحالات المستثناة التى يمكن القضاء عليها إذا ما بزغت إلى الوجود .

خامساً — الالتذاذ بممارسة العمل :

فالعاملون تحت إمرة المدير المؤمن بهذا النوع من الإدارة يستشعرون اللذة فى ممارسة العمل . ذلك أن الباعثية التى تعتمل فى قوام كل واحد منهم تُشْعره بأنه سعيد وهو موجود فى مقر العمل . فهو لا يحس بالإرهاق فى ممارسته ، بل نقول إنه يكون مَشُوقاً فى كل صباح للتوجه إلى مقر عمله حيث يقضى الوقت السعيد فى رحابه .

ولعلنا نقوم فى نهاية المطاف باستعراض عيوب هذا النوع من الإدارة المعتمدة على العلاقات الاجتماعية على النحو التالى :

أولاً — عدم استجابة بعض العاملين :

فمن الناس من لا يعلمون إلا إذا دُفِع بهم دفعاً من الخارج . وبتعبير آخر فإن الخوف يُشَكِّل بالنسبة لكثير من العاملين المُقَوِّم الفعال فى ممارستهم لمهام وظيفتهم . فإذا ما اتبع هذا النوع من الإدارة ، فإنه لا يُجْدى نفعاً معهم ، ولا يحملهم على التعاون والإنتاج .

ثانياً — بعض الأعمال تتطلب الإنجاز السريع :

فترك الحَبْل على الغارِب لكل واحد من العاملين لكى ينبعث من دخيلته فى أداء مهام وظيفته ، إنما يؤدى إلى تعطيل كثير من الأعمال التى يلزم أداؤها بسرعة وبغير تمَهُّل أو إبطاء . وطالما أن الرؤساء والمرءوسين يكونون على مستوى واحد من اللين والمعاملة اللطيفة ، فإن الصغار منهم قد يتمرَّدون على الكبار ويعصون أوامرهم ، وبالتالى فإن الأعمال التى يجب إنجازها بسرعة تتعطل وتتعثر .

ثالثاً — رفع الكُلْفة بين المدير والعاملين يضيِّع هيبته :

أخيراً فإن هذا النوع من الإدارة القائمة على أساس العلاقات الاجتماعية ، يؤدى حتماً إلى ضياع الهيبة التى يجب أن تُناط بوظيفة المدير . فثمة مسافة نفسية — إذا جاز التعبير — يجب أن تظل قائمة فيما بين المدير ومرؤوسيه . فإذا ما أُلغيت تلك المسافة النفسية ، وشاعت الألفة ، ورفعت الكُلْفة بينه وبينهم ، فإن أوامره سوف يضرب بها عرض الحائط ، وتَضِيع بالتالى منه معالم الطريق الذى يجب اتباعه فى ممارسة الإدارة السليمة .

* * *

الفهـــرس

الموضوع | الصفحة

الموضـوع | الصفحة

الموضـوع الصفحة

الفصل الخامس عشر : الإدارة والإنتاج :

رقم الإيداع : ٢٢٦٣

الترقيم الدولى : ٩٧٧ ـ ٢٦٦ ـ ٠٥٩ ـ ٨

المطبعـــة العربيـــة الحديثـــة

٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية

تليفون : ٢٨٢٣٧٩٢ ــ ٢٨٣٥٥٥٤ القاهرة